طباعة. نشر. توزيع

تاريخ الرومان

تأليف : نجيب إبراهيم طراد
تقديم : الدكتور محمد زينهم عزب

١٩٩٧ - ١٩٩٨م

Bibliotheca Alexandrina
0016483

تاريخ الرومان

الناشر : مكتبة ومطبعة الغد
العنوان : ٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - جيزة
تليفون : ٣٢٥٠٢٠٢ - ٣٢٥٠٩٥٧
رقم الإيداع : رقم الإيداع : ٨٥٩٧ / ٩٧
الترقيم الدولى I.S.B.N : 977 - 5819 - 07 - 5
طبعة جديدة
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م
جميع الحقوق محفوظة للناشر
مكتبة ومطبعة الغد

تاريخ الرومان

تأليف

نجيب إبراهيم طراد

تقديم

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

الناشر

مكتبة [illegible] الغد

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

مقــدمة وتعريف

احتل تاريخ الرومان « الرومانيين » مكانة خاصة فى تاريخ العالم ، فالامبراطورية الرومانية اختلفت كل الاختلاف عن مكانة غيرها من الامبراطوريات التى ظهرت خلال عصور وأحقاب التاريخ ، ولا تعود أهمية هذه الامبراطورية إلى اتساع رقعتها الجغرافية التى احتوت على أقدم الحضارات التى عرفها البشر ، إذ بدأت فى القرن الثالث قبل الميلاد واستمرت باقية إلى القرن الخامس الميلادى فى الغرب الأوروبى وإلى القرن السابع فى الشرق ، ولكن أهميتها ترجع أساساً إلى أنها وقعت تاريخياً فى نهاية العالم القديم ، فقد تعرضت تلك الامبراطورية منذ القرن الثالث الميلادى لعوامل الضعف والتفكك من داخلها وخارجها ، ففى الداخل استشرى الفساد فى جميع النواحى الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية .

فمن يقرأ تاريخ الرومان منذ ظهورهم حتى سقوط الامبراطورية يتعجب كل التعجب ، فيعيش الإنسان تاريخ لا ينسى على مر الدهر ، فيجد صراعات على السلطة ، ومن يصبح امبراطوراً باستخدام كل وسائل القتل والنهب ، فالأخ يقتل أخيه ، والجنود يقتلون رؤسائهم ، والقواد يقتلون قائدهم ، ومجلس الشيوخ الرومانى يتآمر كل فرد على الآخر .

أيضاً وجود عناصر اجتماعية مختلفة فى المجتمع ، فكل عنصر له عادات وتقاليد تختلف عن العناصر الأخرى ، مما يؤدى إلى صدام دموى فى أى لحظة، أيضاً ظهور طبقات الأثرياء أو ما نطلق عليه « النبلاء » يمتلكون إقطاعات ضخمة فيظهر نظام السخرة والعبيد ، مما يؤدى أيضاً إلى صراع على الإقطاعات ، فكل نبيل يريد زيادة مساحة رقعة أرض على حساب آخر ، هذا ينتج إلى الحروب الأهلية .

أيضاً ضمت الامبراطورية ثقافات مختلفة من يونانية وعربية وفارسية وتركية وهندية . . . إلخ ، ومع كبر حجم هذه الامبراطورية إلا أنها تختلف كل

الاختلافات الولايات بعضها عن بعض ، فولاية الشام تختلف عن ولاية مصر عن ولاية أفريقية عن ولاية آسيا الصغرى . . . إلخ ، من حيث الإدارة والقيادة .

فقيصر أو الامبراطور أو رئيس مجلس الشيوخ يختار قائد لكل ولاية حسب موقف الولاية من الرومان ، فالولايات صاحبة الشغب والتمر والثورات يختار لها قائد يميل إلى القوة وسفك الدماء ، عكس ولاية لا حول لها ولا قوة فيختار رجل محبوب يستطيع أن يكسب عطف أهالى الولاية باللباقة والدهاء والحنكة السياسية ، فالتاريخ الرومانى لا يقل أهمية عن التاريخ اليونانى أو التاريخ العربى بل هى سلسلة متصلة ومرتبطة لتشكل حياة العالم القديم .

أيضاً لا ننكر أن الامبراطورية الرومانية خرجت لنا عدد كبير من الأدباء والخطباء والعلماء والمشرعين والإداريين لا زال التاريخ يحفظ لهم التاريخ مكانتهم ومتاحف العالم مليئة بتماثيلهم وآثارهم المنقوشة والمسجلة عليها أعمالهم فى شتى المجالات ، سواء انتصارات عسرية أو أشعار أو خطب أو إصلاحات اقتصادية واجتماعية . . . إلخ .

اخترق الدراسات التاريخية الرومانية عدد قليل من الباحثين والدارسين والمؤلفات المكتوبة عنهم تعد بسيطة إلى الغاية ، وهذا يرجع لصعوبة تتبع هذه الفترات الطاحنة ، ولكن مع ذلك لا ننكر بأن هناك فى مصر عدد لا بأس من المتخصصين فى هذا المجال ، نذكر منهم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على، وزكى على ، والدكتور إبراهيم نصحى ، ومصطفى حلمى ، وفاروق القاضى ، والناصرى ، وغيرهم ، أيضاً لا ننسى أن هناك عدداً من المستشرقين ملأوا المكتبات بمصنفاتهم التاريخية والأدبية عن الرومان وحضارتهم .

فالكتاب الذى بين أيدينا « تاريخ الرومانيين » من بناء روما إلى تلاشى الحكومة الجمهورية من الكتب التى تناولت بإيجاز حياة الرومان ، ولكن مع هذا فهو كتاب فى غاية الأهمية ، حيث يلقى الضوء على كل صغيرة وكبيرة منذ ظهور روما على مسرح التاريخ حتى عصر أكتافيوس (قيصر) وأنطونيوس ، فالكتاب يشتمل على الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لروما .

فالكتاب ينقسم إلى سبعة أبواب :

فالباب الأول : بعنوان : « فى ملوك رومية » ، وهم سبعة من سنة (٧٥٣ ق. م) إلى سنة (٥١٠ ق . م) ، وينقسم إلى سبعة فصول رئيسية :

فالفصل الأول : يتحدث عن الفترة فى رومية من سنة (٧٥٣ ق . م) إلى سنة (٧١٦ ق . م) .

والفصل الثانى : يتحدث عن الفترة من سنة (٧١٥ ق . م) إلى سنة (٦٧٣ ق. م) .

أما الفصل الثالث : يلقى الضوء على الأحداث من عام سنة (٦٧٣ ق . م) إلى سنة (٦٤١ ق . م) .

والفصل الرابع : يوضح لنا المؤلف الفترة من سنة (٦٤١ ق . م) إلى سنة (٦١٦ ق . م) .

والفصل الخامس : يشرح لنا المؤلف الفترة من سنة (٦١٦ ق . م) إلى سنة (٥٧٨ ق . م) .

والفصل السادس : يتكلم المؤلف عن الفترة من سنة (٥٧٨ ق . م) إلى سنة (٥٣٤ ق . م) .

ثم يختم المؤلف هذا الباب **بالفصل السابع** : الذى يوصف لنا المؤلف الأحداث التاريخية التى وقعت من سنة (٥٣٤ ق . م) إلى سنة (٥٠١ ق . م).

الباب الثانى : بعنوان : « من ابتداء الحكومة الجمهورية سنة (٥٠٩ ق . م) إلى حين تجديد بناء رومية سنة (٣٨٨ ق . م) بعد ما حرقها الغاليون ، أو من سنة (٣٤٤ ق . م) إلى سنة (٢٦٥ ق . م) » .

فيشمل هذا الباب على خمسة فصول :

ففى الفصل الأول : يبين لنا المؤلف القنصلية الأولى .

أما الفصل الثانى : يتحدث المؤلف عن حرب بورسينا وهيجان المديونين ، وإقامة ديكتاتور ، ووقعة رجلس .

والفصل الثالث : يتناول فى هيجان المديونين وذهابهم إلى الجبل المقدس ، وأعمال كوريولانس .

والفصل الرابع : يلقى الضوء على خصام العوام والشرفاء، وحرب الأكويين، وشرائع الاثنى عشر لوحاً ، وما جرى لفرچينيا مع أحد الحكام العشرة .

ثم الفصل الخامس : يتحدث عن خصام العوام والشرفاء وإقامة مفتشين واستبدال القنصلين بولاة عسكريين ، وتعين أجرة للجنود ، وحرب مدينة فىّ وفالريا ، وخروج كاملس من رومية ثم مواصلة الحديث عن حرب الغاليين مع ذكر سبابها ، ورجوع كاملس إلى رومية وطردهم منها .

الباب الثالث : « من حين تجديد بناء رومية سنة (٣٨٨ ق . م) بعد ما حرقها الغاليون إلى الحرب القرطجينية الأولى سنة (٣٦٤ ق . م) أو من سنة (٣٦٥ ق. م) » .

ينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول رئيسية :

فالفصل الأول : يتحدث عن قتال الرومانيين للأمم المجاورة والغاليين ، وإلغاء مناصب الولا العسكريين ، وإقامة برتور وديل ، وحرب السمنيتيين واللاتينيين .

أما الفصل الثانى : فيلقى المؤلف الضوء على حرب السمنيتيين وخضوعهم لحكم رومية .

ثم الفصل الثالث : يشرح لنا المؤلف حرب الترنتيين وبيبرس .

الباب الرابع : « من ابتداء الحرب القرطجينية الأولى سنة (٣٦٤ ق . م) إلى سنة (٣٠١ ق . م) » .

فالفصل الأول : يشرح لنا المؤلف أسباب حرب قرطجينية الأولى مع الخوض فى تفاصيلها .

والفصل الثانى : يلقى المؤلف التفاصيل على حرب القرطجنين وقتال الرومانيين للأيلربين والغاليين .

ثم الفصل الثالث : بين لنا المؤلف الحرب القرطجينية الثانية وأسبابها وتطورها ونتائجها .

الباب الخامس : « من انتهاء الحرب القرطجنية الثانية سنة (٣٠١ ق . م) إلى حين انتهاء الحرب الثالثة ، وخراب مدينة قرطجنة سنة (١٤٦ ق . م) » .

ويقع هذا الباب من فصلين :

فالفصل الأول : يتكلم المؤلف عن الحرب المكدونية الأولى والثانية ، وحرب أنطيوخس الكبير ملك سوريا ، وموت أنيبال .

أما الفصل الثانى : فشرح لنا المؤلف الحرب القرطجنية الثالثة .

الباب السادس : « من حين انتهاء الحرب القرطجنية الثالثة سنة (١٤٦ ق . م) إلى إقامة الحكومة الثلاثية الأولى سنة (٦٠ ق . م) » .

حيث يشمل هذا الباب على ثمانى فصول هامة ورئيسية :

فالفصل الأول : يتحدث عن إخضاع اليونانيين ، وحصار نيمانسيا ، ونزاع الغزاكيين والشرفاء ، وحرب العبيد فى سيسيليا .

أما الفصل الثانى : يتناول حرب بوغرتا بالتفاصيل .

الفصل الثالث : يتحدث المؤلف عن حرب السميريين والتيتونيين ، والحرب الأهلية والإيطالية .

الفصل الرابع : يشرح لنا المؤلف حرب متريدات الأولى ، وعداوة ماريوس وسيلا .

الفصل الخامس : يبين لنا المؤلف استيلاء سيلا على رومية وإقامته ديكتاتور أطول حياته إلى حين موته سنة (٧٨ ق . م) .

أما الفصل السادس : شرح لنا المؤلف حرب متريدات الثانية والثالثة .

والفصل السابع : لخص لنا المؤلف ترجمة حياة سيسرون وبورسيوس كاتو وجوليوس قيصر وسرجيوس كاتلينا قبل نشوب نار الفتنة التى أضرمها الأخير .

ثم يختم المؤلف كلامه **بالفصل الثامن** بشرح لنا مؤامرة كاتلينا ، وماذا حدث فى هذه المؤامرة .

الباب السابع : « من حين إقامة الحكومة الثلاثية الأولى سنة (٦٠ ق . م) إلى حين تسلط أوكتافيانوس سنة (٢٩ ق . م) » :

يقع هذا الباب فى أربع فصول :

فالفصل الأول : يتحدث المؤلف عن أعمال قيصر فى رومية وحروبه فى البلاد الغالية مع ذكر كراسس ببارثيا .

أما الفصل الثانى : يوضح لنا المؤلف حرب قيصر مع بومبايس وموت الأخير مع ذكر أعمال قيصر فى الشرق .

أما الفصل الثالث : فشرح لنا المؤلف حروب قيصر فى مناطق أفريقيا وأسبانيا وأعماله فى رومية ، وموته سنة (٤٤ ق . م) .

ثم يختم المؤلف **بالفصل الرابع** فى الحديث عن الحكومة الثلاثية الثانية وما جرى بعدها إلى حين موت أنطونيوس واستبداد أوكتافيانوس بالأحكام .

وصاحب هذا العمل الأديب والمؤرخ اللبنانى نجيب إبراهيم طراد ، من الكتاب الذى أغفله التاريخ ، فهو يتمتع بعقلية أدبية تاريخية إلى جانب إلمامه باللغات الأجنبية ، سواء اليونانية أو اللاتينية .

فالكتاب لا يقل أهمية ومكانة عن كتاب التاريخ ، ووجدت فى هذا الكتاب أن المؤلف يكتب الأسماء الرومانية حسب النطق ، فعلى سبيل المثال : سسرون تكتب « شيشرون » . . . إلخ .

وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة عام (١٨٨٦م) بالمطبعة اللبنانية على نفقة صاحب المطبعة چورچى حنا غرزوزى ، فهذا الكتاب عمل جديد فى الدراسات التاريخية ، فأرجو من الله - عَزَّ وجَلَّ - أن ينفع الباحثين والدارسين وقراء التاريخ القديم ، وأسأل الله العون والمغفرة يا أرحم الراحمين .

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

القاهرة فى : (١٤١٨ هـ/١٩٩٧م)

* * *

إهـــداء

أهدى هذا العمل إلى روح أستاذى ومعلمى
المرحوم الأستاذ الدكتور حسين مؤنس
تحية وعرفان بالجميل رحمه الله
رحمة واسعة وأدخله جنته .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

إن التاريخ هو شاهد الأزمنة ، ونور الحقيقة ، وحياة الذاكرة ، ومدرسة الحياة ورسول القدم ، كما قال ذلك أشهر خطباء الرومانيين ، فأى شىء إذاً أعظم من التاريخ ، وأى إنسان لا يحتاج إليه إذا أراد أن يكون على بصيرة فى أحوال حياته الدنيا ، نعم هو مشكاة هدى تنير عقولنا فتقيها من العثار فى حنادس الجهل ناشرة لنا فعال الأولى طوتهم الأرض ، فأصبحوا بعد العز والفخار هباءً منثوراً، لتكون أعمالهم للناس ما حيوا تبصرة وذكرى تحذرهم من ارتكاب المنكرات ، وتنذرهم بسوء العاقبة وشر العقاب ، وتحرضهم على فعل الخير لرفع شأن الإنسانية ، وتوفير أسباب التمدن العائد على المجتمع البشرى بالراحة والسلام .

ولما كان لكل شىء آفة كانت آفة التاريخ الاختلاق ، ولقد نطق بعضهم عن الهوى ، فسقط وما كتبهُ فى زاوية الذل والنسيان ، فيجب على المؤرخ أن يكون عليماً خبيراً قد عرك الدهر ، وعرف طباع الأنام ومكرهم ، حتى إذا ما أراد تدوين حادث محصهُ بفكر ثاقب ونشرهُ صحيحاً يعتمد عليهِ المعاصرون والخلف .

ولا يخفى ما لتاريخ الرومانيين من الفائدة والشهرة فى العالم ، فإن الأوروبيين يدرسونهُ فى مدارسهم كعلم لا بد منهُ ، لذلك قد عنيت بجمعهِ من عدة كتب إنجليزية وفرنسوية ، وجعلته تحفة لبنى الوطن .

أما لغتنا العربية : فمحتاج كل الاحتياج إلى كتب كثيرة ، فليت أبناءَها الكرام يقتدون بالغربيين ويقبلون على تنشيط طلبة العلم وأهله ، فيرفعوا منارهُ ويخطوا لهم على جبهة الدهر ذكراً لا يمحى ، وليتهم يقرأون التواريخ بالغدوّ والآصال ، فيدرؤا أسباب نجاح الأمم ، وكيف أفلح اليونانيون وغيرهم فى الأزمنة القديمة والحديثة ، ليحثوا مطايا الجهد والإقدام ويحاكوا أعظم أمم الأرض تمدناً وفلاحاً .

* * *

فاتحة الكتاب
فى أصل الرومانيين وبناءِ رومية

لم يستولِ اليونانيون على تروادة إلا بعد حروب طويلة سالت فيها على الأرض فخضّبتها دماء الأبطال ومهج الرجال ، ولقد أظهر الفريقان فى جميع المعامع التى حدثت من البسالة والبأس ما يشهد لجبابرة تلك الأعصر بثبات الجنان والخبرة بالضرب والطعن عند احتدام نار الوغى ، على أن ما روتهُ عنهم الشعراء وما أثبتتهُ فى هذا الشأن كتب المتقدمين مملوء بالخرافات والمبالغات الشعرية التى لا يعول عليها المؤرخون ، ولا يعتدّ بها المحققون عند قصّ أخبارهم القديمة العهد . ولما كان القصد من ذكر خراب تروادة معرفة تاريخ أسلاف الرومانيين الأولين ، أو بالحرى بيان نسب مؤسس رومية حسب رأى الأكثرين ، لأن ذلك كما لا يخفى بمثابة توطئة لتاريخ هذه الأمة .

نقول بالاختصار : إن أنياس ، وهو أمير تروادى ، حينما كلَّ من العراك وأصبح غير قادر على رد الأعداء الذين دخلوا المدينة عنوةً أو بخيانة أولاد أنتينور لجأ مع عائلتهِ ، وقسم من الترواديين إلى معاقل جبل أيدا ، وتحصن فيها آمناً لظنه أن اليونانيينَ سيتركونهم ويرحلون ، غير أن المحاصرين هدموا المدينة وجمعوا الأسلاب ، وقصدوا أنياس ليوقعوا بهِ وبمن تبعهُ ، فجزع جداً وأرسل يسألهم السلام ، فأجابوا طلبهُ بشرط أن يغادرَ على الأثر وطنهُ وتلك الربوع ، فسافر بحراً إلى شبه جزيرة بلّينى فى مكدونيا ، وبنى فيها مدينة دعاها أنيا ، أسكن بها قسماً من جمهور الترواديين الذين تبعوهُ ، ورحل بعد ذلك إلى سيسيليا (صقلية) فترك قسماً آخر من رجالهِ بدريانم ، وهى مدينة استعمر فيها قبيل وصولهم أليمس وإجستس (فئة تروادية) ، وظلت سفنهُ تمخر البحر حتى وصلت إلى لاتيوم ، وهى أرض واقعة إلى الجانب الشرقى من نهر التيبر ، وسكانها هم الأُبُورِجين (الوطنيون) المعروفون باللاتنيين نسبةً إلى ملكهم لاتينس الذى كان مالكاً عليه فى ذلك الحين ، فعسكر الترواديون عند مصب النهر ، ودعوا معسكرهم ها

تروادة تذكاراً لوطنهم العزيز آملين نيل الراحة والسلام بعد تلك المحن والأخطار .

وبلغ الملك لاتينس أن أقواماً غرباء قد احتلوا بلادهُ قصد الإقامة فيها ، وكانت الحرب وقتئذٍ ثائرة بينهُ وبين الرُتليين ، فقلق جداً وأشفق على ملكهِ من حدثان الدهر ، وفى الحال نهض بعساكرهِ لمحاربتهم ، ولما دنا منهم نظر جيشاً مرتباً ومتأهباً للقتال ، فأخذتهُ الرعدة وخاف الفشل ، فرام المخابرة قبل النزال ، فتقدم إليهِ أنياس وحدثهُ بحديث حروبهم مع اليونانيين ، وكيف أنهم خاطروا بالنفس والنفيس دفاعاً عن تروادة مدينتهم المحبوبة إلى أن قال :

أيها الملك ، قد أتينا هذه البلاد نطلب مكاناً نلجأ إليهِ ونسكن فيهِ بأمان ، فما نحن ممن يرغب فى ضررك ، إنما الضرورة قد أحوجتنا أن نأخذ جبراً ما هو لازم لنا ، فغض الطرف عما حدث ، واعلم أننا نود أن نعيضك مما أخذناهُ اضطراراً ، وسنجهد فى صون أرضك من الأعداءِ وشن الغارة على من يناويك ، ولا تظننا نخشى قتالك إن أبيت محالفتنا ، إذ حربك ليست أول وأعظم حرب خضنا عجاجها غير مبالين .

فعجب لاتينس من شهامة وجسارة الترواديين ، وعرف أنهم يكونون لهُ فى الشدائد حصناً منيعاً ، لذلك رضى بما طلبوهُ ، فانتصروا لهُ من أعدائهِ وأذلوا من ناواه .

وتزوج أنياس لافينيا ابنة لاتينس وأحبها جداً ، حتى أنهُ دعا معسكرهُ لافينيوم بدلاً من تروادة اسمهِ الأول ، وتزوج الترواديون بنات لاتينيات ، فأصبح الفريقان شعباً واحداً .

وكان ترنس ابن أخ الملكة يرغب فى زواج لافينيا أملاً أن يتسلط على اللاتينيين بعد موت الملك لاتينس على أنهُ لما رأى خيبتهُ ونجاح أنياس حنق جداً ، وأراد الانتقام فحضّ الرتليين على قتال اللاتينيين فثارت بين الفريقين حرب شديدة مات فيها لاتينس وترنس ، فاستتب الأمر لأنياس ، وملك بلا معارض على بلاد اللاتيوم وبعد ثلاثة أعوام مات هو أيضاً فى حرب حدثت بينهُ وبين الرُتليين والأتروريين ، فحسبهُ قومهُ فى عداد الآلهة ، وأقاموا ملكاً عليهم ابنهُ أسكانيوس

من كريوزا ابنة بريام ملك تروادة ، فأخذ أسكانيوس بثأر أبيهِ وبدد شمل الأعداء، ووطد شوكتهُ بما أبدى من الحمية والبأس فى ساحة القتال .

واستبدَّ أسكانيوس بالملك بعد هذا الانتصار ، وأظهر من العظمة والجبروت ما دعا لافينيا إلى الحسد والخوف على نفسها وعلى ولدها الذى كانت وقتئذ حبلى به فعمدت إلى الهرب سراً فراراً من دسائسه ومكره ، واختفت فى غابة عند رئيس رعاة أبيها لاتينس وولدت هناك ابناً دعتهُ سلفيوس ، ولما شاع خبر هرب الملكة أخذ الشعب يؤوّل الأمر بما يعود على أسكانيوس بالشين والشنار ويحط رفعة شأنهِ ، فوجب عليهِ إذ ذاك إرضاءً للجميع أن يبحث عن لافينيا ويرجعها إلى المدينة مع ابنها الذى لم ينظر إليهِ قط نظرة الإخاء ، ولم يعاملهُ معاملة شقيق فى سائر الأحوال ، وبنى أسكانيوس أخيراً مدينة جديدة دعاها ألبالونغا ، وترك لافنيوم لسلفيوس ، وما ذلك إلا لكون هذه المدينة ملكاً شرعياً للافينيا قد وهبها إياها أنياس ، إذ سماها باسمها .

أما بناء البالونغا فكان فى السنة الثلاثين بعد بناءِ لافينيوم وملك أسكانيوس اثنتى عشرة سنة على ألبا ، ومات مخلفاً ابنهُ أيلوس ، إلا أن اللاتنيين أبوا الانقياد إلى أيلوس ، وكرهوا انقسام المملكة إلى شطرين ، فملكوا سلفيوس على جميع البلاد زاعمين أنهُ أحق بالملك من غيرهِ ، لأنهُ حفيد لاتينس ، وأرضوا أيلوس بجعلهِ رئيساً على كهنتهم ومدبراً للمعابد والدين .

وتمتع الشعب بالراحة والسلام نحو أربعمائة سنة ، فلم يحدث حينئذ حادث مهم يحملنا على بسط الكلام فى تاريخ هذه المدة ، لذلك نجتزئُ بذكرٍ أسماء الملوك الذين ملكوا بعد أسكانيوس ومدة ملك كل منهم :

ملك سلفيوس : ٢٩ سنة ، وخلفهُ ابنهُ أنياس سلفيوس .

ملك أنياس سلفيوس : ٣١ سنة ، وخلفهُ ابنهُ لاتينس سلفيوس .

ملك لاتينس سلفيوس : ٥١ سنة ، وخلفهُ ابنهُ ألبا .

ملك ألبا : ٣٩ سنة ، وخلفهُ ابنهُ كابتس .

ملك كابتس : ٢٦ سنة ، وخلفهُ ابنهُ كابس .

ملك كابس : ٢٨ سنة ، وخلفهُ ابنهُ كالبتس .

ملك كالبتس : ١٣ سنة ، وخلفهُ ابنه تيبرينيس .

ملك تيبرينيس ٨ سنة ، وخلفهُ ابنهُ أغريبا .

ملك أغريبا : ٤١ سنة ، وخلفهُ ابنهُ ألاديوس .

ملك ألاديوس : ١٩ سنة ، وخلفهُ ابنهُ أفنتينس .

ملك أفنتينس : ٢٧ سنة ، وخلفهُ ابنهُ بروكاس .

ملك بروكاس : ٢٣ سنة .

وكان لبروكاس ابنان : اسم أحدهما : نوميتور ، واسم الآخر : أميليوس ، فلما مات أوصى بالملك لنوميتور لأنهُ البكر .

ويظهر أن أميليوس كان أشجع وأقدر من نوميتور ، وأكثر منهُ مكراً ، وأسمى فطنة وتدبيراً ، فلمَ يحفل بحقوق أخيه الشرعية ، ولم يبالِ بوصية أبيهِ ، بل خلعه عن سرير مملكتهِ واستبدَّ بعدهُ بالملك ظالماً ، وحتم عليهِ بأن يعيش معتزلاً عن السياسة والناس ، ولكى يوطد سلطتهُ ويأمن كل منازع لهُ عمد إلى إبادة نسل أخيهِ ، فقتل أجستس ابنهُ الوحيد ، ومنع ابنته رَياسلفيا من الزواج بأن جعلها تنذر العفة وتنخرط فى سلك العذارى المقيمات فى هيكل فستا لخدمة هذه الإلهة وعبادتها ، غير أن حذره هذا لم يجده نفعاً لأن رَياسلفيا لم تحافظ على العفة ، بل حبلت وولدت توأمين ، وحينما شاع خبر حبلها أذاعت أن المريخ إله الحرب قد فضَّ بكارتها لتنجو من القصاص الشديد المعدّ لأولئك العذارى خادمات فستا عندما يرتكبن فاحشة ، ولما علم أميليوس بما حدث غضب جداً وأمر بقتل ابنة أخيهِ ، وقيل : لم يقتلها ، بل أمر بسجنها سجناً مؤبداً ، أما ابناها اللذان ولدتهما فوضعا فى سفطٍ وألقيا إلى نهر التيبر ، وظل السفط عائماً إلى أن صدمهُ حجر بالقرب من ضفة النهر ، فقلبهُ وسقط الطفلان على الأرض ، ويزعم الرومانيون أن ذئبة سمعت بكاءهما فأقبلت إليهما ، وبأمر الآلهة أرضعتهما ، والصحيح أن أكَّالورنسيا زوجة فوستيلس رئيس رعاة الملك الملقبة بالذئبة قد أخذتهما وأرضعتهما إلى أن ترعرعا واعتنت بهما غاية الاعتناء ، وقد سماهما فوستيلس : روملس ، ورمس ، وأرسلهما إلى مدينة غابى فى اللاتيوم ليتعلما علوم وآداب اليونانيين ، لأنهُ على ما يظن كان عالماً بأمرهما ، فأراد أن يربيهما

تربية حسنة ويهذبهما تهذيباً يليق بهما ، فبرعا فى كل ما تعلماهُ ، وكانا مهيبين تلوح عليهما سمات العظمة والبأس ، فخافهما جميع سكان البريّة وانقادوا لهما طائعين ، وحدثت مشاجرة بين رعاة أميليوس ورعاة نوميتور ، فانتصر الأخوان لرعاة نوميتور ، وأذاقا رعاة أميليوس الويل والنكال ، فصبر هؤلاء على الذل وفى قلوبهم من روملس ورمس حزازات لا يشفيها سوى الانتقام منهما ، فباتوا يرقبون الفرصة ويبحثون عن الوسائل التى تبلغهم مأْربهم .

وفى أحد الأعياد بينما ذانك الأخوان كانا يجريان بعض أمور دينية أحاط المغلوبون برمس من كل جهة وقادوهُ أسيراً إلى نوميتور الذى كان ينفق أكثر ساعاتهِ فى البرية ، وشكوهُ إليهِ قائلين : إن هذا الرجل ظالم متعدّ ، لا يرعى علينا حرمة ، ولا يحفظ لنا ذماماً ، فعاملهُ أيها الأمير حسبما يأمر العدل والإنصاف ، وأكفنا جورهُ وفجورهُ ، فهمَّ نوميتور بقتل رمس بعدما استأذن فى ذلك أخاهُ أميليوس ، إلا أنهُ أرجأ تنفيذ الحكم إشفاقاً على راعٍ أظهر من الشجاعة والمروءة ما تعجز عنهُ الفرسان المعدودة ، وأبدى من الصفات الحميدة ما ينزههُ عن دناءَة الرعاة ، ولما خلا معهُ سألهُ عن وطنهِ وأبويهِ ، فأجابهُ رمس : لا علم لى بذلك ، إنما الراعى الذى ربانى مع أخى روملس أخبرنا أننا توأمان ، وأنهُ قد وجدنا مطروحين على ضفة النهر ، فاعتنى بتربيتنا شفقة منهُ علينا .

ولما سمع نوميتور هذا الحديث ذهل وتذكر حفيديهِ ، ورأى عمرهما وهو ثمانى عشرة سنة يوافق المدة التى طرح فيها الأميران وهما طفلان فى نهر التيبر ، فتحوَّل حينئذٍ غضبهُ على رمس إلى حنو أبوى ، وتبدلت تهديداتهُ بالوداد العظيم، وكاشفهُ بسر مولدهما وأطلعه على حقيقة حالهما ، وأرجعهُ إلى البرية ليدبر مع روملس على الأخذ بالثأر .

وحدث فى أثناء ذلك أن روملس لما رأى أخاهُ أبطأ قلق جداً ، وأراد الذهاب على الفور لتنكيل من غدر بهِ وإرداء من هو بأسره ، فردّهُ فوستيلس وأخبرهُ بما كان يجهلهُ من أمر ولادتهِ وخيانة أميليوس ، فثارت بهِ الحمية وعمد إلى خلاص جدهِ وأمهِ ، وإذ كان يجمع الفلاحين ويعمل كل ما هو لازم لبلوغ مآربهِ أقبل عليهِ رمس وأعلمهُ ما كان ، فتواطأ على ذلك وهجما بغتة على المدينة والقصر بمن معهما من الرجال وقتلا الحراس وذبحا أميليوس الذى ملك اثنتين وأربعين سنة ،

وأرجعا جدهما نوميتور ملكاً على ألبا ، ولما رأى نوميتور أن ألبا قد ضاقت بأهلها وبجيش روملس أشار على حفيديه أن يبنيا مدينة بالقرب من التيبر حيث طرحتهما الأمواج ، فرضيا بما أشار به عليهما ، فأعطاهما أدوات وآلات كثيرة لحرث الأرض وعبيداً وبهائم للخدمة ، وأذن لهما أن يأخذا من رعاياه من أراد منهم أن يتبعهما ، وأضاف روملس ورمس إلى من تبعهما من ألبا سكان مدينتى بلنتيوم وساتورنيا ، وقسما رجالهما إلى فرقتين ، تولى كل واحد أمر فرقة ، وذلك لتسهيل العمل وحسن إدارته ، ولما عزما على تأسيس المدينة وقع بينهما الشقاق واختلفا على المكان الذى يجب بناء المدينة فيه ، فتقاضيا فى الأمر إلى نوميتور ، فأجاب بوجوب زجر الطير لاستشارة الآلهة ، فاتفقا على أن الذى ينظر قبل الآخر عقاباً أو يبصر عقباناً أكثر من أخيه تكون الآلهة قد حكمت له ، وبكرا فى اليوم المعين ووقف كل بالمكان الذى يريد بناء مدينة فيه ، وأقاما شهوداً يشهدون بما يحدث ، أما رومِلس فلكى يغش أخاه أو لكى يلهيه أرسل رسلاً تخبره أنه رأى عقباناً ، وقبل وصول الرسل إلى رمس نظر هذا حقيقة ست عقبان فركض إلى أخيه ليتحقق صدقه ، ولما وصل إلى هناك أبصر روملس اثنتى عشرة عقاباً ، فصرخ لرمس فرحاً وأشار إليه بيده قائلاً : انظر يا أخى ، واحكم بصدق ما أخبرتك رسلى به ، غير أن رمس علم أخيراً بخداعه ، فكان ذلك داعياً إلى الخصام ، وحازب كل واحد من القوم رئيسه ، واشتد النزاع حتى آل الأمر إلى القتال ، ولما حمي الوطيس بادر فوستيلس إلى إطفاء نار الفتنة فولج بين الفريقين ليردهما ، فضربه أحد المتحاربين ضربة سقته كأس المنون .

ويظن بعض المؤرخين أن رمس مات فى هذه المعركة ، ويؤكد البعض الآخر أن رجلاً اسمه فابيوس قد قتله لأنه وثب فوق سور المدينة احتقاراً لها ، ويقول لفيوس : إن روملس نفسه قتله .

وقبل أن يشرعوا فى بناء المدينة على جبل بالاتينس قدموا الذبائح للآلهة وأشعلوا النيران أمام خيامهم ، ووثب جميع الحاضرين فى تلك النيران ليتطهروا، وحفروا خندقاً حول المكان الذى تعقد به فيما بعد جمعياتهم ، وطرحوا فيه أثماراً وتراباً أتوا به من بلادهم أو من بلاد أخرى ، ودعوه « موندس » - أى العالم - وجعلوه المركز الذى ستبنى حوله المدينة ، وقرن روملس ثورين ، وشق

الأرض تلماً واحداً على هيئة مربع ، ليبين دائرة المدينة التى سموها رومية ، وبنى السور على هذا التلم .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ بناء رومية قال فرو : إنها شيدت فى السنة الثالثة من الألومبياد السادس - أى سنة (٤٣١) - بعد خراب تروادة أو سنة (٧٥٣ ق . م) ، ويظن الرومانيون أن بناءها كان فى (٢١ نيسان) أى فى عيد بالِس إلهة الرعاة ، لذلك كانوا يعيدون العيدين فى يوم واحد .

* * *

الباب الأول

فى ملوك رومية

وهم سبعة من (سنة ٧٥٣ إلى سنة ٥١٠ ق . م)
أو من (سنة ١ إلى سنة ٢٤٣ ب . ر)

الفصل الأول

فى ملك روملس

من (سنة ٧٥٣ إلى سنة ٧١٦ ق . م)

أو من (سنة ١ إلى سنة ٣٧ ب . ر)

لما أتمَّ روملس بناء المدينة جمع الشعب وخاطبهُ بما معناه :

لو كانت قوى المدائن منحصرة فى علوّ أسوارها وعمق خنادقها لوجب علينا أن نخاف أشد الخوف على ما أتممنا بناءَهُ الآن ، إذ لا يعسر على المقاتل الجبار أن يتسوَّر الأسوار ويهدمها مهما علت ، وماذا تنفع الحصون لدى الفتن والحروب الأهلية ، نعم إنها تحمى الشعب من عدوٍّ غريب يدهمهُ بغتةً ، ولكنها لا تستطيع ردَّهُ وقهرهُ ، فليكن اتكالكم على الشجاعة والفطنة والتدبير لتنالوا الظفر ، والزموا الاتحاد والعدل لتمنعوا الشقاق أن يسرى بينكم وتطفئوا نار الفتن الأهلية، لأنهُ كم مدن حصينة قد سقطت فى أيدى أعدائها لجبن أهلها وانقسامهم ، فاصرفوا همكم إذاً لتنظيم الجنود ومراعاة القانون ، تأمنوا كل غائلة ، واعلموا أن نجاح الأمم متوقف أيضاً على أمر آخر مهم جداً : وهو إقامة حكومة ثابتة ، فاعملوا ما ترونهُ حسناً لأننى خاضع لكل ما ترومون إجراءَهُ ، وأعدّ تسميتكم المدينة باسمى شرفاً عظيماً لا أُحرمهُ إلى الأبد .

وحينما فرغ روملس من كلامهِ ونظر الشعب إلى شجاعتهِ وشهامتهِ رضيه ملكاً على رومية ، وألقى إليهِ مقاليد الأمور .

وأحصى روملس بعد ذلك قومهُ ، فبلغ عددهم ثلاثة آلاف راجل ، وثلثمائة فارس ، فقسمهم إلى ثلاثة أقسام متساوية ، وأقام على كل قسم رئيساً ، وقسم أيضاً كل قسم إلى عشر فرق ، وأقام لكل فرقة قائداً ، وقسم أرض رومية إلى ثلاثة أقسام غير متساوية ، وخصص قسماً منها بخدمة الدين ، وجعل قسماً آخر لنفقة الملك ، والباقى وهو القسم الأكبر أعطاه للشعب .

وقسم الشعب إلى : شرفاء ، وعوام ، وخص بالأولين كل المناصب العالية ،

وسمح لكل واحد من العوام أن يختار ولياً لهُ مَنْ أرادهُ من الشرفاء ، ووضع قانوناً لهذا الأمر مآلهُ أنهُ يجب على الولى أن يدير أعمال تابعه ، وأن يجدهُ فى الملمات ، وأن يدافع عن صوالحه متى مست الحاجة ، وعلى التابع إذا كان الشريف فقيراً أن يقوم بجهاز بناته لما يتزوجن ، وأن يفى دينهُ ويفديه أو يفدى أولادهُ إذا أُسروا فى الحرب ، ولا يسوغ لأحد منهما أن يشكو الآخر ولا أن يشهد عليه ، وإذا أتى امرؤ ذلك يعدّ خائناً ويكون دمهُ مهدوراً .

وشكل روملس مجلساً عالياً مؤلفاً من مائة عضو ليعينه على السياسة الخارجية وتدبير أمور الشعب ، ونظم من الفرسان حرساً ملوكياً ، ومنع فى شرائعه النساء عن شرب الخمر على الإطلاق والرجال عن التزوج بأكثر من امرأة واحدة ، وجعل المرأة ترث زوجها إذا مات ولم يكن لهما أولاد ، وإذا مات عن أولاد فلها سن الميراث كواحد منهم ، وفرض على البنين الخضوع التام لآبائهم ، وأعطى الآباء حقاً أن يتصرفوا ببنيهم كما يشاءون ، وأن يبيعوهم عبيداً إذا أرادوا ، ومنع الوطنين من مباشرة الأشغال التى لا تلزمها حركة عظيمة ، وخصّ هذه الأعمال بالغرباء والعبيد ، وفرض على الرومانيين جميعاً إما التجند لحماية الوطن وخدمته أو حرث الأرض ، وجعل مدينتهُ ملجأ للمذنبين وحمى لمن أثقلت الديون كاهلهُ فتقاطرت إليها اللصوص والقتلة من كل فج ، وأتاها من سأم الحياة فى وطنه .

ولم يكن لأكثر الرومانيين نساء ، فسأل الملك الصابنيين والأمم المجاورة أن يرخصوا لرجاله التزوج ببناتهم ، فرفض الصابنيون طلبهُ وردوا رسلهُ قائلين : لو جعل روملس مدينتهُ ملجأ للعواهر والجوارى كما جعلها حمى للصوص والقتلة لاكتفى ذل السؤال ، وحصل على ما يروم ، ولما بلغ روملس هذا الجواب وغر صدرهُ عليهم ، وأراد الانتقام مصمماً على خطف بناتهم وتزويج رجاله بهنَّ [illegible] ذلك أنهُ بينما كان قوم يحفرون بالقرب من رومية وجدوا [illegible] تحت الأرض للإله كونسس - إله المشورة - فعزم روملس على الاحتفال بعيد لهذا الإله وإجراء ألعاب عمومية ، وأعلن ذلك للصابنيين ، فهرعوا إلى رومية رجالاً ونساءً ، فبالغ الرومانيون فى إكرامهم وعمل كل ما يرضيهم مدة أيام العيد ، إلا أنهُ فى اليوم الأخير بينما الألعاب كانت جارية وأبصار المتفرجين شاخصة إليها هجم الرومانيون على البنات الصابنيات ، وخطفوهنَّ قوَّةً واقتداراً ، ولم

يستطع الصابنيون المدافعة عن بناتهم ، لأنهم كانوا عزلاً لذلك ولوا منهزمين.

وفى الغد جمع روملس البنات الصابنيّات وكلمهنّ قائلاً :

لم يخطفكنّ الرومانيون أمس ليتزوجوكنّ سفاحاً ، بل لتكنّ لهم حلائل طاهرات ، وإن هذه الطريقة مألوفة فى بلاد اليونانيين ، وهى تعود بالفخر على النساء أكثر من غيرها فخففنّ غضبكن والأحزان ، ولو فرض ذلك ذنباً ، فالذنب راجعٌ بلا ريب إلى آبائكنّ الذين رفضوا طلبنا باحتقار ، وما عليكنّ الآن سوى محبة رجال يعدون زواجهم بكنّ سعادة عظيمة ، ومعلوم أن الخطأ والإساءَة إلى شخص قد يكونان سبب صداقتهِ ووداده ، فستشاهدنّ من بعولكنّ حباً ينسيكنّ آباءَكنّ والأوطان .

وأرسل الصابنيون رسلاً إلى روملس يسألونهُ ردَّ بناتهم ، لأنهم لم يريدوا خوض عجاج الحرب قبل استعمال الوسائل السلمية ، فأبى روملس إجابة ما سألوهُ إياهُ ، وطلب إليهم أن يعلنوا رضاهم التام بهذا الزواج ، وبينما المخابرات كانت جارية فى هذا الشأن نهض أكرون ملك سانينا وأغار على الرومانيين ، وكان أكرون فارساً مغواراً وقرماً شجاعاً ، وسبب حربه أنهُ لما رأى تقدم الرومانيين وما أظهروا من الجسارة فى خطف بنات الصابنيين خاف على ملكهِ منهم ، وأراد إذلالهم قبل أن تقوى شوكتهم ، فخرج إليهِ روملس بجنودهِ ، ونشب القتال بين الفريقين ، ودام برهة إلى أن التقى الملكان وطلبا النزال ، فافترق الجيشان ينظران ماذا يكون ، ونذر روملس على نفسه أنهُ إذا غلب خصمهُ يقدم أسلابهُ غنيمةً لجوبتير ، فنشط حينئذ لاتكاله على الآلهة ، وطعن أكرون طعنة عجلت بأجلهِ ، ولما رأى السانينيون رئيسهم قتيلاً ولوا منهزمين ، فلحق بهم الرومانيين ودخلوا مدينتهم ظافرين ، وأعطاهم روملس الأمان ، غير أنهُ هدم سانينا ونقل سكانها إلى رومية ومنحهم حقوقاً كالوطنيين ، ووفى نذرهُ لجوبتير بأن بنى لهُ هيكلاً صغيراً وضع فيهِ أسلاب أكرون ، وأخضع بعد ذلك الأنتمنيين ونقلهم إلى رومية وأرسل قسماً من شعبهِ يسكن بمدنهم ، واشتهر روملس فى الشجاعة والحلم فتسابق الأترورييون فى الخضوع لهُ اختياراً .

وأضاف روملس إلى المدينة رابية ساترنيوس المدعوة بالكابيتولينس ، وبنى على

قمتها قلعة حصينة وأحاطها بالأسوار والأبراج المنيعة ، وكل هذه الحصون كانت عالية تشرف على المدينة وعلى الأراضى المجاورة .

أما الصابنيون فلم ترهبهم قوى روملس المتكاثرة ولم ترعهم جنودهُ ولا حصونهُ، بل زحفوا إلى رومية بجيش عرمرم جرار يتقدمهُ ملكهم طيطس طاطيس آملين الأخذ بالثأر ، وإرداء الأولى ألبسوهم العار بخطف بناتهم ، فجمع ملك رومية العساكر ورتب الجنود التى أمدَّهُ بها جده نوميتور والأتروريون ، وصف جيوشهُ هذه على رابيتى أسكيلنوس وكويرينالس ، وأقام ينتظر الصابنيين ليوقع بهم، وعسكر الصابنيون عند سفح رابية ساترنيوس ، ولم يجسروا على مقاتلة الرومانيين ، لأن مراكز هؤلاء كانت جيدة فباتوا يطوفون حول تلك الرابية لعلهم يجدون باباً يلجونهُ ، وكانت طاربايا ابنة حاكم الحصون قد نظرت إلى الصابنيين ورأت فى سواعدهم وأصابعهم أسورة وخواتم فأدهشها ذلك المنظر ، ورغبت فى الحصول على تلك الحلى ، فأرسلت إحدى جواريها تسأل قائد الصابنيين مقابلتها فى مكان عينته لهُ ، ولما أدلهم الليل أقبل طاطيس إلى المكان المعهود ، واتفق معها على أنه يمنحها ما ترغب فيهِ بشرط أن تفتح لجنودهِ أحد أبواب السور ، غير أن طاربايا ندمت بعد ذلك على ما فعلت وأرادت تحويل خيانتها إلى شرك توقع فيهِ الأعداء ، فسألت روملس إرسال فرقة من العساكر لمحاربة طاطيس قائلة : إنهُ يأمل الدخول إلى القلعة من باب ستفتحهُ له على أن الرسول المرسل من قبلها لإبلاغ روملس ما طلبته خانها وأخبر ملك الصابنيين بما دبرت ، فأتاها فى الوقت المعين بعدد عديد من العساكر والفرسان ، واستولى على قلعة وحصون رابية ساترنيوس ، أما طاربايا فقد قتلها الجنود لأنهم رموا بجانهم عليها إيفاءً بوعدهم كما زعموا ، لذلك دعا الشعب تلك الرابية طاربيس ، وقد عرفت بهذا الاسم إلى أن سموها كابيتولينس كما ستعلم .

وأمن الصابنيون باستيلائهم على الحصون غوائل الحرب ، ومضت مدة لم يحصل فيها سوى مناوشات خفيفة لا تذكر ، إلا أن الفريقين صمما بعد ذلك على الحرب والكفاح ، فجرت بينهما ليلاً موقعة لم يخسر فيها أحد مركزهُ ، وفى الموقعة الثانية فاز الرومانيون بادئَ بدء وكسروا جناحى أعدائهم ، ولما رأى ماتيوس كورتيوس القائد الصابنى تقهقر قومهُ هجم على وسط الجيش الرومانى ،

ليمكّن جناحي جيشهِ من الاجتماع ، فكسرهُ ولحق بالمنهزمين إلى أبواب رومية ، وحينما أبصر رومِلس ذلك رجع وهجم على كورتيوس ، فالتقاهُ هذا وصدّهُ وأشغلهُ بالقتال حتى سهل لأصحابهِ الانضمام والرجوع إلى معسكرهم ، ودامت رحى الحرب دائرة حتى تبارز القائدان وجرح كورتيوس جراحاً قوية ، فوهن ونظر ، وإذا هو محاط بالأعداءِ من كل جانب ، فرمى بنفسهِ إلى بحيرة كانت هناك فتركهُ رومِلس وانصرف لقتال الصابنيين ظاناً أنهُ يغرق فيها ، أما كورتيوس فتخلص من الموت بما خيل سبب موتهِ ، ودعي ذلك المكان بحيرة كورتيوس .

وضايق رومِلس أعداءَهُ وهجم عليهم هجمة الأسد الرئبال ، فذعروا وولوا هاربين ، والتجأوا إلى القلعة وتبعهم الرومانيون راجين استرجاعها حينئذٍ أخذ الصابنيون يدحرجون عليهم الأحجار من قمة الرابية ، فأصاب رومِلس حجر كاد يذهب بحياتهِ ، فوقع مغشياً عليهِ ، ولما رأى قومهُ ما أصابهُ حملوهُ ورجعوا إلى المدينة منهزمين أمام الصابنيين ، وحينما أفاق جمع الجنود وخرج للقاءِ الأعداءِ ، وقبل أن ينشب القتال أتت النساء الصابنيات ناشرات شعورهنَّ وحاملات أولادهنَّ واعترضن بين الفريقين باكيات يسألن بعولتهن وآباءَهنَّ أن يكفوا حرباً تعود عليهن بالوبال .

وقد روى ديونسيس ما حدث ، قال : إن الفريقين لم يبقَ لهم طاقة للقتال بعد تلك المعامع والحروب ، فأخذ الصابنيون يفكرون فيما يلزم إجراؤُهُ مترددين فى هل يرحلون بعد ما يخربون أراضى الرومانيين ، أو يطلبون مدداً من مدنهم لتجديد الحرب وقهر الأعداء ، وهكذا بات الرومانيون لا يدرون ماذا يفعلون لأنهم يعلمون علم اليقين أن أعداءَهم أشداءُ وقادرون على تعوّض خسائرهم بأكثر سهولة منهم ، أما النساء التى جرت الحرب لأجلهنَّ فاجتمعن وقررن أن يتوسطن الصلح بين الأمتين ، وعرضن ما قررنهُ للملك والمجلس . فأذن لهنّ فى ذلك بشرط أن يغادرن فى المدينة أولادهن ، فلبسن المسح وتركن الزينة والحلى ، وخرجن إلى معسكر الصابنيين ، ولما وصلن إليه رمين بأنفسهنّ على أرجل آبائهن وأقربائهن ، وأخذن فى البكاءَ والعويل ، فتحركت الشفقة فى صدور الجميع

وعقد الملك طاطيس مجلساً من قوادِه وعظمائه للمذاكرة فى هذا الأمر ، فوقفت إحدى النساءِ المسماة هرسيليا وخطبت قائلة :

إذا كنتم قد فتحتم هذه الحرب حباً بنا نسألكم أن تكفوها شفقة علينا ورحمة لأولادنا ، نعم أننا قد خُطفنا من أيدى آبائنا ظلماً ، إنما الذين خطفونا هم الآن أزواجنا ، وقد أهملتم خلاصنا مدة طويلة فغدونا مرتبطات مع الأولى كنا نبغضهم بأوثق عرى الوداد ، وإننا لنخاف عليهم الآن إن عرض لهم خطر ، ونندبهم ما حيينا إن قضوا أجلهم فى ساحة القتال ، وإنكم لم تأتوا لتأخذوا بثأر عذارى وتكشفوا عارهنَّ ، بل أتيتم لسلب نساء من رجالهنَّ ، وخطف أمهات من أولادهنَّ ، ففعلكم هذا لا يعدّ خلاصاً لنا ، بل أسراً أشد وبالاً علينا من أسرنا الأول .

ولما كان الصابنيون قد ملوا القتال لما لقوا من أهواله رضوا بكف الحرب ، واجتمع روملس وطاطيس وعقدا صلحاً بموجب عهدة مآلها أن كلا الملكين يسكن فى رومية ، ويكونان متساويين فى السلطة ، وأنهُ يسكن فيها أيضاً من أراد من الصابنيين ، ولا يكون بينهم وبين الوطنيين فرق فى الحقوق ، ويبقى اسم المدينة رومية إلا أن سكانها يدعون كورتس ، وهو اسم خاص بالصابنيين ، وشكل طاطيس لنفسه مجلساً عالياً مؤلفاً من مائة عضو لهُ ذات حقوق وامتياز مجلس مؤسس رومية ، والتأم كل من المجلسين بادئ بدء فى قصر ملكه ، غير أنهما التأما أخيراً سوية بالقرب من هيكل فولكانس ، وقد دعي ذلك المكان لالتئامهما فيهِ كوميتيوم ، أي محل الاجتماع .

ولم ينسَ الرومانيون إحسان النساءِ الصابنيات إليهم كيف لا وهنّ اللواتي خلصنهم من ورطة الحرب ، ووسعنَ نطاق المملكة بالمعاهدة التى تمت على يدهنّ ، لذلك أكرموهنَّ جداً ورفعوا مقامهنّ ، ولم يسمح لرومانىّ أن يتكلم كلاماً غير أديب فى حضرتهنّ ، وأُذن لهنّ أن يعلقن فى أعناق أولادهنّ كرات ذهبية تميزهم عن باقى الأولاد ، وأن يلبسنهم لباساً لا يمكن غيرهم لبسهُ .

وعاش الملكان خمسة أعوام فى اتحاد تام ، وكان روملس ساكنا على رابية بالاتينس وطاطيس على رابية طاربيس ، وسكن الصابنيون الذين هاجروا إلى رومية على الرابية التى دعوها كورينالس تذكاراً لمدينتهم كورس أو تبركاً باسم

إلاههم كويرس ، وأصبحت الأرض الواقعة بين رابيتى بالاتينس وطربايس سوقاً عمومياً للأمتين المتحدتين سموهُ : فورم ، وكانوا يجتمعون فيهِ أيضاً للمذاكرة فى الأمور السياسية .

وأغار الكامريون على أراضى رومية ، فحاربهم الملكان وكسراهم ، ونقلا من مدينتهم كامريوم أربعة آلاف نفس ، وأرسلا من رومية جماعة تسكن هناك بدلاً منهم ، وحدث أن البعض من رعايا طاطيس غزا اللافنيين ، فأرسل اللافنيون رسلاً إلى رومية يطلبون إرضاءً وتعويضاً مما خسروه ، فارتأى روملس أن يسلم إليهم المعتدين ، غير أن طاطيس رفض ذلك وقال : إنهُ ليس من العدل أن نسلم قوماً رومانيين إلى الغرباء ، وأنهُ من الواجب على المتظلمين أن يأتوا رومية ويرافعوا خصومهم فيها .

وحدث أيضاً أنهُ بينما أولئك الرسل كانوا راجعين إلى أوطانهم غدر بهم اللصوص المشار إليهم وقتلوا بعضهم وشتتوا الباقين ، ولما جدّد اللافنيون شكواهم قبض روملس على المذنبين وسلمهم إليهم من غير أن يعلم طاطيس ما فعل ، فعدّ طاطيس ذلك من باب الإهانة ، ونهض ببعض فرسانهِ ولحق باللافنيين وخلص رجالهُ من أيديهم .

وكان ملكا رومية يذهبان كل سنة إلى لافنيوم ليقدّما القرابين لبعض آلهة تروادية يزعمان أنها تحمى مملكتهما ، وإذ كانا يقدمان الذبائح فى هذه السنة كما جرت العادة ، هجم بعض أقرباء وأصدقاء اللافنيين المقتولين على طاطيس وذبحوهُ عند المذبح ، فأحضر روملس جثة رفيقهِ إلى رومية ودفنها بمحل إكرام على جبل افنتينس .

واستتب حينئذ الأمر لروملس وملك وحدهُ بلا معارض ، فنفى من المدينة قتلة الرسل اللافنيين ودعا إلى رومية قاتلى طاطيس ، وبعد ما فحص دعواهم صرفهم بلا قصاص لأنهم حسبوا أبرياء ، إذ ما أتوهُ كان انتقاماً عادلاً لا يوجب عليهم عقاباً .

وجاهر الكمريون بالعصيان ، فأخضعهم روملس بعد قتال عنيف ونقلهم إلى رومية ، وأرسل إلى كمريوم بدلاً منهم فئة رومانية ، وقهر الفدنيين ، وأخذ مدينتهم وأسكن فيها قوماً من الرومانيين ، وتصدى لهُ فى حروبهِ هذه ألفيون ، فقاتلهم وانتصر عليهم وأسر منهم جماً غفيراً ، ولما رأوا ما آل أمرهم إليهِ أرسلوا

رسلاً يسألونهُ السلام فأجابهم إلى ما سألوه إياه ، وعقد معهم صلحاً لمائة سنة ، فسلموا إليهِ بعضاً من مدنهم الصغيرة الواقعة على ضفاف نهر التيبر .

ومن العجب العجاب أن روملس الذى كان صارفاً همهُ فى توسيع نطاق مملكتهِ وباذلاً جهدهُ فى إخضاع الأمم المجاورة لمدينتهِ لم يستولِ على ألبا حين موت جدّه نوميتور ، وهو وارثهُ الشرعى الوحيد ، بل تركها متمتعة بالحرية والاستقلال مكتفياً بأن يكون لهُ الحق أن ينصب كل سنة حاكماً يسوس شعبها ويدبر أعمالهم .

ويظهر أن روملس بعد نصراته العديدة وفوزه العظيم ، احتقر أبناء جنسه ، وتكبر مستبداً بالملك ، وغير مبالٍ بالعظماء والآباء (هذا لقب أعضاءِ المجلس العالى) ، فأنفوا من أعمالهِ هذه وغرت صدورهم عليهِ ، وعمدوا إلى الانتقام منهُ بأية وسيلة كانت .

وفى اليوم السابع من شهر تموز فى السنة السابعة والثلاثين من تأسيس رومية والستين ، وقيل : الخامسة والخمسين من عمر روملس ، عرض الملك جيشهُ خارج المدينة فى سهل هناك ، وحضرت الآباءُ هذا العرض ، فأخذ الملك يخاطب العساكر ، وبينما هو يخاطبهم هبت الرياح وعصفت وهطلت الأمطار ، فتفرقت الجنود ولم يبقَ سوى الملك وأعضاء المجلس ، فأحاطوا بهِ من كل جانب وقتلوهُ وأخفوا جثتهُ ، وأشاعوا أن الآلهة قد نقلتهُ إلى السماءِ فى مركبة نارية ، فسرت الجهال بهذا الخبر وصدقتهُ ، أما العاقلون فتوسموا فيهِ خديعةً وكذباً ، وكان يوليوس بروكيلوس أحد الآباء رجلاً معتبراً مشهوداً لهُ بالصدق ومعروفاً أنهُ صديق روملس الحميم ، فهذا سألهُ المجلس أن يتمّ الخديعة ففعل ، ولما كان الشعب مجتمعاً قصَّ عليهِ أن روملس قد ظهر لهُ بغتةً خارج المدينة ، فنظر إليهِ وإذا هو لابسٌ سلاحاً يخطف الأبصار ببريقهِ ومنظرهُ كمنظر الآلهة ، فتخشع عند رؤْيتهِ وخاطبهُ بهذه الكلمات :

– لماذا أيها الملك ولأي ذنب قد تركتنا هدفاً لسهام المرجفين الأولى رمونا بأعظم وأقبح التهم ؟

– ولماذا غادرت مدينتنا وخلفت لنا ببعادك النوح والأشجان ؟

فأجابهُ روملس :

– قد أرادت الآلهة يابروكيلوس أن أعيش بين الناس لأرفع شأن رومية إلى أعلى درجات المجد والفخار ، ولما تم ذلك قد رجعت إلى السماء من حيث أتيت ، فاذهب وحرّض الرومانيين على محبة القناعة والتمرينات الحربية ، لأنهم بهذين الأمرين سيملكون يوماً جميع الأرض .

ولما سمع الشعب هذا الكلام ابتهج جداً وقرّر عبادة روملس كإله ، ودعاهُ كويرنس ، وهكذا سرَّ المجلس أن يضع فى مصاف الآلهة من لم يرضهُ ملكاً على رومية .

* * *

الفصل الثانى

فى ملك نوما

من (سنة ٧١٥ إلى سنة ٦٧٣ ق . م)

أو من (سنة ٣٨ إلى سنة ٨٠ ب . ر)

ومات روملس ولم يكن لهُ عقب ، فاجتمع الشعب وأجمع على انتخاب ملك يتبوأُ عرش رومية غير أنهُ لم يتفق على الرجل الذى يجب انتقاؤُهُ لهذا المنصب الخطير ، فتفرَّق بعد الاجتماع أحزاباً متباينة الآراء ، وكان الرومانيون الأولون مؤَسسوا المدينة يطلبون تولية أحدهم لظنهم أنهم أَحق بذلك من الصابنيين ، فخالفهم هؤلاءِ ، وحسبوا الانقياد لهم فيما يرومونهُ إهانة وعاراً ، فاغتنمت الآباءُ أعضاء المجلس هذه الفرصة وقبضوا على زمام الأحكام مدة عام واحد منقسمين إلى عشر فرق تتناوب الحكم على التوالى ، ولما تمادى بهم الأمر وكره القوم هذا الانقسام وتلك الحالة الشبيهة بالحالة الفوضوية عمدوا إلى تنصيب ملك عليهم ، ونفوا النزاع بأن جعلوا الرومانيين يختارون ملكاً بشرط أن يكون المختار صابنياً .

وكان فى صابنيا رجل شريف اسمهُ نوما بومبيليوس مشهورٌ بالفضل والتقوى ومحب للعزلة لا تستفزُّهُ السلطة على الناس ، ولا يروم غير التسلط على أمياله وكبح جماح شهواتهِ البشرية ، وكانت امرأتهُ طاطيا ابنة الملك طاطيس لا تحب المجد الدنيوى وتؤثر الراحة فى العزلة على الفخار والإكرام فى قصور الملك ، فعاشت معهُ فى كورس ثلاثة عشر عاماً ، ولما قضت نحبها زاد اعتكاف نوما على العبادة والتأمل فى طبائع الآلهة ، فغادر المدينة وعاش فى البرية منفرداً يأوى الكهوف ويتردَّد إلى الينابيع والعيون المقدسة .

فهذا انتخبهُ الرومانيون ليتسلط عليهم وأرسلوا إليهِ الأبوين يوليوس بروكيلوس الألبانى وفالريوس فولسس الصابنىّ ليخبراهُ بذلك ، فأبى قبول ما عرضاه ، وأجاب الرسولين قائلاً : حيث إن النجاح فى التغيير غير أكيد ، فمن الجنون إذا كان المرءُ موسراً وحاصلاً على كل ما هو ضرورى لهُ أن يتطلب تغيير حالتهِ

الحاضرة ، أو أن يرضى بذلك التغيير لأنهُ يكون قد آثر أمانيه على راحته المقرَّرة ، ومن ينكر ما دون التسلط على الرومانيين من العناءِ والعذاب ، ألم تريا كيف أنهم ظنوا روملس قد قتل طاطيس رفيقهُ ، وكيف أنهم اتهموا المجلس بقتل الملك مع أنهم يحسبون روملس سليل إله قد حفظهُ فى طفوليته من الأخطار بطريقة عجيبة ، أما أنا فإنسان قد اشتهر بصفات لا تؤهلهُ أن يسوس الناس ، ولا أن يدافع عن رومية ويصونها من أعدائها الكثيرين ، فهى تحتاج أشدَّ الاحتياج إلى أمير مغوار شجاع ، وأى منفعة يا ترى يأملها الشعب من ملك يصرف همهُ فى توطيد السلام والعدل وحثّ الناس على التقوى ، ولا ريب أن أميراً كهذا يكون محتقراً من رعاياه الذين دأبهم الطمع وشن الغارة على السوى .

فرغب إليه الرسولان ألا يرفض طلب الرومانيين كى ينقذهم من النزاع الدائمِ والشقاق ، وألح عليهِ أبوهُ وصديقهُ مارسيوس فى قبول ما قدم لهُ قائلين : هب أنك راض بحالتك الحاضرة ولا تود السلطة والأموال ، ألست تحفل بأمر الآلهة التى عينتك ملكاً ، ولعلك تظن أنها قد أنارت قلبك بمحبة العدل لتقيم فى البرية بلا فائدة ، فسرير الملك هو المقام العالى الذى تتلألأُ منه أنوار الفضيلة جاهدة فى جذب قلوب الناس إليها وإخضاعهم لسلطتها ، ألم تنظر إلى إكرام الرومانيين للملك طاطيس وحبهم لروملس الذى عبدوهُ بعد موتهِ ، ولربما تقفو رومية أثرك فتخفض جناح كبريائها وتنزع منها محبة الحرب والغارات عاكفة على التقوى والعبادة ، فاقتنع هذا الفيلسوف بما قيل لهُ ورضىَ بما طلب إليهِ ، وبعد ما قدم القرابين للآلهة مشى إلى المدينة فالتقاهُ فى الطريق أعضاء المجلس وهم فرحون بهِ متهللون لانتخابهِ .

ولما وصل إلى رومية لم يرد بادئ بدء أن يلبس لباس الملك ، بل ذهب توّاً إلى رابية طاربيس ليستشير الآلهة ، وجلّس على حجر هناك متجهاً إلى الجنوب ومغطياً رأسهُ ببرقع، ووقف رئيس العيافة وراءهُ ماداً يدهُ اليمنى فوق رأسهِ ومصلياً لهُ ، ثم نظر إلى السماءِ متيمناً ، فرأى بعض طيور تفاءل بها الحاضرونَ وعدوُّها دليلاً على قبول الآلهة بهذا الانتخاب ، فنزل الملك حينئذ من الرابية وذهب إلى البيت المعد لهُ ، وأخذ من ذلك الوقت فى تهذيب الشعب وتوطيد السلام ، وزرع الألفة بين الجميع ، ووسع المدينة ، بأن مدَّ أسوارها حول الرابية كورينالس .

قال بليتاركوس : إن نوما كان يعتقد بإله واحدٍ واجب الوجود غير متغير وغير منظور ، ولذلك منع الرومانيين من تمثيل آلهتهم بصورة رجل أو بهيمة ، ومنعهم أيضاً من ذبح الذبائح ، وفرض عليهم فقط تقديم قرابين للآلهة من خبزٍ وعسلٍ وخمرٍ ولبنٍ .

ورتب المعابد ونظم الكهنة وكثَّر الاحتفالات الدينية ، ليسرّ الشعب ويشغلهُ عن الحروب والأطماع ، وبنى هيكلاً للإله جانس رب الفطنة والتدبير ، وإله ابتداء كل عمل ونهايته ، وأمر أن يغلق هذا الهيكل فى أيام السلم ويفتح فى زمن الحرب ، وحرم الآباء حق التسلط المطلق على أولادهم بعد الإرشاد أو بالحرى بعد زواجهم ، لأنهُ ليس من العدل أن يتزوَّج رجلٌ حرَّةً فتصبح امرأتهُ عن قليل إن رام أبوهُ بيعهُ زوجة عبد رق ، ووضع قوانين قاسية مآلها صيانة النساءِ وحفظهنّ من الفجور ، إلا أنهُ سمح للرجل أن يقرض امرأتهُ لصديقهِ متى ولدت لهُ بنين ، فكان ذلك بمثابة طلاق وقتى لإحياءِ نسل من كانت امرأتهُ عاقراً ، وكان لهُ الحق أن يرجعها إلى بيتهِ متى أراد ، وأن يقرضها لأناس آخرين حينما يشاء .

ووهب عساكر روملس قسماً من الأراضى التى فتحوها فى حروبهم وغاراتهم، واعتنى بأمر الحراثة كل الاعتناء ، وأقام نظاراً ورؤساء نظار ، لملاحظة أشغال الزراعة وقصاص الفلاح الكسلان ومكافأة النشيط ، وقسم الصنائع والصناع إلى حرف وطوائف ، وأقام لكل حرفة تمثالاً ، وأعطى الجميع امتيازات ، وسمح لكل طائفة أن تملك عقاراً وتدخر فى صندوق عمومى مالاً للقيام بنفقات بعض احتفالات وقرابين خصوصية ، فتوطدت الألفة والمحبة بين الرومانيين والصابنيين ونسوا انقسامهم القديم وأحزابهم الماضية ، وأقبلوا على الشغل والاتحاد ، وأصلح نوما حساب السنة ، لأن العام الرومانى كان ثلثمائة وأربعة أيام فجعله ثلثمائة وخمسة وخمسين يوماً ، أى زاد يوما واحداً على السنة القمرية ، لأن الرومانيين كانوا يتشاءمون بالشفع ، وكانت السنة عندهم تبتدئُ فى أول أزار ، فجعل أولها غرة كانون الثانى ، ولكى توافق سنتهُ السنة الشمسية أضاف إليها كل عامين شهراً واحداً دعاهُ « مرسيدينس » ، كان عدد أيامه اثنين وعشرين يوماً فى السنة الثانية وثلاثة وعشرين يوماً فى السنة الرابعة .

وملك نوما ثلاث وأربعين سنة ، وعاش اثنتين وثمانين ، وفى أيامه تمتع الرومانيون بالسلام التام ، فلم يشنوا الغارة على أحد ، ولم يشن أحد الغارة عليهم ، وكان هذا الملك العاقل محبوباً من الجميع ، فلما مات بكاهُ الشعب بكاء اليتيم على أبيه ، وحزن كل عليهِ حزن الثكلى ودفنوهُ حسب أمرهِ خارج المدينة ، ووضعوا معهُ فى القبر الكتب التى ألفها ، ولم يكن لهُ أولاد سوى ابنة اسمها « بومبيليا » تزوجها نوما بن مارسيوس الذى أقنعهُ أن يملك على رومية ، وولدت بومبيليا أنكوس مارسيوس ، ملك الرومانيين الرابع .

* * *

الفصل الثالث

فى ملك طلس هوستيليوس

من (سنة ٦٧٣ إلى سنة ٦٤١ ق . م)

أو من (سنة ٨٠ إلى سنة ١١٢ ب . ر)

كان طلس هوستيليوس الذى خلف نوما سيداً عزيزاً وغنياً كريماً ، فوزَّع على المحتاجين من الرومانيين العقارات والأموال التى حبسها سلفاه على نفقة الملك والكهنة ، وضمن تقديم ما يلزم لذلك من مالهِ ، وقد اشتهر بكونه بطلاً صنديداً يحب الحرب والكفاح وهماماً مغواراً لا تتقعده المصاعب عن نيلِ ما يبتغيهِ ، فبات يرقب الفرصة ليقاتل من الأمم المجاورة من يجاهر بالعدوان ، لأن شرائع نوما كانت تحظرهُ الغزو والغارات ، وتمنعهُ من الاعتداء على أحد .

ونظر كليوس رئيس الألبانيين رفعة شأن الرومانيين ، فخالج قلبهُ الحسد ورأى نجاحهم وثروتهم ، فزاد الكمد وأراد قتالهم ، فلم يرَ إلى ذلك داعياً ، فعمد إلى تدبير حيلة تثير الفتنة وتحمل الرومانيين على خوض الحرب كمهاجمين لينال ما يبتغيهِ ، ولا يكون ملوماً بنزع السلام ونقض العهود ، فأرسل سرّاً بعض رجال فقراء وأمرهم أن يغيروا على أرض رومية وينهبوا ما يمكنهم نهبهُ ، ففعلوا ما أمروا بهِ ، ولما رأى الرومانيون ما جرى بعثوا جيشاً يتأثرهم ليفتك بهم ، فأدرك الجيش الرومانى تلك الشرذمة وقتل منها من قتلهُ وأثخن بعضاً بالجراح وأسر الباقين ، حينئذٍ جمع كليس الألبانيين وأخبرهم باعتداءِ الرومانيين عليهم ، وأراهم الرجال المجروحين وحرضهم على مقاتلتهم ، فثارت الحمية بالألبانيين ، وأرسلوا رسلاً إلى رومية يطلبون إرضاءً وتعويضاً مهددين الرومانيين بالحرب إن لم يعطوهم ما يرومون ، ولما رأى طلس الرسل عرف حاجتهم ، وأراد رد كيد الألبانيين فى نحرهم وتبرئة قومهِ ، فأرجأ مقابلتهم معتذراً وأحلهم محلاً جميلاً وأكرمهم غايةالإكرام ، وأرسل رسلاً إلى ألبا تطلب بإلحاح تعويضاً ، فقابلهم كليس وقال لهم : إنكم نبذتم حقوقنا ونكثتم العهود ، وقد وجهت إلى ملككم رسلاً وأظنهُ

لم يصغِ إليهم ، وبناءً على ذلك أعدّكم أعداءً لنا وأطلب قتالكم ، لعل الصارم البتار ينصفنا ، فانقلبت الرسل راجعة وأخبرت الملك بما كان ، فدعا طلس رسل الألبانيين وحادثهم بلطف مستخبراً عن بغيتهم فأطلعوهُ طلع أمرهم وأعلموهُ أن كليس يود الحرب إذا لم يعط تعويضاً ، فأجابهم طلس : اذهبوا وقولوا لهُ : إن ملك رومية يطلب إلى الآلهة أن تذل الأمة التى رفضت أولاً التسوية والصلح راغبة فى العدوان .

وأخذ الشعبان فى الاستعداد للحرب ، ولما انقضى الأجل المضروب زحف الجيشان ، وابتدأ القتال ومات فى أثناءِ ذلك كليس وخلفهُ فى الرئاسة على الألبانيين ماتيوس فوسيتيوس ، وبلغ الأمتين المتحاربتين أن الفدنيين وألفيين يرومون الإيقاع بهما حينما يرونهما قد ضعفا من جرى الحروب ، فأشفق الرئيس الألبانى على أمته من شر الأعداء ، وخابر طلس بأمر الصلح والاتحاد فقبل طلس بذلك، واتفقا على أن يبرز من كل فريق ثلاثة رجال ، والفريق الذى تستظهر رجالهُ على أقرانهم يعد ظافراً ولهُ حق التسلط على الفريق الآخر .

فبرز من معسكر الألبانيين ثلاثة إخوة اسمهم « الكورياسيون » ، وخرج من صفوف الرومانيين ثلاثة أخوة أيضاً اسمهم « الأُوراسيون » ، ومن غريب الاتفاق أن الأوراسيين كانوا أبناءَ خالة الكورياسيين ، وكان كل واحد منهم مساوياً قرنهُ فى العمر والشجاعة ، فهؤلاءِ هم الذين أقدموا على سفك دمائهم فدى الأمتين ووسيلة للاتحاد ناسين صلات القرابة وحقوق النسب ، ومجردين الصوارم ليفتك بعضهم ببعض خدمة للوطن ، فتقدموا جميعاً للميدان بقلب لا يخامرهُ الجزع إلا أنهم لما دنوا وأبصر كل من قرنه خصماً وقريباً تعانقوا باكين وافترقوا للكرّ والكفاح ولم يتمادَ بهم الأمر حتى خرَّ اثنان من الأوراسيين مجندلين فعلت فى معسكر الألبانيين ضجة الفرح وأصوات السرور ، وحزن الرومانيون وأيقنوا بالذل بعد الافتخار ، ونظر الأوراسى إلى خصومهِ فوجدهم مثخنين بالجراح ، ورأى نفسهُ سالماً غير مجروح ، فعمد إلى الهرب ليفرقهم ، ولما بصر بهِ الكورياسيون منهزماً اتبعوهُ ، فالتفت إليهم وكانوا قد تفرقوا فهجم على الأول وذبحه ، وبادر إلى الثانى فقتلهُ ، ولحق بالثالث فجندلهُ وجمع أسلاب الثلاثة ، ورجع ظافراً غانماً ، وهكذا انتهت هذه المعمعة الشهيرة التى خوّلت رومية التسلط على ألبا .

وكلل الملك طلس الأوراسىّ بإكليل الظفر ، فدخل هذا الفتى رومية مسروراً بما فعل ، وكانت أختهُ تحب أحد الكورياسيين ، ورأت بين الأسلاب ثوب من تحبهُ ملطخاً بالدم ، وكانت هى نفسها قد خاطت ذلك الثوب فنشرت شعرها وضربت صدرها ومزّقت ثيابها ، وقالت لأخيها : أيها الوحش الشرير ، كيف تسفك دم أقربائك الذين كنت تودهم كأخوتك ، وتقتل بقساوة خطيب شقيقتك ، فحنق الأوراسى من كلامها وأجابها : اذهبى إلى حبيبك مع شهواتك الوحشية يا من نسيت أخوتها والوطن ، ثم استل سيفهُ وضربها قائلاً : فليهلك هكذا من يندب عدواً لرومية .

وقبض على الأوراسى كجانٍ ، وجئَ به إلى الملك لينظر فى دعواهُ ويحكم عليهِ ، فرام طلس خلاصهُ فلمّ يقدر ، لأن ذنبهُ كان عظيماً ، فوكل أمرهُ إلى حكمَين حاسباً ما اقترفهُ ذنباً سياسياً ، فقضى الحكمان عليهِ بالقتل ، ولما همَّ الجلاد بقتلهِ قام أبوهُ وأشار إلى الشعب قائلاً : أيها الرومانيونَ ، كيف تسمحون أن يقتل اليوم مخلص رومية ، وأنت أيها الجلاد كيف تربط يديه اللتين نلنا بهما الظفر ، وأين تقتلهُ ، أداخل المدينة أمام الأسلاب التى غنمها بشجاعته أم خارج الأسوار بين قبور الكورياسيين ، نعم إننا نرى فى كل مكان آثار مجده الذى يجب أن يصونهُ من هذا القتل الشنيع .

ونظر الجمهور إلى دموع الأب وثبات الابن ، فأشفق عليهما وفك رباط ذلك الفتى الشجاع صافحاً عن ذنبهِ .

وتذكر طلس خيانة الفدنيين وما نووهُ لهُ من الشر ، حينما كانت الحرب ثائرة بينهُ وبين الألبانيين ، فأمر رؤساءهم أن يأتوا رومية ليبرئوا أنفسهم لدى المجلس العالى ، فلم يرضخ الفدنيون لما أُمروا بهِ ، بل اتحدوا مع الفيين وجمعوا العساكر والأبطال وزحفوا للقتال ، وكان فوسيتيوس رئيس الألبانيين قد واطأهم على ذلك أملاً أن يضعف شوكة الرومانيين ليتسنى لهُ الاستقلال غير أنهُ لم يجسر على إعلان هذا الأمر ، بل كتمهُ خيفة أن تدور عليهِ الدوائر ، وخرج بعساكره إجابة لطلب طلس الذى نهض فى الحال لمحاربة أعدائه ، وأخبر فوسيتيوس جنودهُ بما نوى فاستحسنوا رأيهُ وعولوا على حفظ الحيادة ، حتى إذا ما تبين لهم الظافر من الفريقين هجموا على المغلوب وأعانوا القوم الغالبين ، وعلم طلس بخداع

الألبانيين ، فتربص فى مكانهِ قليلاً صابراً على الأهوال ، ثم اقتحم مع جيوشهِ صفوف الأعداء فأذاقهم حرباً لا تبقى ولا تذر ، فتشتتوا فى تلك البيداء ، ولحق بهم الألبانيون وقتلوا منهم جماً غفيراً .

وفى الغد أرسل طلس كتيبة من جنوده لتخرب ألبا ، وأمر الجيوش الألبانية والرومانية أن تحضر إليهِ بلا سلاح ففعلت ذلك ، إلا أن الرومانيين تقلدوا حسبما أوعز إليهم سراً سيوفهم تحت ثيابهم ، ولما انتظمت الصفوف أخذ طلس يتكلم عن خيانة وخداع فوسيتيوس ، ولما فرغ أمر بقتلهِ مع الرؤساء الذين وافقوهُ فى تلك الدسيسة ، ونقل إلى رومية من بقى من عساكر وسكان ألبا ومنحهم حقوقاً كالوطنيين ، وأسكنهم على رابية كليس التى أضافها فى المدينة .

وظلّ الفدنيون مجاهرين بالعصيان ، فأغار عليهم طلس واستولى على مدينتهم قسراً وقتل زعماء العصاة ، وسمح للباقين منهم أن يسكنوا فى بلادهم ، كما كانوا مقرِّين فقط بسيادة الرومانيين ، وحارب الصابنيين وقهرهم بعد وقائع عظيمة، ثم أَبت المدن اللاتينية التى كانت تابعة لألبا الخضوع لهُ ، فزحف إليها برجالهِ وقاتلها إلا أنهُ لم يخضع منها سوى مدينة مادُليا ، فارتدَّ عنها راجعاً إلى رومية بَعد ما أَضرَّ زرعها وأتلف أغلالها فى ذلك العام .

ولما شاخ طلس داخلهُ الوسواس وزادت أوهامهُ وقوى اعتقاده بخرافات الرومانيين الدينية ، فصار لا يكذب خبراً يموهونهُ عليه ويصدق كل ما كانوا يقصونه من سماع أصوات من السماء ، وهو يأمر بتقديم الذبائح للآلهة كفارة عن خطاياهُ وذنوب الشعب ، قيل : إن ناراً سقطت من السماء على قصرهِ ، فحرقتهُ مع بنيهِ وامرأتهِ ، وقيل : إن أنكس مارسيوس قد قتلهُ وتبوأ بعدهُ سرير المملكة .

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

فى ملك أنكس مارسيوس

من (سنة ٦٤١ إلى سنة ٦١٦ ق . م)

أو من (سنة ١١٢ إلى سنة ١٢٧ ب . ر)

وأراد الملك الجديد أنكس إصلاح ما فسد من عوائد الشعب بعد موت جدِّه نوما وإحياء محبة الفلاحة والزراعة فى قلوب الجميع ماشياً على سنن الخير والتقوى ، وراغباً فى اجتناب الحروب ما أمكن ونظرت الأمم المجاورة إلى أفعاله هذه وأمياله السلمية ، فاحتقرتهُ وخالت الأوان قد آن للانتقام من الرومانيين ، وتعوض ما فقدتهُ فى السنين الماضية ، فنهض اللاتنيون وجاهروا بالعدوان ، فالتقاهم أنكس بجنوده وكسرهم ، ونقل سكان بعض مدنهم إلى رومية وأسكنهم على رابية أفنتينس التى أضافها إلى المدينة ، ومدَّ أيضاً الأسوار حول رابية جانيكولم ، وبنى هناك قلعة وجسراً فوق النهار ، وحفر خندقاً عظيماً حول الأماكن الواطية ليصونها من الأعداء إذا هجموا بغتة ، وحارب بعد ذلك الصابنيين والفدنيين وأخضعهم ، ووسع هيكل جوبيتر فرتَريوس وبنى مدينة ومرفأ أوستيا عند مصب نهر التيبر على بعد ستة عشر ميلاً من رومية ، وكان بين رجاله فارسٌ أتروري اسمهُ طاركوينس قد اشتهر بشجاعته وذكائه وخبرته بالفنون الحربية ، فأحبهُ أنكس جداً ورفع مقامهُ وأدخلهُ عضواً فى المجلس العالى ، ومات أنكس بعد ما ملك أربعة وعشرين عاماً تاركاً ولدين أقام عليهما وصياً ومناظراً صديقهُ طاركوينس المذكور .

* * *

الفصل الخامس

فى ملك طاركوينس برسكس أو طاركوينس الأول

من (سنة ٦١٦ إلى سنة ٥٧٨ ق . م)

أو (سنة ١٢٧ إلى سنة ١٧٥ ب . ر)

كان بكرنثوث فى عهد سيبسلس الظالم ملك تلك المدينة رجلٌ غنى جداً اسمه دامارتس من العائلة الشريفة التى استلب سيبسلس الملك منها ، فهذا الرجل لما رأى جور الأمير الجديد أشفق على نفسه وأمواله منهُ ، فجمع ما عندهُ من السلع والمال ورحل فى الحال إلى طاركوينى (إحدى مدن أترووريا العظيمة) وسكن فيها مستوطناً ، وتزوج هناك امرأة شريفة ولدت لهُ ابنين : اسم أحدهما « أرنكس » ، واسم الآخر « لوكومو » ، ومات أرنكس قبل أبيه تاركاً امرأتهُ حبلى ، ومات دمارتس أيضاً فى ذلك الحين جاهلاً أمر حبل كنته ، وتاركاً كل ثروته للوكومو ابنه الأصغر ، وهكذا حرم ابن أرنكس قبل أن يولد حصتهُ من ميراث جده ، فدعوهُ لذلك « أجاريوس » أي الفقير .

أما لوكومو فشرع يبحث عن الوسائل التى تخولهُ العظمة والفخار فى مدينة طاركوينى راغباً فى الارتقاء إلى المناصب العالية ، وباذلاً جهدهُ فى استمالة الجمهور توصلاً إلى ما يبتغيه إلا أنه خاب مسعاه ولم يفز بطائل لكونه عدَّ غريباً غير أهل لنيل ما هو ساع لنيله ، فرحل ذلك إلى رومية وقام فيها ، فمنحهُ ملكها حقوقاً كالوطنيين وأكرمه غاية الإكرام وأعلى مقامهُ ، ودعا لوكومو ذاتهُ طاركوينس بدلا من دامارتس ، وأحبهُ الشعب الرومانى ومال إليه لشجاعته وفطنته وسخائه ، ولما مات أنكس طمحت أبصارهُ إلى الملك وصمم على اختلاسه من ابن أنكس القاصر ، فجمع الرومانيين وحضهم على انتخابه ملكاً عليهم مظهراً لهم فضائلهُ وذاكراً الأفعال الخيرية والأعمال العظيمة التى أجراها لهم ، فرضى الرومانيون به ملكاً وانقادوا لهُ طائعين .

وزاد طاركوينس الآباء أعضاء المجلس العالى مائة عضو ليقوى حزبهُ ، ويزيد

عدد المنتصرين لهُ ، وكان أولئك الأعضاء الحديثون من العوام فأعطاهم حقوقاً وامتيازات كالأعضاء الباقين ، واعتبرت أولادهم من القوم الشرفاء .

وادعت الأمم المجاورة التى أخضعها الرومانيون قبلاً أن خضوعها كان واجباً مدة حياة الملك الذى حاربها وعقد معها صلحاً ، وأنها قد أمست الآن مستقلة ، إذ تلك العهود قد ماتت بموت الملك ، وأشهر بعض اللاتينيين الحرب ، فتقدم طاركوينس بعساكره وحاصر مدينة أبيولى واستولى عليها بخدعة وباع سكانها عبيداً ، وندم الكرستمنيون على عصيانهم فصفح عنهم ، وأسكن بينهم جماعة من الرومانيين ، واستولى بعد ذلك على كولاسيا وملك عليها أجاريوس ابن أخيه الذى دُعى كولاتينس نسبة إلى المدينة المذكورة ، وزحف إلى كورنيكولم وأذاق أهلها ثمر العصيان وحارب اللاتينيين والصابنيين وبعضاً من الأتروريين وغلبهم فدان لهُ الجميع صاغرين ، ولما رجع إلى رومية دخلها بافتخار عظيم محتفلاً بنصراتهِ العديدة وأنق الأموال التى جمعها من المدن المغلوبة فى بناء ملعب لأجل الألعاب الرومانية العمومية .

وكانت أتروريا بلاداً واسعة جداً مقسومة إلى اثنى عشر قسماً ، فلما رأى أمراؤها طاركوينس قد غلب بعضاً منهم نهضوا جميعاً لمحاربتهِ ، واستولوا على بلاد الفدنيين بخيانة بعض سكانها ، ومن هناك أغاروا على أراضى رومية ، فصبر طاركوينس مدة إلى أن جهز جنوداً وفرساناً كافية ، وخرج لقتالهم فجرى بين الفريقين موقعتان ، نال الرومانيون فى كلتيهما الظفر على أعدائهم ، ولما كانت فدنيا مدينة الفدنيين مفتاح أراضى رومية عوَّل طاركوينس على أخذها ، وبعد ما كسر الأتروريين فى موقعة ثالثة حاصرها واستولى عليها وقتل بعض سكانها الذين خانوهُ وسلموها إلى الأعداء ، ووهب أراضيهم لعساكره ، ثم أسرع وقاتل الأتروريين لأنهم كانوا عازمين على جمع جنودٍ جديدة وانتصر عليهم ، فأرسلوا إليهِ رسلاً يسألونهُ السلام ويعلنون خضوعهم لهُ ، فرضى بما طلبوه إليهِ وأمر بكف العدوان .

وبعث الأتروريون إلى طاركوينس دلالة على خضوعهم له تاج ذهب وعرش عاج وصولجاناً وثوباً موشياً وثوباً آخر أرجوانياً ، فلبس طاركوينس هذه الثياب الفاخرة ، واحتفل بنصرتهِ راكباً فى مركبة مذهبة تجرها أربعة أفراس .

وصرف همهُ بعد هذه النصرات فى إصلاح المدينة ، فبنى سورها من الحجارة المنحوتة ، وأزال المستنقعات التى كانت فى الأماكن الواطية حول الفورم ، وبنى قنوات عظيمة لجلب المياه إلى رومية ، وطرح الأقذار إلى الخارج ، وأصلح الفورم وشاد فيه حوانيت للبائعين والصيارفة ، وفتح مدارس للصبيان والبنات ، وبنى هياكل للآلهة وقاعات وغرفاً للحكام ، ثم نهض لمحاربة الصابنيين محتجاً بأنهم أعانوا الأترورين حينما كان يحاربهم ، وزاد فى ذلك الحين فرسانهُ ، وجعل عددهم يبلغ ألفاً وثمانمائة فارس ، وأمدَّ الأتروريون الصابنيين بفرقة من جنودهم ، وأتت الجيوش المتحدة وعسكرت عند مصب نهر أنيو فى التيبر ، وبنت جسراً هناك .

أما طاركوينس فعسكر على نهر أنيو ونظر حركة المياه الجارية فخطر فى باله أن يحرق الجسر الذى بنتهُ أعداؤهُ فعمل قوارب وملأها حطباً يابساً وكبريتاً وموادّاً أخرى سريعة الاحتراق وقذف هذه القوارب ليلاً بعد ما أشعلها فى نهر أنيو من جهة ، وفى نهر التيبر من جهة أخرى ، فسارت مسرعة لأن الريح كانت موافقة لها ، فالتهب الجسر حالاً واحتدمت النار وتراكض الصابنيون لإطفائها تاركين معسكرهم بلا حراس ، فتقدم طاركوينس بعساكره تحت جنح الظلام ، واستولى عليه قبل بزوغ الشمس وذعر الأعداء لما أبصروا ذلك وانهزموا فمات بعضهم حريقاً ، وبعضهم بسيف الرومانيين ، والبعض الآخر غرقاً ، وزحف بعد ذلك إلى صابينيا وقاتل أهلها وكسرهم ثم هادنهم وارتدَّ راجعاً ، ولما انقضت أيام الهدنة جمع الصابنيون جنداً جديداً وعبروا نهر أنيو وأغاروا على أرض رومية ، فبادر طاركوينس إليهم وقهرهم بتدبيره وبسالة جنوده ، وظنّ الصابنيون انكسارهم ناتجاً من جهل وضعف قائدهم ، فخلعوه وانتخبوا قائداً آخر وهموا بالهجوم على الرومانيين ، فالتقاهم طاركوينس وأغار عليهم فارتدوا إلى الوراء وتحصنوا فى معسكرهم وبقوا فيه محصورين إلى أن كانت ليلة حالكة الأديم وشديدة العواصف خرجوا فيها من معسكرهم سراً ، وساروا إلى بلادهم تحت جنح الظلام غير أنهم لم ينجوا من سيف طاركوينس لأنهُ كسرهم فى السنة التالية كسرة هدت منهم الأركان وأكرهتهم على أن يسلموا إليه مدنهم الحصينة ليسلموا من شره ، وأن يعقدوا معه صلحاً مقرّين بسيادة الرومانيين وخضوعهم التام لهم .

وحقد ابنا أنكس مارسيوس على طاركوينس لأنهُ خانهما وسلب منهما الملك ، فكانا يجهدان دائماً فى إحباط أعماله وتسويد سيرتهِ فى أعين الشعب ، وهو يزداد مع ذلك عظمة وبأساً غير مبال بتهم الحاسدين المرجفين ، ولا مكترث بمكائدهم وخبثهم ساعياً لإدراك ما يبتغيهِ من توسيع نطاق المملكة وزيادة فخره ومجده ، كيف لا وهو أول ملك رومانى جلس على عرش ولبس تاجاً وثوباً مزركشاً أُرجوانياً ، ولما رأى ابنا أنكس أن كل اجتهادهما لم يجدهما نفعاً ، استأجرا شابين اللذان تزيّا بزى فلاحين وحملا فأسين وذهبا إلى أمام قصر الملك وأخذا يتشاجران هناك ويتصايحان ، فخرج إليهما بعض الشرط وقادهما إلى الملك فشرع كل منهما يقص قصتهُ ويعرض شكواه بحدة وجلبة وهما يتقاطعان الكلام ويزيدان الصراخ ، فأنف الملك منهما وأمرهما أن يتكلما بهدوء ، وإذ كان مصغياً إلى أحدهما ليعى شكواه رفع الآخر فأسهُ وضربهُ بها ، فشق رأسهُ وأفلت مع رفيقهِ وانهزما .

وشاع هذا الخبر حالاً ، فتراكض الرومانيون ليعلموا جلية الأمر ، فأوصدت طاناكويل زوجة طاركوينس باب القصر محتجة بأن الملك مجروح يحتاج إلى الراحة والسكون ، ثم خاطبت الشعب من كوّة قائلة : إن جراح الملك ليست بليغة كما ظنت أولاً ، بل سيشفى عن قليل ويأمرهم لذلك أن يطيعوا فى كل الأمور سرفوس طليوس صهرهُ ، وفى الغد جلس سرفيوس على العرش ولبس الثياب الملوكية وتولى القضاء ، وأمر بإحضار ابنى أنكس فلم يوجدا لأنهما هربا من المدينة ، فحجز عقارتهما وما يملكان وحكم عليهما بأنهما مذنبان خائنان .

ودامت الحال هكذا بعض أيام إلى أن استتب الأمر لسرفيوس طليوس ، فأشهر موت الملك ببكاءٍ وعويل ، وشيع جنازتهُ باحتفال عظيم ، ثم قبض على زمام الأحكام من غير أن ينتخبهُ الشعب والمجلس انتخاباً قانونياً .

* * *

الفصل السادس

فى ملك سرفيوس طليوس

من (سنة ٥٧٨ إلى سنة ٥٣٤ ق . م)

أو من (سنة ١٧٥ إلى سنة ٢١٩ ب . ر)

كان سرفيوس ابن أسيرة جلبها طاركوينس إلى رومية من إحدى المدن التى خربها ، ولم يعرف لهُ أبٌ شرعى أو بالحرى لم يتفق المؤرخون فى هذا الأمر ، غير أنهم أجمعوا على كونهِ ولد فى قصر الملك قبل تحرير أُمه التى كانت بديعة الجمال فأحبها الملك والملكة حباً شديداً وأعتقاها وأحبا لأجلها ابنها سرفيوس وربياهُ تربية حسنة وزوجاهُ ابنتهما ، وفوض إليهِ طاركوينس مراراً عديدة فصل مسائل عمومية وحسم مشاكل سياسية ، فكان يتصرَّف فى كل ذلك تصرف عاقل فطين ، فعرف الشعب فضلهُ وسجاياه الحسنة وقدرهُ حق قدرهِ ، لذلك لم يمنعهُ من القضاء والتسلط عند موت الملك كما تقدم المقال .

وأنف الشرفاء وأعضاء المجلس من فعل سرفوس وارتقائه سرير الملك بلا انتخاب قانونى ، فاجتمعوا فى منازلهم وتذاكروا فى الأمر ملياً وصمموا على أن يخلعوهُ ويحكموا عليهِ بذلك فى أول مرة يلتئم مجلسهم .

أما سرفيوس فشرع يستميل العوام إليهِ ليقاوم بهم سلطة الشرفاء ، ثم جمعهم وأخذ بين يديهِ حفيدى طاركوينس وخاطب الجمهور قائلاً :

أيها الرومانيون ، هذان هما حفيدا ملككم العظيم الذى قتلهُ كما علمتم القوم الظالمون ، وقد أوصى الملك إلىّ بهما وهو على فراش الموت ، أفلا أعمل بموجب وصيتهِ ذاكراً إحسانهُ العميم إلىَّ وإنعامهُ العظيم علىَّ ، وإنى لأحتكم على مشاركتى فى هذه الخدمة الجلىّ وأرغب إليكم أن تساعدونى فى هذا الأمر مقابلة لما بذلتهُ فى خدمة الوطن ، وإننى لمستنكف أيها الرومانيون أن أراكم عبيد دائنيكم فأنتم قد فتحتم بذراعكم ودماكم الأراضى التى استولى عليها العظماء ، ولا أراكم تملّكون سوى قطعة أرض صغيرة لا تكفيكم غلتها ، فأنتم مجبرون لذلك

أن تحرثوا أرض أولئك العتاة لتعيشوا ، فلا ريب أنكم قد احتملتم كثيراً وحملتم زمناً طويلاً جور الشرفاء الذين بالكاد يحسبونكم أحراراً لسبب فقركم ، ولكن انعموا بالاً فلسوف أمنحكم كل ما يلزمكم .

ووفَّى بعد ذلك سرفيوس من مالِه دين الفقراء ، وأصدر منشوراً يأمر به الذين اختلسوا الأراضى العمومية أن يخلوها فى وقت عيَّنهُ لهم ، ووزع تلك الأراضى على من ليس لهُ ملك .

ووضع قوانين جديدة أبطل بها بعض امتيازات للشرفاء ، وحارب ألفين الذين جاهروا بالعصيان وأخضعهم ، ووهب أراضيهم لمن كان فقيراً بين الرومانيين ، ودخل المدينة باحتفال عظيم على رغم المجلس والعظماء ، ووسع رومية بإضافته إليها رابيتى أسكويلينس وفيمينالس ، وزوَّج حفيدى طاركوينس بابنتيهِ ليحازباهُ ويأمن شرهما ، وأحصى الشعب وقسمهُ إلى ستة أقسام حسب ثروة كل واحدة منهُ ، وفرض على كل قسم مكوساً يدفعها وقت الحرب ، وذلك بالنظر إلى غناه لا بالنظر إلى عدد رجالهِ كما كان قبلاً ، وقسم الأقسام إلى فرق وكثَّر الفرق الغنية وقلَّل الفقيرة من غير أن ينظر فى هذا الأمر إلى عدد أنفس القسم بل إلى ثروتهِ كما أشرنا ، لأن القسم الأول كان يشتمل على ثمانين فرقة ، والقسم الأخير وهو أكثر الأقسام أنفساً كان يشتمل على فرقة واحدة ، وجعل حقوق الانتخاب وأصوات الاقتراع حسب عدد الفرق ، ونظم الجندية وقسم رجالهُ إلى عساكر عاملين ، وهم الذين لم يتجاوز عمرهم الخامسة والأربعين ، وإلى محافظين وهم الذين تجاوزوا هذا الحد ، وبلغ عدد الأحرار القادرين على الحرب أربعة وثمانين ألفاً وسبعمائة رجل ، وأمر أن يجدد إحصاء الشعب وتقسيمهُ على النمط المذكور كل خمسة أعوام ، لأن الدنيا كما لا يخفى دولاب تحدث فى أحوال بنيها تغييراً مستمراً .

وعوَّل هذا الملك الحكيم على زيادة عدد الوطنيين بوسيلة لم تخطر قط على بال أحد من أسلافه ، وذلك أنهُ تذكَّر زمن عبوديته ، فأشفق على حالة أولئك الذين جعلهم سوءُ الحظ عبيداً ، وأمر بأن كل عبد قد أعتقهُ مولاه وأراد السكنى فى رومية يعدُّ وطنياً ، وأبى الآباءُ أعضاء المجلس باديءَ بدء التصديق على هذا الأمر ، فجمعهم وقال لهم : لو كانت الطبيعة قد وضعت حدّاً فاصلاً أو فرقاً

بيّناً بين من ولد حراً ومن ولد عبداً لوجب علينا أن نراعى هذا الاختلاف ، ونفرز من الناس الذين يخالفونهم بالطبع والطبيعة ، غير أنهُ لما كان هذا الفرق فى أحوال الأنام نتيجة الحظ فقط وجب عليكم أيها الآباء أن تصلحوا بحكمتكم الفائقة أحكام آلهة عمياء ، وهل تظنون هذه الآلهة آلهة الحظ التى تحملكم على احتقار رجال شجعان أُسروا فى الحرب تعدكم نعيماً دائماً ، فكم أمة قد اشتهرت بالشجاعة والبأس قد خانها الدهر وأذلها بعد الافتخار مع ذلك لِمَ لا تحسبون عبيدكم المعتقين وطنيين ، وأنتم قد حررتموهم لأنهُ إذا كان العبد شريراً ، فلماذا تعتقونهُ ، وإذا كان صادقاً وأميناً ، فأى مانع يمنعكم من اعتباره رومانياً ، أو كيف نحسب فى عداد الوطنيين الذين يأتون من المدن المجاورة ليستوطنوا فى مدينتنا غير باحثين عن أصلهم ، ونحرم هذا الحق من عاش معنا وتخلّق بأخلاقنا وعدَّ أهلاً لأن يعتق ويكون حراً ، أتغفلون عن المنفعة العمومية التى تتطلب هذا الأمر ، وتجهلون منفعتكم أيضاً ، ألستم تعلمون أن وجود الذين أعتقتموهم فى عداد الوطنيين مما يزيد سلطتكم ونفوذكم وعدد المنتصرين لكم .

فانتصحت الآباء بكلامهِ ، وصدَّقت على أمره بشأن المعتقين ، وأقام سرفيوس قضاة من أعضاء المجلس لينظروا فى الدعاوى المدنية والجزائية ويفصلوا الخصومات ووضع لهم شرائع وقوانين يحكمون بموجبها .

وأراد الملك توطيد السلام وتقوية صلات الاتحاد بين شعبهِ وبعض الأمم المجاورة ، فخابر اللاتينيين والصابنيين فى بناء هيكل برومية للآلهة ديانا يحضرون إليهِ مرةً فى كل سنة ليقدموا مع الرومانيين الذبائح والقرابين لهذه المعبودة ، وينظروا بعد انقضاءِ أيام العيد فى المشاكل التى تعرض لهم ، فقبل اللاتينيون والصابنيون بما أشار به ، وبنوا الهيكل المذكور على رابية أفنتينس ، وعقدوا معهُ عهداً ووضعوا قوانين لترتيب الجلسات وفصل الدعاوى ، ونقشوا العهد والقوانين على عمود حفظ فى هيكل ديانا إلى أيام أغسطسن قيصر .

وقد روى عن هذا الملك الفاضل : أنهُ أراد فى آخر حياته أن يعتزل عن السياسة والملك ، ويقيم فى رومية حكومة جمهورية إلا أنهُ لم يستطع إجراء ذلك الأمر ، كيف لا وصهرهُ طاركوينس البكر الملقب بالعاتى كان واقفاً لهُ بالمرصاد ، وكانت زوجة طاركوينس هذا تجهد فى أن تلطف عوائد بعلها بلطفها وأدبها وهو

يزداد على مرّ الزمان قسوة وفجوراً ، وكانت امرأة أخيه شرسة متكبرة تلح على زوجها العاقل أن يستخدم وسائل دنية بربرية لسلب الملك من أبيها ، وهو لا يرضخ إلا لأمياله الحسنة ، ولا يحب غير السلم والعدل ، فأخذت هذه الفاجرة تشكو سوء حظها لتزوجها رجلاً على زعمها سخيف العقل بليداً ، وشرعت تتزلف من سلفها الذى أحبها وتواطأ معها على سم بعلها وامرأته ليقترن بها ويدبرا ما يبتغيان ، ففعلا هذا الفعل القبيح ، ثم عمد طاركوينس إلى إهلاك سرفيوس فاستمال إليه السواد الأعظم من الآباء الذين كرهوا الملك لمحبته العوام وملكه على الرومانيين بلا انتخاب قانونى .

وعلم سرفيوس بما كان صهرهُ وابنته يدبران ، فأراد أن ينصح لهما لعلهما يرجعان عن غيهما ويعقلان فاحتقراهُ، وصمم لذلك طاركوينس على عرض دعواه للمجلس العالى وشكاية حميه أنهُ لم يبال بالآباء ، إذ ملك بالرغم عنهم وأنهُ قد ادعى كونهُ وصياً عليه ليختلس الملك منهُ ، فأجابهُ سرفيوس قائلاً : إننى لم أملك كوكيل عنك أو عن أخيك ، ولكننى أقدمت فقط على صيانة حياتكما من ابنىّ أنكس اللذان بلا ريب أحق منكما بالملك لو كان الملك كما تزعم بالوراثة ، ثم قال : والآن أيها الآباء لماذا أنتم جاهدون مع هذا الرجل فى إهلاكى ، هل رأيتمونى ظالماً فرمتم الانتقام منى ، أو خلتمونى متكبراً فأحببتم إذلالى مَنْ مِن ملوككم السابقين عمل ما عملتهُ لكم ، وسار السيرة التى سرتها ألم أحب الوطنيين جميعاً كما يحب الأب الحنون أولادهُ ، وهلا أقمت منكم قضاة ينظرون فى أمور الشعب ، ولكنكم قد كرهتمونى لمحبتى العوام مع هذا إذا رأيتم طاركوينس أفضل منى وصممتم على تمليكه ، فأنا لا أستنكف من ذلك ، بل أعرض الأمر للشعب الذى ولانى .

وفض المجلس بعد ذلك وأمر باجتماع الشعب فى الفورم أو الساحة العمومية، ولما ازدحمت الأقدام هناك وقف بين القوم خطيباً واسترعاهم السمع ذاكراً حروبهُ والنصرات التى حازها بشجاعته وتدبيره ، ثم أجمل كلامهُ عن القوانين التى وضعها والمنافع الكثيرة التى أنالها الأمة إلى أن قال : قد ظهر لى منازع ينازعنى السلطة التى تقلدتها لأسعى فى سبيل سعادتكم أيها الرومانيون ، ويزعم أن جدّهُ قد أورثهُ الملك عند موته ، وأنهُ لا حق لكم فى تولية من تودون من توليتهُ ، أفترضون بذلك ولا تغضبون أو تدعونهُ يسلب حقوقكم وأنتم صابرون ، وإذا كنتم

قد مللتم ملكى وسئمتم منى وفضلتم طاركوينس علىَّ ، فأنا أطلب إليكم أن تستردوا قضيب الملك الذى أعطيتمونيه .

فحنق الشعب عند سماعه هذه الكلمات ، وهمَّ بقتل طاركوينس الذى أسرع إلى منزله فراراً من القتل وهيجان العوام ، أما سرفيوس فرجع إلى قصره ظافراً فرحاً .

ولما كانت أيام الحصاد ، وكان أكثر الشعب خارج المدينة متفرقاً فى الحقول لجمع غلاله لبس طاركوينس ثياباً ملوكية ورتب خدامه وأصدقاءه على هيئة جند وأعوان وذهب معهم إلى الهيكل ، حيث كان الآباء عازمين على الالتئام ، وأرسل يأمرهم باسم الملك طاركوينس أن يأتوا فى الحال ، ثم تقدم بهدوء ورصانة وجلس على العرش ، وكان بعض الأعضاء عالماً بالخدعة ، فجاء مسرعاً ليرى ما يكون ، وأما الأكثرون فظنوا سرفيوس قد مات ، فبادروا إلى الحضور لئلا يحسب غيابهم فى مثل هذه الأحوال ذنباً ، ولما انتظمت الجلسة أخذ طاركوينس يطعن فى حميه قائلاً : إنهُ عبدٌ وابن أسيرةُ ، وأنهُ قد ملك بالمكر والخداع لا بانتخاب الشعب والآباء كما جرت العادة ، وأنهُ قد سلب أملاك الشرفاء ووهبها للأدنياء نظيره ، وقد حمَّل العظماء أثقالاً كانت مفروضة على العموم ، وقد قسم الرومانيين إلى أقسام ، وفرق حسب ثروة كل واحد منهم ليجعل أموالهم مطمحاً للأبصار وعرضة للحسد أو بالحرى ليوزعها بين الشحاذين متى أراد .

وما أتم طاركوينس كلامهُ إلا ورأى سرفيوس مقبلاً فنهض إليه وأمسكهُ بيده وسحبهُ إلى الباب ، ومن هناك طرحهُ إلى أسفل ، ثم أرسل بعض رجال أجهزوا عليه ، وسمعت طوليا زوجة طاركوينس ما حدث فأتت مسرورة لتهنئ بعلها ، وقيل : إن مركبتها مرت على جثة أبيها وتلطخت بدمه ، وقد دعيت تلك الطريق « فيكوس سيليرانس » أى الطريق الشريرة .

وهكذا مات هذا الملك الحكيم الذى عاش أربعة وسبعين عاماً ، وملك أربعة وأربعين ، وبقيت جثتهُ مطروحة إلى أن ادلهم الليل ، فأخذتها امرأتهُ ودفنتها سراً، أما الشعب فحزن عليه جداً ، وكانت العبيد تحتفل لهُ كل سنة بعيدٍ فى هيكل ديانا تذكاراً لمحبته إياهم وإحسانه إليهم .

* * *

الفصل السابع

فى ملك طاركوينس العاتى أو طاركوينس الثانى

وهو آخر ملوك رومية

من (سنة ٥٣٤ إلى سنة ٥١٠ ق . م)

أو من (سنة ٢١٩ إلى سنة ٢٤٣ ب . ر)

وخلا الجو لطاركوينس ونال ما كان يبتغيه ، فاستبد بالملك وعتا غير خاشٍ لأعمالهِ رقيباً ولا راحم فى ظلمهِ غريباً أو قريباً ، يجرى ما يروم إجراءَهُ من غير استشارة المجلس والشعب ، ولقد تسنى لهُ ذلك ، وأمن كل غائلة بتنظيمهِ فرقة عساكر غرباء لوقاية شخصهِ وتنفيذ أوامرهِ ، وزاد هذا الظالم فجورهُ فجوراً بأن منع المظلوم من التشكى ، وعزل القضاة الذين أقامهم سرفيوس وأعلن نفسهُ الحاكم الوحيد الذى ترفع إليهِ الشكوى والقادر على فصل كل معضلة ودعوى ، وكان ينظر فى سائر الأحوال إلى الأغنياء كمذنبين ليلتهم أموالهم ويرديهم إذا أمكنهُ ذلك ، ولقد قتل شيخاً جليلاً اسمهُ « يونيوس » سليل عائلة شريفة ، وأبا يونيوس بروتوس الشهير الذى ألغى الحكومة الملكية وكان طاركوينس الأول قد زوَّج يونيوس هذا بابنتهِ لسبب ثروتهِ العظيمة ، فأمر الملك الجديد بقتلهِ مع ابنهِ ليستولى على أملاكهِ وأموالهِ الكثيرة ، إنما بروتوس نجا من القتل بتبالههِ .

ولم يراع طاركوينس فى جورهِ غنياً أو فقيراً ، بل كان الجميع لديهِ سواء فأبطل قوانين سرفيوس وتقسيمهُ الشعب إلى أقسام وفرق ، وجعل جباية المكوس حسب عدد الأنفس لا حسب الثروة كما رتب سلفهُ .

وعلم طاركوينس ملل الرومانيين منهُ وضغنهم عليهِ ، فسعى فى محالفة الأمم الغربية لتكون لهُ عوناً فى الشدائد ونصيرة على قومهِ إذا مست الحاجة ، وزوَّج لذلك أوكتافيوس ماميليوس البطل اللاتينىَّ بابنتهِ ، واكتسب بوساطتهِ صداقة كثيرٍ من رؤساءِ وعظماءِ اللاتينيين .

وسأل اللاتينيين أن يرسلوا إلى رومية رسلاً ليخابرهم فى أمور جليلة ، فأتت الرسل واجتمعت فى اليوم المعين بهيكل فلورا وأقامت فيه تنتظر طاركوينس الذى لم يحضر فى ذلك النهار ولم يبعث أحداً يخبر المجتمعين بما يشغلهُ عن الحضور، ولما عيل صبر الجماعة وملت الانتظار قام ترنس هردونيوس الذى كان يبغض ماميليوس صهر الملك وقال لأرفاقه : إننى لا أعجب من تلقيب الرومانيين طاركوينس بالعاتى ، كيف لا وهو قد أراد الآن أن يسخر من الأمة اللاتينية ، فدعا رؤساءَها إلى الاجتماع وحينما اجتمعوا رفض مقابلتهم ، فلا ريب أنهُ رام سبر غورنا ليرى صبرنا ويعلم كيف يظلمنا متى خضعنا لهُ ، فلنرجع إذاً إلى بلادنا غير مبالين به وبمقابلته ، أما ماميليوس فاعتذر عن الملك ورغب إلى السفراء أن يلتئموا فى الغد ففعلوا ، ولما انتظمت الجلسة فى اليوم الثانى أتى طاركوينس ، وأعلم الرسل أن مرادهُ تولىَّ قيادة جيوشهم فى قائلاً : إن ذلك حق قد ورثهُ من جده ، وأنهُ قد جمعهم ليلتمس منهم التصديق على هذا الأمر ، فاعترضهُ هردونيوس اعتراضاً قوياً ودحض دعواه بحجج دامغة وبراهين ناصعة واستنهض همة رفقائه وحثهم على أن لا ينيلوا هذا الأمير المتكبر الجائر ما يبتغيه لئلا يقعوا فى فخاخ ظلمه ولات حين مناص .

فذهل طاركوينس من جسارة هردونيوس ، ولم يستطع أن يجيبهُ ببنت شفة غير أنهُ سأل الرسل الاجتماع مرة أخرى ، ثم سعى فى استمالة خدام هردونيوس إليه وأغراهم بتخبئة أسلحة بين أمتعة سيدهم ففعلوا ، وقابل بعد ذلك اللاتينيين وقال لهم : إن هردونيوس قد تكلم ما تكلمهُ عن بغض وضغينة لأنه رام الاقتران بابنتى فأبيت مصاهرتهُ ، مع ذلك ما لنا ولهذا الكلام ، فالمهم المهم أيها اللاتينيون أن تنظروا إلى وقاية أنفسكم وحريتكم وتمنعوا غدر هذا الخبيث الماكر الذى نصب لكم أحبولة ويريد إهلاككم جميعاً ليتسنى لهُ التسلط المطلق على سائر المدن اللاتينية ، وقد خبأ أسلحة بين أمتعته ليغدر بكم وينال مآربهُ ، فرعب الحاضرون جداً وبادروا فى الحال إلى فحص القضية وتحقيقها ، ولما وجدوا الأسلحة بين أمتعته كما ذكر الملك قاموا عليه وقتلوه وجددوا مع طاركوينس الاتحاد ورضوا به قائد جيوشهم العام وحالفهُ أيضاً فى ذلك الحين الأرنيون أو الجبليون وبعض من الفولسيين ، ثم حارب الفولسيين الذين لم يحالفوهُ ، واستولى على مدينتهم

وترك أسلابها غنيمة لعساكرِه ، وزحف إلى صابنيا وقاتل الصابنيين وقهرهم وارتدّ راجعاً إلى رومية ودخلها باحتفال عظيم ، وأخذ فى إتمام بناءِ الملعب والقنوات التى شرع بها جدُّهُ .

وكره الشرفاء أعمالهُ الوحشية وسئموا مظالمهُ الكثيرة ، فغادروا وطنهم ولجئوا إلى غابى وهى مدينة فى اللاتيوم على بعد اثنى عشر ميلاً من رومية ، فالتقاهم سكانها بالترحاب وأحلوهم عندهم محلاً عالياً وبادروا إلى محاربة طاركوينس انتصاراً لأولئك التعساء ، فدامت الحرب بين الفريقين سبعة أعوام وأضرتهما ضرراً بليغاً ، إذ المعامع والغارات كانت متتابعة ومانعة الفلاحين من زرع أراضيهم فقلّت الحنطة فى رومية وغلت أثمانها وبات جميع الرومانيين فى ضنك عظيم ، فهاجوا وطلبوا إلى الملك بإلحاح إما أن يعقد صلحاً مع الأعداء أو يعطيهم قوتاً .

حينئذ دبر طاركوينس حيلة أملتها عليه شراسة أخلاقه وخيانتهُ وأتمتها دناءة ورداءَة ابنِه سكستس طاركوينس الذى تظاهر أنهُ مغتاظٌ من أبيهِ ، وخرج من المدينة منهزماً ولجأ إلى غابى ، فأكرمهُ الغابيون وقلدوهُ قيادة فرقة من جنودهم ، وكان سكستس يغير بفرقته على أراضى رومية ويرجع ظافراً غانماً ، ونظر الغابيون إلى شجاعته وإخلاصهِ لهم ، فاغتروا به وائتمنوه وجعلوه قائداً عامّاً لجيشهم فاستتب لهُ الأمر وأصبحَ الآمر الناهى ، ثم أرسل عبداً يسأل أباهُ عما يلزم أن يفعل ، فقاد طاركوينس العبد إلى بستان ، وأخذ يحطم بعصاه رؤُوس سوق الخشخاش الطويلة وصرفهُ من غير أن يكلمهُ ، أما سكستس ففهم مغزى هذا الرمز وقتل رؤساءَ الغابين وكبراءَهم ، وفتح أبواب المدينة للرومانيين فدخلها طاركوينس منتصراً ، ولم يؤذ أهلها بل عامل الجميع بالرفق والإحسان وملّك عليهم ابنهُ سكستس المذكور .

وأتت طاركوينس يوماً امرأة معها تسعة أسفار تريد بيعها بثمن فاحش جداً ، فرفض الملك اشتراءَها ، فذهبت وحرقت ثلاثة منها ، ثم رجعت وطلبت الثمن الأول فطردوها باحتقار وظنوها مختلّة الشعور ، فمضت وحرقت ثلاثة كتب أيضاً وجاءَت تطلب بالباقى ما طلبتهُ أولاً ثمن التسعة ، فعجب طاركوينس من فعلها ورام معرفة فحوى هذه الأسفار فدفعها إلى العائفين ففحصوها وعرفوا أنها كتب ساحرة كُومَىْ ، فنقد الملك للمرأة الثمن وأخذ الكتب وحفظها باعتناء ، ولما

بنى هيكل جوبتير كابيتولينس وضعت فيه بمحل أفرد لها لأنها اعتبرت مقدسة ومشتملة على معرفة طالع الرومانيين وأسرار المستقبل .

وأتم طاركوينس بناء هيكل جوبتير على رابية طاربيس التى دعيت حينئذ كابيتولينس ، لأنهُ بينما الفعلة كانت تحفر فى الأرض وجدت رأس إنسان (فى اللاتينية كابوت) غائصاً بالدم كأنهُ مذبوح حديثاً ، فأعلن المبصرون أن هذا الأمر رمز يشير إلى كون رومية ستصبح رأس أو عاصمة العالم .

وفشا الطاعون فى رومية وظهرت علامات مخيفة رعبت طاركوينس وحملتهُ على إرسال ابنيهِ مع يونيوس بروتوس إلى بلاد اليونان ليستشيروا وحى دلفى عن أسباب الوباء والوسائل اللازمة لإزالته ، فقدم ابنا الملك هدايا فاخرة وقرابين ثمينة للإله أبولون ، وقدم بروتوس عصا ضخمة ومجوفة ملأها من داخل بالذهب الأبريز كنايةً عن فطنته وسجاياهُ الحسنة المستترة تحت برقع التبالة ، ولم يعلم رفيقاه ما حوت العصا فاستغرقا فى الضحك سخراً منهُ ، ثم أوحى إليهم الإله ما أوحى وأخبرهم أنهُ سيطرأ على الحكومة تغيير وسيكون فى رومية ملك جديد ، وأن الرجل الذى سيتسلط على الرومانيين هو واحدٌ من الحاضرين الذى يسبق صاحبيه إلى تقبيل أمه ، فأدرك بروتوس مغزى الوحى وسقط على الأرض وقبلها لأنها أم كل حى ، ولما رجعوا إلى رومية رأوا الحرب متنشبة بين الرومانيين والرتليين ، وكان الملك طاركوينس قد زحف بجيشه لمحاصرة أرديا ولم يكن القتال حينئذ عنيفاً ، بل كانت القواد تقضى أكثر الأوقات باللهو والمسرات ، وحدث يوماً أن سكستس طاركوينس أدب مأدبة دعا إليها أخويهِ وقريبه كولاتينوس وأخذ الداعى والمدعوون يتكلمون عن النساء وفضلهنَّ ، وكان كل يعظم شأن امرأته ويفضلها على سواها حتى أفضى بهم الأمر إلى اللجاج ، فعمدوا إلى امتطاء صهوات الخيل والذهاب توّاً إلى منازلهم لينظروا ما تعمل نساؤهم ، فأتوا أولاً رومية ووجدوا حلائل الطاركوينيين مشتغلات بالمزح والأفرح ومنهمكات فى إحياء ليلتهنَّ مع أترابهنَّ وارتشاف كؤوس الصفو والانشراح ، ثم مضوا إلى كولاسيا فرأوا لوكريسيا امرأة كولاتينس قائمة مع خادماتها بغزل الصوف والأشغال ، وكانت لوكريسيا هذه بديعة الحسن والجمال ، فافتتن سكستس بها وتيمهُ حبها .

وبعد بضعة أيام رجع سكستس سراً إلى كولاسيا ونزل فى بيت نسيبه كولاتينس فالتقته لوكريسيا بالترحاب وأكرمتهُ غاية الإكرام وأفردت لهُ غرفة لينام فيها ، ولما أدلهم الليل وقد رقد كل من فى المنزل انسلّ سكستس من غرفتهِ ودخل خدر لوكريسيا مجرداً حسامهُ ودنا من سريرها ووضع يدهُ اليسرى على صدرها وأيقظها وقال لها : لوكريسيا أنا سكستس طاركوينس ، إياك والصراخ وإلا قتلتك بحد هذا القرضاب ، ثم طفق يبثّ لها شكواه ويظهر غرامهُ وجواه متلطفاً تارة ومتهدداً أخرى وهى تدفعهُ عنها وتزداد منهُ نفوراً ، عند ذلك قال لها: إنهُ عازم على قتلها وقتل أحد عبيدها واتهامها بالزنى معهُ وإذاعة فجورها بين الملأ فخافت لوكريسيا من هذه التهم وإن تكن باطلة ، وأشفقت على صيتها وطهارتها وأنالت سكستس كرهاً ما كان يتمناه .

وفى الغد نهض سكستس باكراً ورجع إلى المعسكر ، أما لوكريسيا فلبست لباس الحداد ووضعت تحت ثوبها مدية وكتبت إلى زوجها وأبيها لوكريسيوس أن يحضرا بالعجل فأتيا حالاً مع بروتوس والأب فالريوس ، ولما استقرّ بهم القرار حدثتهم بحديثها وحثتهم على الانتقام من ذلك الوحش الضارى ، ثم استلت مديتها وطعنت بها صدرها وسقطت على الأرض لا حراك لها ، فعلا صراخ ونواح زوجها وأبيها وبكاها كل من حضر ، وتقدم بروتوس وأخذ المدية وهى تقطر دماً ورفعها قائلاً : أقسم بالآلهة إنى آخذ بثأر لوكريسيا وإنى أبيد طاركوينس ونسلهُ الفاسق الشرير ، ودفع المدية إلى الباقين الذين أقسموا كذلك ، ثم أخبر بروتوس أصحابهُ بسبب تبالههِ وحرّضهم ألا يضيعوا الوقت بالبكاءِ على لوكريسيا، وأن يتصرفوا فى الأمر كأبطال رومانيين ساعين فقط للانتقام ، وأشار عليهم أن يوصدوا أبواب المدينة ويضعوا عليها حراساً أمناء كيلا يصل خبر مكيدتهم إلى الملك ، فأجروا ما ارتأُوهُ بسرعة عظيمة لأن لوكريسيوس كان حاكم رومية من قبل طاركوينس وقادراً أن يفعل فيها ما يشاء بلا مانع أو معارض .

وجمع بروتوس الشعب وأراه جثة لوكريسيا ، وأخبره بما حدث وبسبب تبالهه ثم خطب خطاباً طويلاً أظهر فيهِ رداءَة طاركوينس وظلمهُ ، وختم كلامهُ بوجوب خلعهِ وطردهِ من رومية لإراحة الناس منهُ ومن أولاده الفاجرين العتاة ، فهاج

القوم جداً عند سماعهم ذلك ورضوا بما ارتآه بروتوس وصدقوا على أمر المجلس بهذا الشأن .

وأبطل الرومانيون الحكومة الملكية ونادوا بالحكومة الجمهورية ، وبلغ الخبر الجيش الذى كان خارج المدينة يحارب الرتليين ، فسر بهِ وانضم إلى المجلس ورجع إلى رومية بعد ما عُقد الصلح مع سكان أرديا لخمسة عشر عاماً ، أما طاركوينس فذهب مع بنيهِ إلى بلاد أتروريا وطن عائلة أمه آملاً وجود أصدقاء ونصراء يعينونهُ على إبادة خصومهِ واسترجاع ما فقدهُ .

* * *

الباب الثانى

من ابتداء الحكومة الجمهورية

سنة (٥٠٩) إلى حين تجديد بناء رومية (سنة ٣٨٨ ق . م)
بعد ما حرقها الغاليون أو من (سنة ٢٤٤ إلى سنة ٢٦٥ ب . ر)

الفصل الأول

فى القنصلية الأولى

وانتخب الرومانيون لرئاسة الجمهورية بروتوس وكولاتينس زوج لوكريسيا ودعوهما قنصلين ومنحوهما حق التسلط على الشعب وإدارة الأعمال كلها ، كما كانت تفعل الملوك ، إلا أن انتخابهما كان لسنة واحدة .

وقدَّم القنصلان ذبائح وقرابين للآلهة كفارة عن آثامهما وحلفا أمام الشعب يميناً ألا يدعا طاركوينس ولا أولادهُ ولا أحداً منِ الناس يملك على رومية فيما بعد ، وهكذا حلف الشعب والآباء ، ثم اختار القوم رئيساً للكهنة وانصرف الجميع مسرورين .

وكان الطاركوينيون لا يألون جهداً فى تهييج أعداءِ رومية عليها وإغرائهم بقتالها وكانوا يطوفون المدن والقرى لهذه الغاية ، وأقام طِاركوينس الشيخ فى طاركوينى واستمال أهلها بخداعهِ وجعلهم يرسلون رسلاً إلى مجلس رومية يعرضون لهُ وجوب مرافعة الملك علنَاً قبل طرده ، ويهددون الرومانيين إن أبوا إجابة ما سئلوهُ بأن الأمم المجاورة ستنهض يداً واحدة لمحاربتهم وتكرههم على الإذعان ، وعرف الآباء خبث ورداءة طاركوينس وما وراء طلبهِ من الأخطار العظيمة ، فردوا الرسل خائبين لأنهم لم يخشوا قتالاً أو وعيداً ، بل جهدوا فى تقوية سلطتهم وتوطيد الجمهورية .

وكان أكثر الفتيان الشرفاء فى عهد الملك السابق قد اعتادوا اللهو والمسرات وارتكاب الفواحش لا يحسبون للقوانين حساباً ولا يخافون لرفعة شأنهم عقاباً ، وكانوا جميعهم مولعين بزخرفة الملابس وبهجة الاجتماعات والاحتفالات الملوكية، فنظروا إلى بساطة الحكومة الجديدة وعدلها وقساوة شرائعها نظرة اليأس والاحتقار، وباتوا يأسفون على أيامهم وأفراحهم الماضية ، ويتمنون عود طاركوينس وجوره لتعود إليهم أوقات الصفو والهناء ، ورأى أولاد الملك تلك الأمور فظنوا إمكان استخدام هؤلاء الفتيان لنيل مآربهم ، فسعوا أولاً فى استرجاع أمتعتهم وأملاكهم ، وجعلوا أهل طاركوينى يرسلون لهذه الغاية

رسلاً إلى رومية وأعطوهم أوامر سريّة لإثارة الفتن وقتل القنصلين إن أمكنهم قتلهما .

ونال الرسل ما طلبوهُ على رغم بروتوس ، لأن كولاتينس رضى مع الشعب بإنالتهم سؤالهم ، وبينما القوم كانوا منهمكين فى إرجاع أمتعة الملك وبيع أملاكه قدر الرسل المذكورون على إثارة الفتنة وإغراء بعض فتيان من جملتهم ابنا بروتوس بقتل القنصلين ، وصمم هؤلاء الفتيان على بذل النفوس توصلاً إلى بغيتهم وحلفوا يميناً بربرية وهى كما زعموا عظيمة ، وذلك أنهم أتوا برجل وذبحوه وشربوا من دمه وأقسموا على الثبات والتعاون ، وكانوا يجتمعون فى محل للمذاكرة ، ثم كتبوا كتباً إلى الملك المنفى وأعطوها للرسل غير أن أحد عبيدهم عرف مكيدتهم واطلع عليها فالريوس الذى سعى مع أخيهِ وأصدقائهِ لتحقيق القضية ، فتسنى لهُ الحصول على أوراق وكتب هؤلاءِ الماكرين والقبض عليهم جميعاً .

وفى اليوم التالى أُحضر الأسراء إلى محل الاجتماع وجلس القنصلان أمام الشعب لينظرا فى دعواهم ، فنادى بروتوس أولاً ابنيهِ وتلا الأوراق التى كتباها إلى طاركوينس وأمرهما بصوت جهير أن يجيبا عن ذلك ويتبرأ من هذه التهم البينة إن أمكنهما الاحتجاج ، فاضطرب الفتيان وتلعثما وبكيا حتى كادا يشرقان بالدموع، ورأت الآباءُ أعضاء المجلس بكاءهما وعبراتهما المتساقطة من جفونهما كالديمة المدرار ، فأشفقت عليهما وودت خلاصهما ولو بالنفى من المدينة وتلك الديار ، وبكى كولاتينس أيضاً ، أما بروتوس فنهض ودعا الشرط وقال لهم : خذوهما وعجلوا بأجلهما ، فقبض عليهما الشرط وبعد أن جلدوهما ضربوا عنقيهما ، وكان بروتوس ينظر إلى كل ذلك بقلب ثابت ووجه عبوس ، ولما شرب ابناهُ كأس الحمام وخرّا صريعين مضى إلى منزلهِ تاركاً لرفيقهِ النظر فى دعوى الباقين .

وكان كولاتينس يرغب فى خلاص المذنبين الباقين لأنهم أقرباؤهُ ، فسمح لهم بيوم يستعدون فيه للمدافعة عن أنفسهم ، وأمر أن يسلم إليهم العبد الذى وشى بهم ، فعارضهُ فالريوس والشعب ولم يرض أحدٌ سواه بتسليمهِ ، واستفتى الجمع بروتوس فى هذا الأمر ، فأجاب : إنى قد فعلت ما فعلتهُ بموجب حقوقى الأبوية

وأنهُ على الشعب الآن الحكم على هؤلاء المذنبين ، حينئذ أصدر الجمع أمراً بقتلهم كلهم ما خلا الرسل الذين طُردوا من المدينة وحُررً العبد الذى كشف المكيدة وأعطى جزاء على ذلك خمسة وعشرين ألف قص نحاسى (نحو ثمانين ليرة إنجليزية ونصفاً) ، ثم أبطل المجلس أمر ردّ أملاك طاركوينس عليه وهَدَم قصرهُ ووزع عقاراتهِ على الوطنيين المحتاجين .

وقويت شركة بروتوس لما أظهر من القساوة فى الحكم على ابنيه ، وتوطدت حكومتهُ لما أبدى من الهمة والنشاط فى جميع أعمالهِ ، أما كولاتينس فاحتقرهُ الرومانيون وأنفوا منهُ لسلوكهِ مسلك الضعف والجبن وظنوهُ خائناً لكونه قريب الطاركوينيين ، وكان بروتوس يبغض رفيقهُ إما لجنوحهِ إلى الملك السابق أو لتباينهما فى المشارب والطباع ، فاغتنم هذه الفرصة وكلم الشعب قائلاً :

يا بنى الوطن ، لو عرفتم طبع كل من القنصلين عند انتخابهما وأقدمتم على اختيار رجلين متوافقين فى السجايا والأميال لكانت حكومتكم الجديدة بلا عيب ، غير أنهُ يوجد بينى وبين رفيقى فرقٌ عظيم كالفرق بين مبغض الظلم ومحب الظالمين ، لأن جنوح كولاتينس إلى أقربائه الأشرار يجعلهُ يعمل كل ما هو آيلٌ لإرجاعهم ، ألم ترونى سفكت دم ابنيَّ لصيانة حريتكم حينما كان كولاتينس جاهداً فى نزعها ، ألعلكم ترجون منهُ خلاف ذلك وهو الذى قد سعى فى ردّ أملاك الجائرين واحتال فى خلاص المذنبين ، فيا كولاتينس ، كيف أعفو عنك وأنا الذى لم يعف عن سفك دم ولديهِ ، نعم إنك رجلٌ حاضرٌ معنا ولكنّ قلبك غائب مع أعدائنا ، أنت خائن تود وقاية ظالمى الوطن ، وترغب فى إردائى لأنى أدافع عنهُ بغيرة ونشاط ، وبناءً عليه أعلمك أنك معزول عن منصبك ، وأنتم أيها الرومانيون ستلتئمون فرقاً للمصادقة على ما قلتهُ ، ولكم الخيار فى انتخاب كولاتينس أو بروتوس ، ولكنكم لا تقدرون على انتخابهما معاً .

وأراد كولاتينس أن يجيب رفيقهُ ويبرأ ذاتهُ ، فلم يستطع لأن هيجان الشعب كان عظيماً ، فرضخ لما أُمر بهِ واعتزل عن منصبه ومضى إلى مدينة لافينيوم وسكن فيها .

وانتخب الجمهور قنصلاً ورفيقاً لبروتوس بوبليوس فالريوس ، وكان بوبليوس هذا مشهوراً بثروتهِ وحذقهِ وفصاحتهِ ، يحب الزهد والقناعة ، ويسلك فى كل

الأمور مسلك الحكيم الفطين ، وعفا القنصلان عن الذين حازبوا طاركوينس بشرط أن يرجعوا إلى المدينة بمدى عشرين يوماً ، فارتدَّ إلى رومية عددٌ عديد من كبرائها .

وبلغ الملك المنفى ما كان فتقدم بالجنود التى جهزها ألفيون ، وأهل طاركوينى وأغار على أراضى رومية ، فالتقاه القنصلان بالجيوش الرومانية ، وكان بروتوس يقود فرقة الفرسان وفالريوس فرق المشاة ، وأبصر أحد أولاد طاركوينس القنصل بروتوس يتقدم فرقتهُ محاطاً بالجند والأعوان ، فصرخ ها هو ذا عدونا الألد الذى نفانا من وطننا واستلب السلطة منا ، ثم نخس جواده وهجم على بروتوس ، فبادر إليهِ هذا بقلب أقصى من الحجر وطعن كل منهما قرنهُ طعنة ذهبت بحياته ، فخرّا مجندلين يخبطان بدماهما ، بعد ذلك حملت العساكر على العساكر واشتدَّ القتال بين الفريقين ودام إلى المساء ، ولم يعلم أيهما الظافر حتى شاع خبر أنهُ سمع صوت من غابة هناك يعلن النصر للرومانيين ، فرعب الأعداء من تلك الإشاعة وتركوا معسكرهم وولوا منهزمين .

وبكى الجميع بروتوس وحزنوا عليهِ لأنهُ هو البطل الذى سفك دم ابنيه ، وبذل مهجتهُ فدى الوطن وحريّته ، ونقلت جثتهُ إلى رومية ودُفنت فى الفورم وابنهُ فالريوس ، وهو أول رومانىّ ابن ميت وحدّت النساء عاماً كاملاً حزناً على من انتصر لجنسهنَّ وحمى عرضهنَّ من القوم الطغام .

ووضع فالريوس قوانين عادلة وخفف سلطة القناصل ومنح الجمهور حقوقاً جديدة فدعاهُ الرومانيون بوبليكولا ، أى المحبوب من الشعب وانتخبوا لهُ رفيقاً بدلاً من بروتوس لوكريسيوس أبا لوكريسيا الذى مات بعد انتخابهِ بأيام قليلة ، فانتقوا لهذا المنصب العالى أُوراسيوس بلفيلوس .

* * *

الفصل الثانى

وفى (سنة ٥٠٦ ق . م) أراد بورسينا ملك مدينة كلوسيوم فى بلاد أتروريا الانتصار لطاركوينس ، فزحف إلى رومية بجيش جرَّار وحاصر قلعة جانكولم واستولى عليها وأخرج منها الرومانيين الذين رجعوا إلى الوراء ليدافعوا عن الجسر ، فتأثرهم بورسينا ونشبت الحرب بين الفريقين ، وقاتل الرومانيون فى ذلك اليوم قتال الأبطال ، وصبروا على الأهوال إلى أن جرح قائدان من قوادهم العظام ، فذعروا وولوا منهزمين ، وكاد الأتروريون يدخلون المدينة لولا شجاعة أُوراتيوس كوكلس الذى ردّ وحدهُ هجمات الأعداء ، ومكَّن القنصلين بفعله هذا من هدم الجسر ، فوقع بالنهر وهو مدجج بالسلاح ، وكانت النبال تسقط عليهِ كالمطر إلا أنهُ نجا منها سابحاً وعمل لهُ الشعب تمثالاً نحاسياً وُضع فى هيكل فولكانس تذكاراً لبسالته وجهادهِ بحماية الجمهورية ومنحهُ أراضى كثيرة ودراهم وافرة جزاءَ لهُ على أعمالهِ هذه التى خلدها التاريخ .

واشتدَّ الجوع فى المدينة ، ولما علم بورسينا بذلك أرسل يخبر الرومانيين أنهُ يعطيهم قوتاً كافياً إن كانوا يقبلون بتمليك طاركوينس عليهم ، فأجابوهُ أن الجوع أقل ضرراً من العبودية والظلم .

وكان فى رومية فتى شريف اسمهُ ميسيوس كوردوس ، فهذا لما رأى الحالة التعيسة التى آل أمرهم إليها تزيَّا بزى الأتروريين ووضع مدية تحت ثيابهِ وخرج من المدينة ، وبما أنهُ كان يتكلم جيداً اللغة الأترورية لم يجد مانعاً من دخولهِ إلى معسكر الأعداء ، فانسل بين العساكر والقواد وتخلل الخيام إلى أن وصل إلى سرادق الملك فولجهُ ، وكان بورسينا فى ذلك النهار جالساً مع وزيره يعرض الجيش ، فظن ميسيوس الوزير أنهُ الملك فوثب عليهُ وطعنهُ طعنة كانت القاضية ، ثم هم بالهرب فأمسكهُ الحاضرون ، أما بورسينا فتعجب من شجاعة هذا البطل الذى كانت تلوح عليهِ سمات الحنق والقهر ، لأنهُ لم يقتل من كان متعمّداً قتلهُ وكأنهُ أراد أن يقاص نفسهُ على خطأهِ ، فوضع يدهُ فى النار التى أعدت لإهلاكهِ ، وكان ينظر إليها وهى تحترق من غير إظهار ألم أو ضجر ، حينئذٍ تحول غضب

الملك إلى انذهال عظيم ، وخاف خوفاً شديداً لما أعمله ميسيوس أن ثلاث مائة فتى رومانى قد تعاهدوا بأقسام عظيمة أن يقتلوه ، فعفا عنه وأطلقه بعد ما أعطاه المدية التى كان عازماً على إردائه بها ، ثم عقد مجلساً للائتمار بالوسائل التى يلزم اتخاذها لصيانة نفسه من الأخطار المحيطة به ، وكان ابنه أرونس يحب الرومانيين لبأسهم وجسارتهم ، فقال له : إن أحسن الوسائل الواقية هى إبرام صلح مع هذه الأمة ، فانتصح الملك بهذا الكلام وكف عن الحرب والعدوان .

وأرسل الرومانيون إلى بروسينا رهائن عشر بنات عذارى وعشرة صبيان من أحسن العائلات ، وحدث أنه بينما كانت أولئك البنات يغتسلن فى النهر نظرت إحداهنّ المسماة كليليا إلى رومية فشاقها منظرها وتذكرت وطنها ، فأخذت تسبح والبنات يتبعنها حتى وصلن جميعاً إلى الضفة المقابلة ودخلن المدينة سالمات ، وشاع هذا الخبر حالاً وبلغ بورسينا فزاد عجبه من جسارة الرومانيين واعتباره لهم، ولما رُدّت البنات عليه أطلق كليليا ورفيقاتها قائلاً : إن صدق الأمة الرومانية هو خير كفيل للمحافظة على المعاهدة ، ثم رحل إلى بلاده تاركاً خيام عساكره مملوءة بالمؤونة والزاد .

وقد روى بعض المؤرخين : أن بورسيا قد استولى على رومية وأذلها حتى أنه منع أهلها من استعمال الحديد بغير أشغال الزراعة ، أما الرواية الأولى فحكاها لفيوس الذى دأبه مدح الرومانيين .

وفى هذه الأعصر الخشنة لم يتقن الرومانيون أو بالحرى لم يعرفوا سوى فنى الزراعة والحرب ، وكانوا يتقوّتون بغلال حقولهم أو بما كانوا ينهبونه فى غزواتهم الأمم المجاورة وغاراتهم عليها ، وكل الأعمال اليدوية ما خلا هذين الفنين كانت مجهولة فى رومية أو مخصوصة بالعبيد والغرباء ، لأنهم كانوا جميعاً فلاحين ، وكان جميع الفلاحين عساكر ، ولنا دليل على ذلك ما سنراه فى هذا التاريخ من أن بعض مشاهير قوادهم الذين فتحوا المدائن وحازوا النصرات العظيمة كانوا يأتون بهم من حقولهم وهم يشتغلون بحرثها إلى ساحات القتال ومواقف الضرب والطعان ، وكان العظماء يعوّدون أولادهم الأعمال المتعبة والعيشة الخشنة لتقوى أبدانهم ، ويكونوا أقدر على احتمال أتعاب الحروب .

ومن عوائد الرومانيين فى أيام ملوكهم أنهم كانوا يبيعون نصف الأراضى التى

يغتنمونها قياماً بالنفقات اللازمة للحرب ، ويعطون النصف الباقى للفقراء أو يأجرونهُ لهم بأجرة طفيفة ، غير أن الآباء والشرفاء القابضين فى أيام الجمهورية على عنان الأحكام أهملوا هذه العوائد الحسنة وشرعوا يسلبون لأنفسهم ما أمكنهم سلبهُ من تلك الأراضى ، فزادت ثروتهم وكثر دخلهم وقلت أموال الخزينة ، وحرم الجندى الذى خاطر بحياتهِ لتوسيع نطاق بلاده قطعة أرض صغيرة يأخذها أجرة له وجزاء على بسالتهِ .

ولما كان الجندى غير مأجور على أتعابهِ وخدماتهِ كان يحتاج أحياناً إلى استقراض مال من الشرفاء ، ورهن قطعة أرضهِ الصغيرة حتى إذا ما تكاثر الدين لسبب الرباء الفاحش بادر الدائن إلى القبض عليهِ واستعباده أو بيعهِ .

وفى ذلك الحين أشفق المديونون على أنفسهم من جور دائنيهم ، فعرضوا أمرهم للمجلس وشكوا عسرهم متظلمين بقولهم : إنهم بعد ما ذاقوا غمرات الموت فى محاربة الطاركوينيين والذب عن حرية العموم قد أصبحوا عبيداً لمواطنيهم ، فلم يجب المجلس نداءهم ولم يصغ إلى صوت شكواهم ، وكان اللاتينيون قد نهضوا سنة (٤٩٧ ق . م) لقتال الرومانيين انتصاراً لطاركوينس فأبى حينئذ العوام ، ولا سيما المديونون التجند محتجين أنهم قد سئموا الحياة بخدمة موالٍ طمعين وقساة ، وأنهم غير مجبرين على الدفاع عن وطن لا يملكون من أرضهِ قيد باع ، بل صمموا إذا لم يسامحوا بما عليهم من الديون أن يغادروا المدينة فراراً من ظلم دائنيهم .

ورأى المجلس والشرفاء الأخطار المحيطة بهم من كل جانب فأدركوا ضرورة تسليم زمام السياسة لرجل واحد يكون مطلق السلطة ليقطع دابر المفسدين ويمنع الشقاق أن يسرى بين الوطنيين ، ويكون وسيلة إلى انضمامهم واجتماع كلمتهم فى أزمنة الحرب والشدائد ، وانتخبوا لهذا الأمر طيطس لارتيوس أحد القنصلين الحاليين ولقبوهُ بالدكتاتور .

وكان لهذا الحاكم سلطة مطلقة على حياة وأموال جميع الرومانيين ، وكان إذا مشى يتقدمهُ أربعة وعشرون شرطياً حاملين أفؤساً ، أما انتخابهُ فكان فى الأوقات العسرة جداً ، ولمدة ستة أشهر فقط ، وعدل لارتيوس فى أحكامهِ ، وأظهر ثباتاً عظيماً فى إجراءِ كل أعمالهِ حتى أدّب العصاة وأخمد نار الفتنة وأحصى الشعب

حسب قوانين الملك سرفيوس طلس ، وجهّز جنوداً قسمها إلى ثلاث فرق ، وخرج لقتال اللاتينيين فاستظهر عليهم فى الوقعات القليلة التى حدثت ثم هادنهم وانكف راجعاً إلى رومية واستعفى من منصبهِ قبل انقضاء الأجل المسمى .

وأغرى طاركوينس اللاتينيين سنة (٤٩٥ ق . م) بقتال الرومانيين أيضاً ، فنهضوا بعدد عديد من الأبطال والفرسان ، وأغاروا على أرض الجمهورية ، فزحف الدكتاتور بوستيموس لمحاربتهم وعسكر على رابية بالقرب من بحيرة رَجلس وأقام القنصل فرجينوس على رابية أخرى تجاههُ وأتى اللاتينيون وعسكروا بين الرابيتين ، وأمر بوستيموس قائد الفرسان أن يذهب فى الليل سرّا ويتحصن على رابية ثالثة واقعة فى الجهة التى يرد منها المدد إلى الأعداء ، ثم هجم الرومانيون على جيوش اللاتينيين فابتدر هؤلاء إليهم بعزم ثابت وأمل وطيد بالظفر لكونهم أكثر عدداً منهم ، أما الرومانيون فلم يبالوا بالأهوال ولم ترعهم كثرة الأعداء ، بل انقضوا عليهم انقضاض الصواعق واقتحموا صفوفهم كالضراغم ، فنهبوا مهج الرجال وجندلوا الفرسان والأبطال وانجلت تلك المعمعة عن قتل ابنى طاركوينس وإرداء كثير من قواد الفريقين ، وأبصر اللاتينيون من سيوف خصومهم الموت الزؤام فأركنوا إلى الهزيمة ناجين بأنفسهم ، ودعيت هذه الحرب حرب «رَجلس» نسبة إلى البحيرة المذكورة آنفاً ، وهى شهيرة بالتاريخ لأنها أضعفت اللاتينيين وقوضت صرح مجدهم ، فذلوا وخضعوا لرومية وطردوا طاركوينس من بلادهم ، فذهب هذا الملك وسكن بكومى ومات فيها .

ودخل الدكتاتور إلى المدينة ببهجة عظيمة محتفلاً بنصرته ، وأجرى ألعاباً عمومية وبنى هيكلاً لكستور وبوليكس بطلىْ ترِوادة ، لأنهماَ نظرا على ما قيل راكبين فرسين أبيضين وخائضين عجاج الحرب لإعانة الرومانيين ، وقد روى أحد المؤرخين أن بوستيموس وأرفاقهُ نظروا فى المعمعة فارسين عظيمين كأنهما من الجبابرة يتقدمان فرقة الفرسان ، ويلقيان الرعب فى قلوب الأعداء ، وفى المساء بعد ما انهزم اللاتينيون ظهر ذانك الفارسان فى رومية وبشرا الشعب بانتصار الرومانيين وتواريا عن الأبصار ، فتأكد القوم أنهما كستور وبوليكس اللذان حضرا لنصرتهم .

* * *

الفصل الثالث

وظن الشرفاءُ أنهم أَمنوا بموت طاركوينس حدثان الدهر ، وأصبحوا فى غنى عن الشعب ، لذلك عادوا إلى جورهم القديم فى معاملة المديونين ناسين شرائع الإنسانية والعدل الآمرة بالمعروف والإحسان ، فملّ العوام من الظلم والعذاب وباتوا فى قلق عظيم ، وبينما كانوا ملتئمين فى محل الاجتماع أقبل عليهم رجلٌ مكبلٌ بالسلاسل ورمى بنفسه بينهم مستجيراً ، وكان هذا الرجل طويل القامة مهزولاً وثيابهُ كانت وسخة بالية وشعرهُ أشعث وطويلاً ، فعرفه الحاضرون لأنهم رأوهُ مراراً عديدة يخوض عجاج الحرب كالأسد الرئبال غير مبالٍ بالصوارم والموت الزؤام ، إلا أنهم جهلوا أمرهُ وعجبوا من استحالة حالهِ فقالَ لهم ذلك الشيخ : يا قوم ، إننى قد فقدت حريتى وكل ما أمكله فى سبيل الدفاع عن حرية الوطن ، وقد وقعت الآن فى يد دائنى القاسى الذى لا تأخذهُ شفقة علىَّ ، بل قد أودعنى وابنىَّ السجن وأسلمنى إلى عبيده ليوسعونى ضرباً ، ثم خلع ثيابهُ ورأى الجمهور ظهرهُ دامياً من الجلد وصدرهُ مخدشاً بطعنات رماح الأعداءِ وضربات سيوفهم ، فلم يتمالك أحدٌ عن الغيظ بل علا الضجيج وزاد الحنق وتراكض الشعب من كل جهة وهو يشتم الشرفاء ويلعنهم كأن روح الثورة قد دبت فى جميع الصدور ، إلا أن القنصل سرفيوس قدر على إزالة هذه الفتنة وصرف المتجمعين واعداً إياهم بمنع الدائنين عن إهانة مديونيهم ومطالبتهم إلى أن يصدر المجلس أمراً بهذا الشأن .

ونظر أعداءُ الرومانيين كالفولسيين والصابنيين انقسامهم وثورة العوام ، فنهضوا مراراً لمحاربتهم ، غير أنهم كانوا يرتدون عنهم بالخيبة والفشل ، لأن الشرفاء كانوا عند اقتراب عدو أو دنو خطر منهم يتملقون الشعب ويعدونهُ وعوداً كاذبة ليحملوهُ على الحرب والدفاع حتى إذا ما انجلى الخطب وانقشعت سحب الأخطار وبدا جوُّ السياسة صافياً نكثوا عهودهم ونقضوا وعدهم وعادوا إلى ما كانوا عليهِ من إهانة مديونيهم وظلمهم .

أما الآن (سنة ٤٩٢ ق . م) وقد تفاقم الخطب وعظم المصاب وعرف العوام

دهاءَ العظماء ومكرهم ، فاجتمعوا خارج المدينة وجاهروا بالعصيان ، ثم ذهبوا إلى رابية دعوها فيما بعد « الجبل المقدس » ، وهى على بعد ثلاثة أميال من رومية ، وأقاموا عليها مدة ينتظرون فرجاً من الضيق وخلاصاً من العذاب .

ورأى المجلس ما كان فجزع جداً وخشى وقوع الحروب الأهلية وحدوث ما ينجم عن هذه الحروب من المضار ، فأنفذ فى الحال عشرة رسل ليرضوا القوم المتظلمين ويرجعوهم إلى المدينة ، ولما وصل الرسل نهض أحدهم وهو منينيوس وأخبر الحاضرين أن المجلس قد قرَّر الصفح عن ذنوبهم وإعفاء المديونين المفلسين من ديونهم وإطلاق سبيل من كان منهم مسجوناً وأنهُ سيخابرهم فى وضع قانون جديد بشأن القرض والاستقراض ، وحرضهم جميعاً على الخضوع للمجلس والسير بموجب أحكامه مظهراً ضرورة ذلك بتشبيهه المجلس بالمعدة التى تغذّى الجسد من القوت الذى تأخذهُ هى لنفسها مقدمة لكل عضوٍ منهُ الغذاءَ الذى يلائمهُ ، ومستنتجاً أن بقاءَ الجسد ونموّهُ متوقفان على حيوة المعدة ، ثم قال لهم : إلى مَن تتهمون الآباء أيها الرومانيون بأنهم قد طردوكم من وطنكم وكيف يخامر قلبكم هذا الفكر وهم يجهدون دائماً فى منفعتكم ويسألونكم الآن الرجوع إلى المدينة ليلاقوكم فيها بالترحاب والإكرام .

فَسُرَّ الجمهور الحاضر من كلامه إلا أنهُ لم يرجع إلى المدينة قبل أن يسمح لهُ بإقامة وكيلين عن الشعب ينتخبان منهُ فى كل سنة ، ويكون لهما الحق فى حماية المظلوم ونقض أحكام المجلس متى رأياها غير عادلة ، فانقسمت الأمة الرومانية إلى حزبين متباينين : **أحدهما** : حزب العوام المنقاد لآراء وسياسة وكيليه ، **والآخر** : حزب الشرفاء التابع للمجلس والقنصلين .

وجمع القنصل كومينيوس عساكر سنة (٤٩٢) ، وزحف لمحاربة الفولسيين فكسرهم فى واقعتين ، واستولى على مدينتين من مدائنهم ، ثم تقدم لمحاصرة كوريولى عاصمة بلادهم ، فالتقاه الكوريوليون ومنعوا جنودهُ عن تسور الأسوار وكادوا يفتكون به فتكاً ذريعاً لولا الفتى الشريف كايوس مارسيوس الذى بادر إليهم كالغضنفر وأذاقهم بطعناته المتتابعة وهجمات أعوانه حرباً لا تبقى ولا تذر ، فارتدوا إلى الوراء خاسئين ، وملك الرومانيون مدينتهم وضربوا عليهم الذلة ، وفى الغد جلس القنصل على سريره ودعا مرسيوس أمام الجند وأثنى على أعماله

ثناء جميلاً ، ثم كلله بإكليل الانتصار وأعطاه عُشر الأسلاب وجواداً مطهماً ، وأذن لهُ أن يختار من الأسراء عشرة عبيد فأبى هذا البطل الصنديد قبول ما قدم لهُ، ولم يأخذ سوى الحصان وعبد واحد أعتقهُ فى الحال لأنهُ كان صديقهُ ، ولقب مارسيوس فى ذلك الحين بكوريولانس نسبة إلى مدينة كوريولى التى استولى عليها بشجاعته وتدبيره ، وكان هذا الفتى جافى الخلق عنيداً لا يثنيه عما يروم خطرٌ أو وعيد ، وكان إذا خطر فى باله أمرٌ يسعى لإدراكه بهمة ونشاط مستسهلاً الصعب وباذلاً إذا اقتضت الحال النفس والنفيس ، فأغضب العوام بأخلاقه هذه وحملهم على كرهه لأنهُ فى المجاعة التى حدثت سنة (٤٩١ ق . م) حازب الشرفاءَ مانعاً الفقراء أن يأخذوا مجاناً الحنطة المجلوبة من الخارج لإعالتهم وراغباً فى إحباط أعمال وكيلى الشعب وإبطال سلطتهما لتتسنى للشرفا السيادة المطلقة ، فهاج العوام هيجاناً عظيماً وطردوهُ من المدينة ، فخرج منها سنة (٤٩٠ ق . م) حاقداً غضوباً ومصمماً على الانتقام ، وبعد أن مكث مدة فى أراضيه ذهب إلى أنتيوم سنة (٤٨٨ ق . م) وهى مدينة كبيرة فى بلاد الفولسيين ، ودخل منزل أتيوس طلس قائد جيوشهم وجلس بالقرب من مذبح الآلهة ، فلم يعرفهُ أحدٌ لأنهُ كان مبرقعاً ، ولما أتى طلس صاحب المنزل وخاطبهُ مستخبراً عن أمره زاح اللثام وأجابه بهذه الكلمات :

أنا كايوس مارسيوس الملقب بكوريولانس قد طردت من رومية ، لأن الشعب كرهنى ظلماً والشرفاء لم يستطيعوا حمايتى لسبب جبنهم العظيم ، فإليك قد لجئت الآن طالباً نصرتك للانتقام من أعدائى وأعدائكم وأسألك إذا كانت الحكومة لا ترضى عنى ولا تقبلنى خادماً لها أن تسلب بيدك حياة عدوّك القديم القادر على إضرار بلادك إذا لم تأخذ بناصره أو تعمد إلى إزدائه ، فعجب طلس من بسالته، وقال لهُ : لا تخف يا مرسيوس ، قد أمنت إلينا ففزت منا بالأمان ، وإنا لنقدرك حق قدرك ، ونعد وجودك بيننا نعمة كبرى ، وسننتفع بخدماتك لأن قائداً مثلك شهيراً يحق لهُ كل إكرام ، ثم خلا معهُ للبحث عن الوسائل اللازمة لتجديد الحرب مع الرومانيين .

وكان الرومانيون يستعدون وقتئذ لإجراء ألعاب عمومية عقيب إهداء هيكل لجوبيتر ، فهرع إلى رومية للتفرجً على تلك الألعاب جموع كيرة من الأمم

المجاورة ، لا سيما من الفولسيين الذين انتشروا فى جميع أحياء المدينة وضواحيها وكان عدد المتفرجين وافراً جداً حتى أن القنصلين خشيا من حدوث حادث يعبث براحة الأهلين ، فاغتنم طلس وكوريولانس هذه الفرصة وأذاعا أن الفولسيين عازمون على حرق المدينة ، فصدق الرومانيون هذا الخبر وأصدر المجلس أمراً يحظر عليهم البقاء فى رومية ويأمرهم بالرحيل حالاً ، فانصرفوا جميعاً إلى مدنهم صاغرين ، ولما علم طلس بذلك قال لهم : أتصبرون يا قوم على هذه الإهانة ولا تشكون وتنظرون إلى صلف الرومانيين وأفعالهم المنكرة ولا تغضبون ، فلقد نقضوا العهود ونكثوا الوعود وجاهروا بالعدوان غير مبالين ، ولعمرى أنهم سيشنون الغارة علينا ويغزون أرضنا ويتركون ديارنا أطلالاً بالية ينعق فيها البوم والرخم ، فابتدروا إذاً سلاحكم أيها الأبطال واتكلوا على كوريولانس الفارس المغوار الذى شهدتم وقعاته واختبرتم بسالتهُ ، لأنهُ قد لجئ إلينا الآن لننتصر لهُ من أمتهِ التى لم تقدرهُ حق قدره ، ولم تراعِ مقامهُ ، ثم دعا كوريولانس فتقدم هذا أمام الحضور وحدثهم بحديثهِ وأعرب لهم عن رغبتهِ فى أخذ الثأر وحثهم على القتال بعبارات حماسية وحجج قوية إلى أن ثارت الحمية بالجميع وسرت فيهم روح الانتقام وغوّلوا على الحرب ، إلا أنهم أرسلوا بادئَ بدء رسلاً إلى رومية يسألون مجلسها ردَّ الأراضى التى أخذها الرومانيون فى غاراتهم السابقة على الفولسيين وبمعاهداتهم الإجبارية معهم لئلا ينشب القتال ويكونوا هم المسؤولين بهِ لأنهم رفضوا الصلح والتسوية حسبما يأمر العدل والإنصاف ، فأجابهم القنصل بكلام وجيز قائلاً : إن الخوف لا يحمل الرومانيين على تسليم ما ملكوهُ بقوتهم وبطشهم ، وأنهُ إذا كان الفولسيون يبتدرون السلاح أولاً ، فالرومانيون لا يسبقونهم أبداً إلى تركهِ ، ولما رجعت الرسل حمل طلس على اللاتينيين ليمنعهم من إمداد الرومانيين ، وأغار كوريولانس على أراضى رومية فأسر من رجالها عدداً عديداً ، لأنهم كانوا متفرقين فى الحقول غير مستعدين للقتال ، واستاق غنماً وبقراً وأخذ حنطة وافرة وانكفأ للقاء طلس ظافراً غانماً ، وأبصر الفولسيون انتصارهُ فأقبلوا على التجند آملين الكسب والنصر تحت لواءِ قائد شهير شجاع ، وعاد كوريولانس إلى ساحة الضرب والطعان ، واستولى على عدة مدن رومانية ولاتينية ، ثم زحف إلى رومية وحاصرها ، ولما نظر الشعب تقدمهُ وكثرة نصراتهِ ورأى جيوشهُ فى تلك البطاح تتموج كالبحر الزاخر رعب وخارت قواه وأقبل إلى

الفورم يستجير برؤسائه ويطلب إليهم بإلحاح أن يبطلوا أمر نفى كوريولانس ويسألوهُ كف العدوان ، فائتمر المجلس ملياً وأرسل إليه رسلاً يستعطفونهُ ويعرضون لهُ رغبة الرومانيين فى السلام وندمهم على ما جرى ، فردهم كوريولانس خائبين ، لأنهُ طلب لإبرام الصلح شروطاً قاسية لا يمكن الشعب الرومانى قبولها ، فأرسل إليه المجلس رسلاً آخرين من أصدقائه وأقربائه فلم يحفل بهم ولم يصغ إليهم ، بل صرفهم بالخيبة والفشل كالأولين ، فضاق الجميع ذرعاً وبعثوا إليه بالكهنة لابسين الملابس الاحتفالية ليسترضوهُ ويحملوهُ على تلطيف الشروط ، فلم يستطع هؤلاء أيضاً تغيير شىء مما صمم عليه ولم يكن حظهم منهُ بأسعد من حظ السابقين حينئذ قامت فانوريا أمهُ وفولومينيا امرأتهُ ، وأخذتا ابنيه وخرجتا من المدينة مع عدة نساء شريفات وتوجهن جميعاً إلى معسكر الفولسيين ، وحينما أبصر كوريولانس أمهُ وامرأتهُ باكيتين تسألانه السلام وصيانة بلاده من الخراب بعبارات تفتت الأكباد حن وبكى وقال لأمه : يا أماه ، قد غلبتنى وأنسيتينى بكلامك إساءة وطنى إلىَّ ، وقد خلصت رومية بفعلك هذا إلا أنك أهلكت ابنك ، وفى الغد جمع جنوده ورحل بهم إلى أرض الفولسيين حيث مات قتلاً كمجرم خائن ، لأنهُ ارتدَّ عن رومية بعد ما كاد يستولى عليها ، وقال ليفيوس : إن الفولسيين لم يقتلوهُ ، بل عاش بهم زمناً طويلاً بالحزن والكدر لأنهُ أضاع حياتهُ بلا فائدة ، أو لأنهُ بذل جهدهُ فى إذلال أمته مع أنهُ كان قادراً على نفعها أكثر من غيره .

* * *

الفصل الرابع

ومرت على رومية بعد حرب كوريولانس مدة ثلاثين سنة لم يسمع فيها سوى صليل السلاح وصهيل الجياد فى قتال الأمم المجاورة ، لا سيما الفولسيين والأكويين وألفين والصابنيين ، ولم يرَ فى أثنائها أيام مهادنة هؤلاء الأعداء سوى اضطراب داخلى ناشئ عن نزاع وكلاء الشعب الدائم للشرفاء وطمعهم فى توسيع نطاق سلطتهم وتخفيض سيادة العظماء وثروتهم ، وكانوا يتذرعون إلى نيل ما يبتغونهُ بوسائل تستميل الجمهور من ذلك القانون العقارى الذى اشتدت لأجله الخصومات بين الكبراءِ والعوام حتى أنهُ فى الحرب التى حدثت سنة (٤٧٠) قتل القنصل أبيوس كَلوديوس عُشر عساكره لأنهم رفضوا القتال وولوا منهزمين ، ومآل هذا القانون توزيع الأراضى المغتنمة بين الفقراء ، أما القانون الترنتيوسى ، فكان عادلاً جداً لأن مآلهُ منع الشرفاء الحاكمين عن النظر فى الدعاوى كما تقضى أميالهم وأهواؤُهم وإجبارهم على حسم المشاكل بموجب دستور يسنهُ رجال حكماء ينتخبهم الشعب لهذه الغاية .

وأغار الأكويون سنة (٤٥٧ ق . م) على أراضى أمة حليفة الرومانيين ، ونهبوا منها ما أمكنهم نهبهُ ، ثم ارتدوا وعسكروا على بعد اثنى عشر ميلاً من رومية ، فأرسل إليهم المجلس ثلاثة سفراء يشتكون من فعلهم ويرغبون إليهم ردَّ ما أخذوهُ ، وكان قائد هذه الجنود جالساً حينئذ تحت شجرة يستظل بها ، فلم يجب السفراءَ عما طلبوه ، بل قال لهم : سلواً هذه الشجرة ما أردتموهُ لأن لى شغلاً شاغلاً يمنعنى عن إجابتكم ، ولما رجعت السفراءُ إلى رومية ، وعلم المجلس ما حدث وجه أحد القنصلين لمحاربته ، وبعث القنصل الآخر ليغزو ويخرب بلاد الأكويين ، ونهض الصابنيون أيضَاً فى ذلك الحين لقتال رومية ، فالتقاهم القنصل نوتيوس وكسرهم ثم هجم على المدن الصابنية ونهبها ، أما القنصل منوسيوس فلم يستطع رد الأكويين الذين لما رأوا ضعفهُ بادروا إليهِ وحصروهُ فى معسكره آملين أن الجوع يكرههُ على التسليم وبلغ الخبر المجلس ، فعمد إلى إقامة رجلٍ شريف يدعى سنسنَّاس ديكتاتوراً ، وأرسل إليهِ رسلاً يخبرونهُ بذلك ، فلقىَ الرسل سنسنَّاتس يحرث أرضهُ بيده ، وكان العرقَ إذ ذاك مكللاً جبهته من عظم التعب ، وحينما علم هذا الشيخ النشيط ما طرأ على وطنه

واعتماد الجمهور عليه بدليل انتخابه لهذا المنصب الخطير أسرع إلى رومية ، وجهز من رجالها جيشاً كافياً ، وخرج منها فى الحال وأغار على الأعداء ، فنكل بهم وأسر من بقى منهم فى قيد الحياة ، وبعد أن جعلهم يمرّون تحت النير دلالة على العبودية خلى سبيلهم جميعاً ما خلا قائدهم ، وعشرة رجال بقاهم ليمشوا أمامه عند دخوله المدينة واحتفاله بنصرته ، ثم ارتدَّ إلى رومية ووجهها ظافراً غانماً ، واستعفى من منصبه الذى تقلدهُ ستة عشر يوماً فقط ، ورجع إلى بستانه ليحرثه ويعتنى به راضياً بفقره وعيشته الخشنة ومؤثراً حالته هذه على السلطة والراحة ، فإذا نظرنا إلى طباع الرومانيين واقتناعهم وتأملنا ثباتهم وصبرهم على الأهوال فى ساحات القتال وتألبهم لرفع شأن بلادهم لا نعجب من ارتقائهم معارج الفلاح وتسلطهم على ممالك العالم .

وفى السنة التالية تمكن العوام من زيادة عدد وكلائهم فجعلوهم عشرة ينتخبونهم كل عام ، كما كانوا ينتخبون الوكيلين إلا أنهُ لم يسمح لأحد أن يتقلد هذه الوظيفة سنتين على التوالى .

وفى سنة (٤٥١ ق . م) رضى المجلس بالقانون الترنتيوسى المشار إليه آنفاً ، وأرسل إلى بلاد اليونان سفراء ليدرسوا الشريعة اليونانية وينسخوا منها ما يرونهُ موافقاً للجمهورية الرومانية ، ولما رجع هؤلاء السفراء أقام الشعب باتفاق الآراء عشرة ولاة أودسمفير ليتولوا القضاءَ ويقوموا مقام القنصلين والوكلاء الذين أبطلت وظيفتهم فى هذا العام ، ويسنوا القوانين اللازمة للأمة ، فعدل الدمسفير بادئَ بدء ، ووضعوا شرائع عرفت بشرائع الاثنى عشر لوحاً ، لأنها كتبت على اثنى عشر لوحاً نحاسياً ، وهاك بيانها بالتفصيل لتلم ببعض عوائد وطباع هذا الشعب الشهير :

اللوح الأوَّل
في الدعاوى

المادة الأولى : إذا دعيت إلى دار القضاء فاذهب حالاً مع خصمك .

المادة الثانية : إذا أبى خصمك الحضور لدى القاضى فأقم شهوداً عليهِ ليمكنك إحضاره جبراً .

المادة الثالثة : إذا أراد خصمك الفرار منك يمكنك القبض عليهِ .

المادة الرابعة : إذا كان خصمك مريضاً أو شيخاً عاجزاً يلزم أن تحضرهُ فى مركبة ، وإن أبى الامتثال فلست مجبراً على تقديم مركبة .

المادة الخامسة : إذا قدم خصمك كفيلاً يلزمك إطلاقهُ .

المادة السادسة : إن كفيل الغنى يلزم أن يكون غنياً ، أما كفيل الفقير فمقبول مهما كان .

المادة السابعة : على القاضى أن يفصل الدعوى حسب اتفاق الخصوم .

المادة الثامنة : إذا لم يكن اتفاق بين الفريقين فعلى الحاكم أن يسمع الدعوى من طلوع الشمس إلى الظهر بحضور الخصمين .

المادة التاسعة : إن الحكم بالدعوى المشار إليها يكون بعد الظهر بحضور الخصمين .

المادة العاشرة : لا تحاكم ولا قضاء بعد غروب الشمس .

المادة الحادية عشرة : إذا اتفق الخصمان على إقامة حكم يفصل لهما الدعوى فليقدما كفيلين يكفلان حضورهما ، ومن يغب يغرّم بدفع مقدار من الدراهم يصير تعينهُ ما لم يمنعهُ عن الحضور مانع كمرض أو إيفاء نذرٍ أو أشغال عمومية فتؤَجل رؤية الدعوى إلى الغد .

المادة الثانية عشر : من لم يمكنهُ إحضار شهود يشهدون بصحة دعواه ، فليذهب إلى أمام منزل خصمهِ ويعلن ما يدَّعيهِ بصراخ وجلبة .

* * *

اللوح الثانى
فى السرقات

المادة الأولى : من يقتل لصاً يدهمهُ ليلاً لا يعاقب على قتلهِ .

المادة الثانية : إذا قبض على لص وهو يسرق فى النهار يجلد ويمسى عبد الرجل الذى نوى استلاب أمتعتهِ ، وإذا كان هذا اللص عبداً يجلد ويطرح على رأسهِ من

قمة الكابيتولينس ، أما إذا كان ولداً قاصراً فيعاقب حسبما يرتئى الحاكم ، ويعوض الرجل المسروق مما فقدهُ .

المادة الثالثة : من يقتل لصاً قد أشهر سلاحاً لا يعاقب على قتله .

المادة الرابعة : إذا فتش منزل ووجد فيهِ أمتعة مسلوبة يقاص صاحبهُ حالاً كلص ارتكب السرقة علناً .

المادة الخامسة : من يسرق خفية يدفع ثمن ما يسرقهُ مضاعفاً .

المادة السادسة : من يعتدِ على غيره ويقطع أشجاره يدفع ٢٥ قصاً تحاشياً عن كل شجرة يقطعها .

المادة السابعة : من يأتِ بستان غيرهِ خفيةً ويدوس زرعهُ أو يحصدهُ يشنق فى ذلك المكان ويكون قتلهُ بمثابة ذبيحة تقدم لسيرس آلهة الزراعة ، ولكن إذا كان الجانى ولداً قاصراً يقاص بما يرتئيه الحاكم مناسباً ، ويغرم بدفع ثمن ما أتلفهُ مضاعفاً .

المادة الثامنة : إذا عفا الرجل المسروق منهُ شيءٌ عن السارق أو توافقا يعاف اللص من كل عقاب .

المادة التاسعة : لا يعتبر الزمان على الإطلاق حقاً لملك الأمتعة المسلوبة ، ولا يحق لغريب أن يملك مال رومانى وطنى لسبب طول مدة استيلائهِ عليهِ .

المادة العاشرة : إذا خان المؤتمن وتصرّف بالأمانة يدفع قيمتها مضاعفة .

المادة الحادية عشرة : من وجد ماله عند رجل قد استولى عليهِ بخيانة فليشكُ أمرهُ إلى القاضى الذى يقيم حكماً لتحقيق الدعوى ويغرم المالك غير الشرعى بدفع ضعف قيمة ما أتلفهُ من ذلك المال .

المادة الثانية عشرة : إذا سرق عبد بأمر مولاه شيئاً خفية أو أتلفهُ يسلم العبد إلى الرجل المسروق منهُ كتعويض مما خسرهُ .

* * *

اللوح الثالث

فى القرض والاستقراض وحقوق الدائن على المديون

المادة الأولى : من يأخذ ربا أكثر من واحد بالمائة يغرم بدفع قيمة ما أقرضهُ أربع مرار .

المادة الثانية : من يقرُّ بدين أو يحكم عليهِ به يمهل ثلاثين يوماً ليوفيهُ ، وإذا لم يستطع بعد ذلك إيفاءَهُ يحضر لدى القاضى .

المادة الثالثة : إذا لم يوف المديون دينهُ ولم يجد كفيلاً يمكن الدائن أن يجئَ بهِ إلى منزلهِ ويقيدهُ بسلسلة حديدية لا يزيد وزنها عن الخمسة عشر رطلاً أوروبياً .

المادة الرابعة : إذا أبى المديون المقبوض عليهِ أو لم يقدر أن ينفق من مالهِ يقدم له الدائن طعامهُ .

المادة الخامسة : يسجن الدائن المديون ستين يوماً ، ثم يعرضهُ فى السوق ثلاثة أيام معلناً قيمة دينهِ .

المادة السادسة : إذا كان رجل مديوناً لكثيرين يقطع جسدهُ فى اليوم الثالث من عرضهِ بالسوق قطعاً يقتسمها الدائنون أو يباع للغرباء الساكنين وراء نهر التيبر .

* * *

اللوح الرابع

فى حقوق الآباء على البنين

المادة الأولى : للأب حق أن يربى أو يقتل أو يبيع بنيهِ الشرعيين متى أراد .

المادة الثانية : لا سلطة للأب على ولدهِ إذا باعهُ ثلاث مرار .

المادة الثالثة : إذا ولد للرجل ولد أشوه فليقتلهُ حالاً .

المادة الرابعة : على الولد أن يعيل أباهُ متى افتقر واحتاج ، وإذا كان الأب قد أهمل تربيتهُ ولم يعلمهُ مهنة فلا يجبر على إعالتهِ .

المادة الخامسة : ابن الزنى غير مجبر أن يشتغل لإعالة أبيهِ .

* * *

اللوح الخامس
فى الميراث وما يتعلق به

المادة الأولى : إذا مات رجلٌ عن أولاد توزع تركتهُ بينهم ، وإذا كان أولاده قاصرين يوكل أمرهم إلى الوصى الذى عينهُ .

المادة الثانية : إذا مات رجلٌ ولم يكن لهُ عقب ولم يوصِ بمالهِ لأحد يرثه أقرب أنسبائهِ .

المادة الثالثة : إذا مات عبد معتق ولم يكن لهُ أولاد يرثهُ مولاهُ أو بنوهُ .

المادة الرابعة : إذا مات مديون يوفى دينهُ من التركة وما يبقى بعد ذلك يوزع بين الوارثين .

المادة الخامسة : إذا مات رجلٌ عن ولد قاصر ولم يعين لهُ وصياً يتولى أمره أقرب أنسبائهِ .

المادة السادسة : إذا جنَّ رجلٌ أو أصبح مسرفاً يتولى إدارة أعمالهِ أحد أقربائهِ أو رجل من عائلتهِ إذا لم يكن لهُ أقرباء .

* * *

اللوح السادس
فى البيع والشراء

المادة الأولى : يلزم أن يكون البيع صريحاً .

المادة الثانية : إذا حرر عبد بشرط أن يدفع مقداراً من النقود ثم بيع بعد ذلك يعتق متى نقد مولاه الدراهم المفروضة .

المادة الثالثة : لا يحق لأحد أن يملك سلعة لم يدفع ثمنها .

المادة الرابعة : إن مرور الزمان فى العقارات عامان وفى الأمتعة المنقولة عام واحدٌ .

المادة الخامسة : يرجح فى الدعاوى حق المالك، وفى الخصومات على الحرية، والاستعباد حق طالب الحرية .

*

اللوح السابع
فى الجنايات والأضرار

المادة الأولى : إذا أتلفت بهيمة شيئاً فى بستان أحد يأخذ صاحب البستان تعويضاً أو البهيمة .

المادة الثانية : إذا كان لك عمود ووجدتهُ فى بيت أو كرم رجل آخر ، فلا تنقض ذلك البيت أو تخرب الكرمة ، ولكن خذ ضعف قيمة الشىء المسلوب .

المادة الثالثة : من يحرق بيت غيره أو يشعل قمحهُ فليسجن ويجلد ويحرق ، ولكن إذا كان ما أتاه عن غير عمدٍ فليُعطِ تعويضاً ، وإذا كان فقيراً يؤدب .

المادة الرابعة : يعاقب الجانى بمثل ما جنت يداه ، وإذا رضى المضرور تعويضاً يعفى عنه .

المادة الخامسة : من ضرب معتقاً ففك لهُ عظمة من جسده يعطهِ ثلثمائة رطل نحاساً ولعبد مائة وخمسين .

المادة السادسة : من يلطم رجلاً أو يشتمهُ ينقدهُ خمسة وعشرين قصاً نحاسياً .

المادة السابعة: من يذم رجلاً بكلام مهين أو أبيات تفضحهُ وتعطل صيتهُ يجلد.

المادة الثامنة : من شهد مرة فى دعوى ثم رفض الشهادة يرذل ولا تقوم شهادتهُ فيما بعد .

المادة التاسعة : من شهد بالزور يطرح على رأسهِ من قمة الكابيتولينوس .

المادة العاشرة : من قتل معتقاً أو سحرهُ أو سمهُ يعدم كقاتل .

المادة الحادية عشرة : من يقتل أباً أو أماً يوضع في كيس جلد ويطرح فى النهر.

المادة الثانية عشرة : إذا أهمل الوصى أشغال القاصر ينبَّه على إهمالهِ ، وإذا اختلس منهُ شيئاً يرد عليهِ قيمة ما أخذه مضاعفة .

المادة الثالثة عشرة : إذا غش الولىّ تابعهُ يعد محتقراً مرذولاً .

* * *

اللوح الثامن
فى الأملاك خارج المدينة

المادة الأولى : يترك بين المنازل مجال عرضهُ قدمان ونصف .

المادة الثانية : يمكن المتعاقدين أن يجروا ما يتفقون عليهِ بشرط ألا يخالفوا الشرائع العمومية .

المادة الثالثة : إذا اختلف جاران على حدود أرضهما يقيم القاضى حكماً للنظر فى ذلك .

المادة الرابعة : إذا كانت شجرة تؤذى بظلها بستاناً آخر تقطع أغصانها على علو خمس عشرة قدماً .

المادة الخامسة : إذا سقطت أثمار شجرة فى البستان المجاور فلصاحبها الحق أن يجمع تلك الأثمار .

المادة السادسة : إذا عمل رجل قناة فى بستان لصرف مياه المطر منهُ إلى الحقل المجاور يقيم القاضى حكماً لتقدير الضرر ومنعهِ .

المادة السابعة : إذا كانت الطريق مستقيمة يكون عرضها ثمانى أقدام وإلا فست عشرة قدماً .

المادة الثامنة : إذا كانت الطريق الواقعة بين حقلين ردية يمكن المسافر أن يمر فى الحقل الذى يختارهُ .

* * *

اللوح التاسع
فى حقوق العوام

المادة الأولى : الجميع فى الحقوق سواء .

المادة الثانية : المديون الذى استعبد وأعتق والغرباء الذين عصوا وثابوا إلى الطاعة يمنحون حقوقهم القديمة .

المادة الثالثة : القاضى الذى يأخذ الرشوة يعد مجرماً .

المادة الرابعة : الدعاوى المقامة على رجل رومانى وطنى بشأن حياتهِ وحريتهِ وحقوقهِ تعرض فى محل الاجتماع .

المادة الخامسة : يقيم الشعب مفتشين ليفحصوا الدعاوى المهمة .

المادة السادسة : الذين يلتئمون ليلاً فى المدينة لأجل إلقاء الفتن يقتلون .

المادة السابعة : كل من يحرّض غريباً على محاربة رومية أو يسلم رجلاً وطنياً إلى غريب يقتل .

المادة الثامنة : القوانين التى يضعها الشعب بشأن أمر ما تبطل القوانين الموضوعة لذلك قبلاً .

* * *

اللوح العاشر
فى الجنازات والمآتم

المادة الأولى : لا يدفن ميت ولا يحرق داخل المدينة .

المادة الثانية : لا يجوز الإسراف فى تجهيز الميت ولا الصراخ والبكاء الشديد عليهِ .

المادة الثالثة : الخشب الذى يحرق بهِ الميت لا يقطع بمنشار ولا يصقل .

المادة الرابعة : لا يلبس الميت أكثر من ثلاثة أثواب موشية بالأرجوان ، ولا يستخدم للاحتفال بجنازتهِ أكثر من عشرة مزمرين .

المادة الخامسة : لا يجوز للنساء أن يلطمن وجوههنّ أو يشوهن أجسادهنّ أو يصرخن صراخاً قبيحاً .

المادة السادسة : لا يجوز أخذ قطعة من جثة الميت للاحتفال بجنازتهِ مرّةً أخرى إلا إذا مات فى الحرب أو غريباً .

المادة السابعة : لا يجوز تحنيط العبيد ولا معاطاة المسكرات فى المآتم ، ولا تطييب جثث الموتى .

المادة الثامنة : لا يجوز إحضار أكاليل وقوارير طيب إلى المآتم .

المادة التاسعة : إذا استحق الميت إكليلاً فى الألعاب العمومية لمهارتهِ أو لمهارة

عبيدهِ أو سرعة خيله فليؤبَّن وليستأذن أقرباؤهُ فى تكليلهِ مدة الأيام السبعة التى يبقى بها فى البيت وحينما يدفن .

المادة العاشرة : لا يحتفل للميت إلا بجنازة واحدة ولا يوسد إلا على فراش واحد .

المادة الحادية عشرة : لا يجوز استعمال الذهب فى الجنازة إلا إذا ربط حنك الميت بخيط ذهبى فتدفن الجثة مع الخيط .

المادة الثانية عشرة : يدفن الميت أو يحرق فى مكان يبعد عن المنازل ستين قدماً على الأقل إلا إذا رضى صاحب المنزل بمخالفة ذلك فيجوز .

المادة الثالثة عشرة : لا يعتبر مرور الزمان حقاً لملك المدافن .

* * *

اللوح الحادى عشر
فى عبادة الآلهة

المادة الأولى : على المرءِ أن يأتى الاجتماعات الدينية بطهارة وورع ، وإذا لم يفعل ذلك فلتنتقم منهُ الآلهة .

المادة الثانية : لا يجوز لأحد أن يعبد سراً آلهة جديدة وغريبة ما لم يأذن بذلك أولوا الأمر .

المادة الثالثة : يتمتع كل بالهياكل التى شادها أجدادهُ والكهوف المقدسة التى فى حقولهِ والمساجد التى تجتمع فيها أرواح أسلافهِ ، وليجر كل واحد الاحتفالات الدينية التى اعتادها .

المادة الرابعة : أكرم آلهة السماء والذين ارتقوا بفضيلتهم إلى مصاف الآلهة نظير أركيلس وباكخس وروملس . . . إلخ .

المادة الخامسة : اعتبر الصفات الحسنة التى ارتقت بها الأبطال إلى السماء آلهة نحو الفهم والفضيلة والتقوى والأمانة ، وابنِ لها هياكل ولكن إياك وعبادة القبائح

المادة السادسة : راعِ الاحتفالات المأمور بها .

المادة السابعة : لا تسمع الدعاوى فى أيام الأعياد ، يلزم العبيد أن يحتفلوا بالأعياد بعد إنجاز أشغالهم .

المادة الثامنة : يقدم الكهنة للآلهة فى أيام معلومة قرابين من أثمار الأرض ، وفى أيام أخرى عسلاً وأولاداً ، أما ذبيحة الأولاد فتقدم فى آخر السنة وتختار حسبما يأمر الإله وتقسم الكهنة إلى أقسام مختلفة، وتكون خاضعة لأحبار عظام.

المادة التاسعة : لا يؤذن للنساء أن يحضرن الذبائح المقدمة ليلاً ، ولا أن يعلمن الأسرار المأخوذة عن اليونانيين ، ولكن يمكنهنّ حضور ذبائح الشعب العادية وتعلم أسرار الآلهة سيرس .

المادة العاشرة : من سرق شيئاً للآلهة يقتل .

المادة الحادية عشرة : من يحنث فى يمينه فلتمته الآلهة ولترذله الناس .

المادة الثانية عشرة : من يزن بقريبة لا يحل له زواجها يقتل .

المادة الثالثة عشرة : يلزم إيفاء النذور غير أن الأشرار محظور عليهم تقديم قرابين للآلهة .

المادة الرابعة عشرة : لا تقف حقلك واقتصد فيما تقدمه قرباناً ، ومن يقف شيئاً لغيره يغرم بدفع ضعف القيمة .

المادة الخامسة عشرة : احفظ دائماً أعيادك العائلية .

المادة السادسة عشرة : من أخطأ فليكفر عن خطاياه ومن لا يفعل ذلك يعد كافراً .

* * *

اللوح الثانى عشر
فى الزواج وحقوق الرجل

المادة الأولى : إذا سكنت امرأة مع رجل عاماً كاملاً ولم تغب ثلث ليال تعدّ زوجته .

المادة الثانية : إذا زنت امرأة أو سكرت يمكن رجلها أن يقتلها إن رضى بذلك أهلها .

المادة الثالثة : إذا طلق رجل امرأتهُ فليأخذ منها مفاتيح منزلهِ وليعطها أمتعتها ، وما أحضرتهُ عند عقد النكاح .

المادة الرابعة : الولد الذى تلدهُ الثيب بعد موت زوجها بعشرة أشهر يعد شرعياً .

المادة الخامسة : لا يجوز للشرفاء أن يتزوجوا من العوام .

انتهت .

* * *

قال سيسرون الخطيب الرومانى الشهير : إن قوانين الاثنى عشر لوحاً تفضل على جميع كتب الفلاسفة ، وبالحقيقة إذا تبصرنا فيها معتبرين الزمان الذى وضعت به نجدها مشكاة هدى قد سطعت فى ليل ذلك العصر الدامس كيف لا وهى الآمرة بالعدل والتساوى والمعاقبة الشريف القابض على عنان الأحكام متى اقترف ذنباً كما تعاقب أحقر العوام ، إذ لا فرق بينهما فى الحقوق ولا امتياز لأحد مهما علا مقامهُ ، إلا أنها كانت تجيز للدائن القاسى وللأب الوحشى أن يعامل الأول مديونه ، والثانى ولدهُ معاملة بربرية تنفر منها الطباع ويأباها الذوق السليم ، وقد أضيف إليها على مرّ الزمان قوانين أخرى كثيرة حتى أنهُ فى عهد الإمبراطور جوستنيان بلغ الدستور ألفى مجلد ، فأمر هذا الملك أن تحصر الشريعة فى أسفار قليلة ليمكن تداولها وإدراكها ، فتم لهُ ما أرادهُ وجمعت الشرائع الجديدة فى أربعة مجلدات باقية إلى الآن ، وهى المعروفة بالقانون الرومانى المدنى الذى يحسب أساس دستور الممالك المتمدنة .

ورأى الرومانيون من الدسمفير لا سيما من زعيمهم أبيوس كلوديوس ظلم وفواحش الطاركوينيين لأنهم بعد أن عدلوا ليغشوا الشعب ويحملوهُ على انتخابهم مرة أخرى أخذوا يرتكبون المنكرات ويحللون المحرمات ، وكان لكل منهم شرط يسعون فى إجراءِ ما يرومونهُ ، فملَّ العوام منهم وسئموا الحياة لأفعالهم الوحشية ، ولم يكن أحد إذ ذاك يأمن على عرضهِ ولا مالهِ لأن كل شىء كان مباحاً لأولئك العتاة ولتابعيهم الفجار ، فكأنهم قد سنوا الشرائع ليخالفوها وأعلنوا العدل ليجوروا علناً ويظهروا قبح سيرتهم ، ولما انقضت السنة

الثانية أبوا الاستقالة من مناصبهم ، وبقوا قابضين على زمام الأحكام بلا انتخاب قانونى على رغم الجميع .

ونظر أبيوس أحد الولاة العشرة ذات يوم ابنة عامية بديعة الحسن والجمال اسمها فرجينيا ، فشغف بها وتيمه هواها ، وكانت فرجينيا تقية فاضلة تحب العفة والكمال ، لذلك لم يستطع أبيوس إغراءَها بتملقه ولم يمكنهُ صيدها بشرك وعوده بل ذهب اجتهاده فى استمالتها واستمالة مربيتها أدراج الرياح ، فعمد حينئذ إلى الحيل والخداع ، وأمر تابعهُ أن يقبض عليها بأية وسيلة يستحسنها ويراها موافقة لنيل مناه ، وكان تابعهُ هذا أروغ من ثعلب وأحيل من ضبّ مشهوراً بمكره وخبثه، فبينما كانت فرجينيا راجعةً يوماً إلى منزلها قبض عليها التابع المذكور وكاد يبلغ مَآربهُ ويبلغ وليّهُ منها مشتهاه لو لم يعترضهُ الجمهور الذى أبصر دموع الابنة ونواحها ، فأشفق منها وسألهُ عرض دعواهُ للقاضى ليحكم لهُ أو عليهِ ، فرفع التابع شكواه إلى أبيوس مدعياً أن الابنة أَمَة قد ولدت فى بيته وقد سرقت وهى طفلة ، وبيعت لامرأة فرجينيوس الذى يظنهُ الناس أباها ، وأَنهُ مستعد أن يقدم شهوداً يشهدون بصحة مقاله ، وبناءً على ذلك طلب تسليم الابنة إليهِ لأنهُ مولاها قائلاً : إنهُ يحضرها متى أتىَ فرجينيوس وأثبت كونه أَباها الشرعى .

وسمع أسيليوس خطيب فرجينيا ما حدث ، فبادر إلى الفور عدواً وتخلل الجمهور حتى وصل إلى فرجينيا فضمها إليهِ وصرخ قائلاً : يا أبيوس ، لا شيء يفصلنى عن حبيبتى سوى الموت فاقتلنى إن شئت ، ستر خداعك ومكرك ، واعلم أنى مستعد أن أدافع عنها إلى أن أشرب كأس حتفى لعلك توليت الأحكام وأبطلت وظيفة وكلاء الشعب ليخلو لك الجو وتهتك عرض النساء وتفض بكارة العذارى ، ألم يكفك ما فعلت وما تفعل من المظالم حتى عمدت إلى تدنيس الطهارة ونزع العفة ، ألم تر أن فرجينيا هى خطيبتى وإنى أروم زواجها طاهرة بلا عيب ، وأنت أيها الشعب الرومانى أسألك حماية امرأتى ، وأنتم أيها الجنود أطلب إليكم صيانة ابنة رفيقكم فرجينيوس مدة غيابهِ ولا تخشوا بأساً لأن الآلهة والناس معنا .

فهاج الجمهور جداً عند سماعهِ كلام أسيليوس وأكره أبيوس على إرجاء الدعوى إلى الغد حتى يحضر فرجينيوس الذى خرج فى ذلك الحين مع الجنود

لمحاربة الصابنيين والأكويين ، وفى اليوم الثانى أتى فرجينيوس باكراً لأنهُ علم بما جرى فأسرع إلى رومية ليحامى عن ابنته وينتاشها من مخالب من يروم افتراسها وهتك عرضها بين الملأ ، ولما التأم الشعب أقبلت فرجينيا إلى محل الاجتماع والكآبة تلوح على محياها البديع والعبرات تتساقط من جفونها فوق وجنتيها المحمرتين من الخجل والحزن ، فشخصت إليها الأبصار وحارت فى معانى حسنها البصائر ورآها أبيوس فذاب شوقا وأحسَّ أن الموت أخفُّ وطأة وأهون عذاباً من هجر هذه الغزالة الشاردة ، لذلك صم عن سماع حجج فرجينيوس الدامغة وحكم بها فى الحال لتابعه الخبيث الخادم شهوات وليه العاتى برداءَة ودناءَة ، ولكنما هيهات هيهات أن يبلغ ما تمناهُ وأن يحقق أمانيهُ وما نواهُ ، إذ فرجينيوس حينما أبصر مكر أبيوس وعذرهُ طلب إليه يسمح لهُ بوداع ابنته ، فأذن لهُ فتقدم إلى فرجينيا واستل مدية وقال لها : يا ابنتى هذه هى الطريقة التى بها تنجين من العبودية والعار ، ثم ضربها بها ضربة سقتها كأس المنون وسحب مديتهُ من صدرها وهى تقطر دماً وقال لأبيوس : بهذا الدم اسأل آلهة الجحيم سلب مهجتك ، واخترق على الفور الجموع وولى هارباً على رغم أبيوس وأعوانه ، لأن الشعب أسعفهُ على الهزيمة ، فأتى المعسكر وحدث الجنود بحديثه ، ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اشهدى أيتها الآلهة أن أبيوس وحدهُ هو المذنب لأنهُ قد أجبرنى بفعاله أن أجرى ما أجريتهُ وأنتم يا رفاقى أحلفكم ألا تبعدونى عنكم كأب قاتل سفك دم ابنته ظلماً ، بل اعلموا أنى كنت أود فداء حياتها بنفسى لو أمكنها أن تعيش حرة عفيفة ، ولكنَّ ذلك الجائر العاتى أراد استعبادها ليتسنى له هتك ستر عفتها ، فما قساوتى إذاً إلا شفقة وحنو ، ولقد آثرت موتها على حياتها بالفضيحة والذل وآمل أنكم تأخذون بيدى لنثأرها وإلا مت كمداً ، فثارت الحمية بالجنود كافة ولعنوا الدسمفير الباغين ورجعوا إلى رومية مصممين على خلعهم وتنصيب وكلاء للشعب ، ومن هناك ذهبوا مع من تبعهم إلى الجبل المقدس سنة (٤٤٨ ق . م) ، ولم يرجعوا منه قبل أن أُبطلت حكومة العشرة ولاة ورضي المجلس بإقامة قنصلين ووكلاء للشعب .

أما أبيوس عاشق فرجينيا فمات فى السجن قبل النظر فى دعواه ، ويظن بعض المؤرخين أنهُ مات قتلاً ، وجهز القنصلان بعد ذلك عساكر وخرجا لقتال الصابنيين والأكويين الذين ظلوا مجاهرين بالعدوان فكسراهم وشتتا شملهم ودخلا إلى رومية محتفلين بنصرتهما .

الفصل الخامس

إن تاريخ الأمة الرومانية لحرى أن يعدّ تاريخ أخلاق البشر على اختلاف مراتبهم فى معارج التمدن والفلاح ، لا بل هو المرآة التى ترى الإنسان صورة ما خفى عليه من طباعه وفعاله ، فتظهر لهُ جلياً طمع المرء إن كبيراً أو صغيراً ، وميلهُ إلى الاستبداد والظلم ابتغاءَ نيل أمر حقير يعظمهُ لهُ الوهم فيسعى لإدراكه ولو بذل دونهُ النفيس وحمل لأجله من العناء حملاً ثقيلاً ، وتبين لذوى الاستبصار ضعف طبيعتنا الجانحة على رغمنا إلى استحسان الجديد ولو فاتتهُ طلاوة القديم ورغبتنا فى تغيير الأحوال متذكرين الماضى وراجين المستقبل ، غير متمتعين من الحاضر بسوى أتعابه وهمومه ، لأننا لا نستقرُّ على حال ، إذ الأهواءُ تتقاذفنا دائماً بتيارها حتى إذا انقضى وطرٌ تجدد غيره وعليه ، فالشعب بعد أن أبطل حكومة الدسمفير كما ذكرنا عاد إلى مخاصمة الأعيان بشأن قانون منع الشرفاء أن يتزوّجوا من العوام ، فطال بين الفريقين اللجاج غير أنهما اتفقا أخيراً على إلغاء تلك المادة ، لأنهُ لما كان الزواج لا يتم إلا بالرضى والاختيار كان ذلك المنع فاسداً وداعياً إلى إثارة الفتن والبغض بلا فائدة .

وأقام الرومانيون سنة (٤٤٤ ق . م) مفتشين يحصيان الشعب حسب ترتيب الملك سرفيوس طليوس وخولوهما الحق بإشهار ذنوب المذنبين وإصلاح العوائد وتقسيم الجمهور إلى فرق ، ورتب وتسجيل أسماء الفرسان والآباء أعضاء المجلس العالى ، فكانت سلطتهما عامة وأوامرهما نافذة ، لذلك خافهما الجميع واعتبروهما ناصرى الشرائع وحامى العدل والديانة والعوائد ، أما انتخابهما فكان من الكبراءِ لمدة خمسة أعوام فى السنين الأول ولمدة ثمانية عشر شهراً فيما بعد .

وعلم العوام أن القوة فى الاتحاد والتعاون ، ورأوا فوزهم بكل ما طلبوهُ بإلحاح وثبات ، فنووا تخفيض سلطة الشرفاء وعولوا على مشاركتهم فى السيادةُ ملتمسين من المجلس منحهم حق انتخاب أحد القنصلين منهم ، فأبى المجلس بادئ بدءٍ إنالتهم سؤلهم إلا أنهُ لما اشتد الخصام وكثرت الفتن بسبب ذلك ألغى منصب القنصلين ، وقرر سنة (٤٤٤ ق . م) استبدالهما بستة ولاة عسكريين ينتخبون

من الفريقين ، فسرَّ الشعب جداً ، وعدَّ هذا الأمر نصرة على الأعيان ، إلا أنهُ انتخب الولاة المذكورين من القوم الشرفاء ، فكأنهُ قد أدرك فضل تلك الفئة فأعطى القوس باريها مرتضياً فقط بنيل حقوق حرمها قبلاً .

أما العظماءُ فكانوا يجهدون دائماً فى إرجاع الحكومة الأولية وإحباط أعمال الجمهور ، لذلك كان تارة يتولى أحكام رومية قنصلان ، وتارة ولاة عسكريون حسب نجاح وانخذال أحد الحزبين أيام الانتخاب ، ولما كانت الحروب فى هذا الزمان لا تستلزم نفقات عظيمة ، لأن الجيوش كانت عديمة الترتيب لا تعرف سلاحاً غير ما أوجدهُ الإنسان من ذلك فى ابتداء نظام الهيئات الاجتماعية ، ولا تدرك حقوقاً للغرباءِ سوى ما تمليهِ القوة وتقرّرهُ الأطماع كان الرومانيون ومن يجاورهم فى قتال دائم وغزوات متتابعة إلا أن هذه الحروب لم تكن مهمة ، أو بالأحرى لم تأتِ بنتائج مهمة ، لذلك لم نتصدَ لذكرها بالتفصيل ، بل اجتزأنا بالإشارة إليها لضيق المقام وخوفاً من ملل القارئ هذا .

وقد رأينا فى ما مضى كيف أن الشعب رفض مراراً تجهيز الجنود اللازمة لمقاتلة الأعداء الذين كانوا يهاجمون رومية ، لأن الجندى إذ كان غير مأجور على خدمتهِ العسكرية كان إذا تقدم إلى الحرب ولم يخلفه أحدٌ فى بيتهِ يهمل حرث بستانهِ ويستدين مالاً من المثرين بربا فاحش ، فيصبح إن طالت الحَرب أسيراً فى قبضة دائنه متقلباً على فراش الذل والقهر ، وما ذاك إلا لأنهُ خاطر بنفسه دفاعاً عن حرية وطنِه ، ولقد أحدث هذا الأمر ارتباكاً عظيماً ، فدفعا لذلك أمر المجلس بنقد الجندى أجرة يومية تكفيهِ مؤُونة العذاب والضنك وتجعلهُ أطوع لأوامر القواد، وتمكن أولياء الأمور من إطالة مدة الحصار والقتال حتى ينالوا الفوز على العدى، وكانت الجمهورية حين نشأتها فى عهد القنصل بوبليكولا قد أقامت خازنين يجبيان المكوس ويدفعان النفقات اللازمة للحكومة مقدمين بذلك حساباً مدققاً ، فأمر المجلس بتنصيب خازنين آخرين يرافقان الجيش وينقذانه أجرتهُ والدراهم التى يحتاجها ، وفرض على الوطنيين مكوساً أخرى قياماً بهذه المصاريف ، ولقد نجح فى إنفاذ ما رتبه على رغم وكلاء الشعب الذين كانوا يغتنمون كل فرصة لإثارة الفتنة آملاً أن يحطوا سلطة الأعيان ويرفعوا شأنهم غير مكترثين لصالح الجمهور فى أكثر الأحوال .

وكانت فيَّا أقدم وأحصن مدن أترووريا ، وهى تبعد اثنى عشر ميلاً عن رومية ، وكانت لها قلعة حصينة جداً مبنية على رابية وعرة ، أما سكانها فكانوا أشد الناس عداوة للرومانيين وأعظم الأمم المجاورة بأساً وأكثرها إقداماً ، ولقد جرت بينهم وبين شعب رومية حروب عديدة أتينا على ذكر بعضها وأهملنا البعض الآخر هرباً من الإسهاب الممل ، إلا أنهُ حدث فى سنة (٤٧٧ ق . م) وقعة عظيمة عند نهر كريمرا مات فيها ثلثمائة وستة رجال فابيين (اسم عائلة رومانية شريفة) ، وأربعة آلاف رجل من تابعيهم ، وهكذا كانت نار الفتنة بين الفريقين تخمد تارة وتشعل أخرى ، حتى قرر المجلس سنة (٤٠٥ ق . م) محاربة هذه المدينة والاستيلاء عليها ، فأرسل الجنود والفرسان لمحاصرتها ، فدامت الحرب عشرة أعوام ، لأن فيَّا كانت حصينة كما قلنا ، ولم يكن الرومانيون يملكون أو يعرفون حينئذٍ من آلات الحصار شيئاً ، ولقد كادوا يسأمون من الهجوم والقتال ويتركون المدينةَ وشأنها لو لم يقم المجلس فوريوس كاملس دكتاتوراً ، فهذا البطل الصنديد المشهور بشجاعته وتدبيره أحيا بتعينه قائداً فى قلوب الجميع رجاءَ الغلبة ، فأسرع الشرفاءُ والعوام إليهِ وتباروا فى التجند تحت رايتهِ ، فتقدم بهم وحارب الفلريين والكابنيين الذين زحفوا لمساعدة الأعداء فكسرهم وشتت شملهم ، ثم مشى إلى المعسكر وأصلح الحصار بأن رتب الجنود وشجعهم وبنى متاريس ، ولما رأى أن الاستيلاء على المدينة بالهجوم محال عمد إلى الحيلة ، فعمل أمراً لم يسبقه إليهِ أحد من القواد ، وذلك أنهُ بينما كان يهاجم المحاصرين ليشغلهم بالقتال كان قسم من عسكره مشتغلاً بحفر قناة تحت الأرض تصل إلى داخل القلعة ، وحينما تم العمل أمر الجنود أن تهجم على الأسوار فالتقاها الفيون بشجاعة وثبات .

أما القسم الذى دخل القناة فأزال حالاً التراب الذى بقى ساتراً العمل عن أعين الأعداء وولج القلعة بغتةً وتفرق فى جميع الأنحاء ، فقاتل الفيين وفتح أبواب المدينة فدخلها الرومانيون وقتلوا من لم يستسلم لهم من أهلها وجمع كاملس الأسلاب ووزعها بين العساكر ، ثم رجع إلى رومية فولجها محتفلاً بنصرته ، وذهب إلى الكابيتولينس فى مركبة فاخرة وكبيرة تجرها أربعة أفراس بيضاء كالثلج ، وحيث إن الخيول البيضاءَ لم تستخدم قبل إلا لجر مركبة الإله جوبيتر والشمس غضب الشعب بعد فرحه بانتصار هذا الجبار العظيم ، ونفرت

القلوب منهُ ، وقسم المجلس أراضى فيًّا بين الرومانيين ، فنال كل رجل حرّ منهم سبعة فدادين .

وفى سنة (٣٩٣ ق . م) خرج كاملس بالجيوش لقتال الفالريين ، وكان عازماً على إطالة الحرب ليشغل العوام ويمنعهم من إثارة الفتن ، كما هو دأبهم فى زمن السلام منذ إنشاء الجمهورية ، إلا أن شهامتهُ والحوادث قضت بخلاف ما نوى ، لأن الفالريين بعد ما قاتلوا قتال الأبطال لم يمكنهم الثبات أمام عدوهم المغوار وجنوده الضراغم ، فانكفوا إلى المدينة وعولوا على الدفاع أو يموتوا جميعاً فدى الحرية والوطن ، وكان فى المدينة مدرس يعلم أولاد الأغنياء والأعيان ويهذبهم ، وكان معتاداً أن يخرج بهم كل يوم خارج الأسوار قصد التنزّه ، فاتفق أنهُ تقدم مرةً إلى معسكر الرومانيين وخلا مع كاملس وقال لهُ : أبشر ، فقد بلغت المراد ونلت الظفر الحلو بلا عناء لأنى قد أحضرت لك هؤلاء الأولاد رهائن تقبض عليهم ولا تسلمهم إلا بتسلم المدينة ، قال هذا وهو يرجو جزاءً على فعله الذميم غير عالم أن من يخاطبهُ رجلٌ أبىٌّ يأنف من الخيانة والدناءة ، وعندهُ الموت أهون من العار وبناءً عليه غضب كاملس ، وأمر الشرط بتقييده ، وأعطى الأولاد عصياً ليضربوهُ فساقوه أمامهم كالبعير حتى دخلوا أبواب المدينة سالمين ، وبلغ الخبر الكبراء فاستعظموه وزاد اعتبارهم للقائد الرومانى وصمموا على مهادنته، فرضى كاملس بإجابة طلبهم بشرط أن ينقدوه مقداراً من الدراهم فلبوا أمرَهُ طائعين، فعقد معهم صلحاً ورجع إلى رومية ظافراً .

ومعلوم أن الحسد داءٌ كمين فى صدور ذوى البصائر الضعيفة الذين لا يستطيعون نيل ما فاز بهِ محسودهم فيسعوا فى إحباط أعماله وإذلاله بالأراجيف والنميمة نابذين صالح الوطن وما تقتضيهِ الإنسانية ، ويحكم بهِ العدل كأنهم وهم ضمن هيئة اجتماعية تائهون فى بوادى الظلم وقفار المكر ، وهكذا نرى أعداء المرء تزداد دائماً بازدياد شهرتهِ وفضلهِ ، ونجد كاملس بعد ظفره العظيم هدفاً لسهام الوقيعة وتهم الحاسدين الذين طلبوا محاكمتهُ مدعين أنهُ اختلس أموالاً للجمهور عند افتتاح فيًّا ، أما هو فأبى الاحتجاج والمرافعة ، وقبل أن تحكم القضاة عليه بالإبعاد غادر المدينة ورحل إلى أرديا ، قيل : إنهُ سأل الآلهة خروجه من رومية انتقاماً من مواطنيهِ أن تجعلهم يأسفون على فقده ويحتاجون إليهِ عن قليل .

وكان فى كلوزيوم وهى مدينة أترورية رجلٌ وجيهٌ يدعى أرونس ربَّى ولداً يتيماً بديع الحسن والجمال وغنياً جداً اسمهُ « لوكومو » ، فهذا الغلام لما ترعرع وبلغ أشدهُ أحب امرأة وصيه التى هامت بهِ كهيامهِ بها ، وحيث إن نظرات المحب لا تخفى ظهر أمر هواهماَ سريعاً ، فخطف لوكومو إذ ذاك محبوبتهُ من منزل بعلها وعاش معها رغداً ، ولم يستطع أرونس أن يسترد امرأتهُ لأن الغلام رشا القضاة فحاربوه ولم يصغوا لشكوى خصمه ، وأنعم على الكلوزيين فصادقوه وغضوا الطرف عن فجوره ، وحينما رأى أَرونس ظلم الحكام خرج من المدينة ولجأ إلى الغاليين السانونيين القاطنين فى الأراضى الواقعة إلى الجانب الجنوبى الشرقى من مدينة باريس الفرنسوية ، وحثهم على محاربة كلوزيوم واصفاً لهم جمال البلاد ووفرة غلالها وسقاهم خمراً أتى بها من هناك فاستطابوها وعولوا على غزو الأراضى المشار إليها ليتمتعوا بطيباتها ويرشفوا من صهبائها ، فاجتاز جنودهم جبال الألب وتوغلوا فى البلاد مدة ستة أعوام ، وهم ينهبون أموال السكان ويتنعمون بما رزقوا إلى أن قصدوا أخيراً محاربة كلوزيوم إرضاءً لأرونس دليلهم فأتوها وحاصروها سنة (٣٩٠ ق . م) .

ولما طال الحصار على الكلوزيين بعثوا برسل إلى الرومانيين يطلبون منهم إمداداً فأرسل المجلس العالى إلى الغاليين ثلاثة سفراء أولاد فابيوس أمبستوس يأمرونهم بكف العدوان ، فسخر منهم برنس رئيس الغاليين وردهم خائبين فحنقوا جداً وانضموا إلى جيش الكلوزيين وحدث أن أحدهم وهو كونتوس فابيوس قتل قائداً غالياً شهيراً بين قومه ، ولما علم برنس بذلك غضب وعول على قتال الرومانيين لأن سفراءهم قد خالفوا القوانين المرعية بين الأمم وانتصروا للكلوزيين ، فرفع الحصار فى الحال وتقدم إلى رومية سنة (٣٨٩ ق . م) ، وبلغ ذلك الرومانيين فالتقوهُ عند نهر أليا على بعد أحد عشر ميلاً من مدينتهم بجيش جهزوهُ عجلاً ، إلا أنهم لم يستطيعوا الثبات طويلاً أمام أعدائهم لضعف قوادهم ، أو لأنهم خافوا من بسالة الغاليين وصياحهم الشبيه بعواء الذئاب ، فنفروا فى تلك الأرض منهزمين ، ثم أتوا رومية فدخلوها مذعورين والتجأُوا إلى قلعة الكابيتولينوس وتمكنوا من نقل الزاد والسلاح إليها ، لأن برنس لم يتأثرهم بل تخلف ثلاثة أيام ليوزّع بين عساكره الأسلاب التى اغتنمها ، فنجت رومية بهذه المدة من الخراب

التام لأنها قدرت على الاستعداد ، ولما كانت القلعة لا تسع جميع الرومانيين خرجت جماعة من العوام وتفرقت فى البلاد ، وبقى الشيوخ فى منازلهم فقتلهم الغاليون وحرقوا المدينة ، وإذ علموا صعوبة الاستيلاء على قلعة الكابيتولينوس ، وأن ذلك يستلزم زمناً طويلاً أرسلوا قسماً من العساكر ليغزو الأمم المجاورة ويأتى بالقوت الكافى .

وبلغ كاملس خبر المصائب التى طرأت على وطنه ، فأسف غاية الأسف ونسي لدى تلك النوازل الجلى ما أوصلهُ إليهِ قومهُ من الأضرار ، وبات حائراً فيما يفعل ليفرج كربة مواطنيه حتى درى بريِاد فرقة من الغاليين فى البلاد طلباً للمعاش ، فنهض إذ ذاك نهضة أسير حل عقالهُ وسال والى المدينة المنفىّ إليها أن يأذن لهُ فى تجهيز جيش يقطع بهِ دابر المفسدين وينتقم لإخوانه من أقوام أذاقوهم النكال وأنزلوا بهم ما لم يكن لهم بحسبان فأولاهُ الوالى ما طلبهُ حينئذٍ زحف كاملس بمن تبعهُ إلى حيث حل الغاليون وصبر قليلاً حتى أدلهم الليل ، فانقض وعساكرهُ على الأعداء وهم نيام انقضاض الصواعق ، وأعمل بهم السيف البتار إلى مطلع الفجر فأرداهم جميعاً .

وذاع خبر هذه المعمعة فى تلك الأصقاع ، وكان الرومانيون الذين غادروا المدينة والذين انكسروا أمام الغاليين عند نهر أليا قد لعبت بهم أيدى سبأ ، فلما علموا بفوز كاملس غير المنتظر بادروا إليهِ مسرعين وأقبلوا عليهِ متجندين تحت لوائهِ كأن النصر الذى فارقهم حيناً من الزمان لفراق كاملس قد عاودهم لعود هذا الباطل إليهم .

ولم يرد كاملس تولى قيادة الجيش قبل أن يعينهُ المجلس فى الكابيتولينوس غير أنهُ دون الوصول إلى المجلس وإبلاغ أوامره غصص المنون ، إذ جنود الأعداء كانت محيطة بتلك الرابية إحاطة الأسورة بالمعاصم ، ولقد كاد يذهب انتصاره الأخير سدى ويمسى أمل العساكر المتجمعة حولهُ فشلاً لولا جسارة وغيرة رجل رومانى اسمهُ « كومينيوس » الذى ارتقى إلى تلك الرابية فى الليل سرآ ، وبعد أن أخذ الأوامر اللازمة بتعيين كاملس دكتاتوراً رجع إلى معسكره من حيث جاء .

وأبصر المحاصرون فى اليوم الثانى آثار رجلى ويدى كومينيوس عند ارتقائهِ الرابية ، فعلموا إمكان الصعود إلى القلعة من ذلك المكان ، ولما جنَّ الظلام

ومالت أعناق الرومانيين من خمر الكرى شرع بعض الغاليين يتسلقون تلك الصخور والشعاب حتى وصلوا بعد الجهد والعناءِ إلى أسفل السور ، ولم يحس بقدومهم أحدٌ سوى الأوز المختصة بالإلهة جونو ، فأخذت تبقبق وتصفق بأجنتها فاستيقظت لذلك عساكر تلك الجهة ، وكان أول من نهض وأسرع إلى الدفاع عن السور الشريف مانليوس فوجد عليهِ رجلين غاليين فابتدر أحدهما بضربة قطع بها يدهُ ودفع الثانى بترسهِ ، فسقط إلى أسفل وهوَّر بسقطتهِ من كان وراءَه ، وفى أثناء ذلك أتى قسم من الجنود الرومانية لإسعاف مانليوس فقتل الباقين بالسهام والحجارة .

وبينما كان كاملس جاهداً فى جمع الجنود وترتيبها وعاملاً ، فكرهُ فى كيفية قتل الأعداء ليتسنى لهُ النصر المبين كان الجوع قد أخذ بالرومانيين المحصورين فى القلعة كل مأخذ ، فخابروا الغاليين فى الصلح ، فرضى هؤلاءِ بإجابة طلبهم بشرط أن ينقدوهم ألف زنة ذهباً (٤٥٠٠٠ ليرة إنكليزية) .

حكى المؤرخون أن برنس قائد الغاليين أتى بعيارات مغشوشة ، فتظلم الرومانيون من فعلهِ ، فما كان جوابهُ إلا أن طرح حسامهُ فى الميزان فوق العيارات وقال : الويل للمغلوبين حينئذ ظهر كاملس بجنوده بغتةً ، وأمر قومهُ أن يستردوا مالهم قائلاً : إن الرومانيين ينقذون وطنهم بالسيف لا بالذهب ، ثم هجم على الأعداء هجمة الرئبال فدحرهم وابتدرت إليهم جنوده وأحاطت بهم من كل جانب ، فافترستهم افتراس الذئاب للغنم وأردتهم جميعاً ، أما الشعب فلقب الدكتاتور بعد هذه النصرة بمخلص الوطن ومجدّد بناء رومية ، ولقب مانليوس بالكابيتولينس لكونهِ أول من بادر لدفع الأعداء عن أسوار الرابية المذكورة كما تقدم المقال ، إلا أنه قتل فيما بعد مطروحاً من قمتها إلى أسفل لأن الشرفاء خوفاً منهُ أو لأسباب أخرى اتهموه بإغراء الشعب بتنصيبهِ ملكاً وحكموا عليهِ بالموت .

* * *

الباب الثالث

من حين تجديد بناء رومية

(سنة ٣٨٨ ق . م) بعد ما حرقها الغاليون

إلى الحرب القرطجنية الأولى (سنة ٢٦٤ ق . م)

أو من (سنة ٣٦٥ إلى سنة ٤٨٩ ب . ر)

الفصل الأول

ترى قضى على الأمة الرومانية ألا تستريح من الحرب كأن القتال روح جسم تلك المدينة وحياة أهلها ، نعم هذه هى الحقيقة ، وما الداعى إلى ذلك سوى تنازع البقاء لأنهُ لما كانت رومية ضيقة بأهلها كان دأب الرومانيين شن الغارة على الأمم المجاورة لتحصيل ما يعوزهم وما تعجز أراضيهمْ عن تقديمه لهم ، وكانت الشعوب المغلوبة تنهض دائماً فى طلب الحرية وإذلال سيدتها حينما تسنح لها الفرصة ، أو تتوسم فيها ضعفاً ، وعليه ففى سنة (٣٨٧ ق . م) حينما ظهرت أم المدائن من رماد خرابها بادر أعداؤُها المجاوروها إلى محاربتها ومحو اسمها إن أمكن من عالم الوجود قبل أن تقوى شوكتها وترجع إلى ما كانت عليهِ سابقاً ، ولكن كيف يقدرون على نيل ما رجوه وكاملس البطل راضٍ عنها ورابضٌ فى إحيائها ، فإنهُ جمع فى الحال الرجال الرومانيين وقسمهم إلى ثلاث فرق ، ترك فرقة منها عند أسوار رومية للدفاع عنها ، وفرقة أخرى فى مدينة فيًّا لمراقبة حركات الأترورريين ، وزحف بالفرقة الباقية إلى قتال الأعداءِ ، فانتصر على الفولسيين والأكويين والأترورريين انتصاراً تاماً ، وعاد من ساحة الحرب بالأسراء والغنائم الوافرة ، وبعد سنتين أو ثلاث قاتل اللاتينيين والجبليين أو الأرنيسيين وأخضعهم .

وفى سنة (٣٦٦ ق . م) بلغ الحكومة أن فرقاً من الغاليين الساكنين عند بحر الأدرياتيك قادمة إلى رومية قصد نهبها ، فخامر قلوب الرومانيين كافة خوف شديد وتذكروا حملة الغاليين السابقة والنكبات التى ألمت بهم من جراءِ ذلك ، فأجمعوا جميعاً على تعيين كاملس دكتاتوراً وأقبلوا يتجندون بغيرة ونشاط ، كأن ما حدث قبلاً أصبح لهم ما حيوا تبصرة وذكرى ، ولما كان النصر متوقفاً فى أكثر الأحوال على تدبير القائد وذكاءه لا على كثرة الجنود ووفرة العُدد رأى كاملس أن قوة البرابرة قائمة بطول سيوفهم التى يضربون بها الرؤُوس والمناكب بلا مهارة ولا تدريب ، فأمر بعمل مغافر حديدية تكون مصقولة من الخارج حتى إذا ما وقع عليها الحسام ينكسر أو يمر فوقها بلا ضرر ، وجعل للمجان الخشبية دائرة من حديد لتقى حامليها ضربات الصوارم الشديدة ؛ ثم زحف بجنوده ونازل الغاليين

فى أَراضى ألبا ، فظفر بهم وبدد شملهم ، وحينما عاد إلى رومية احتفل بنصرتهِ جرياً على العادة .

وفى هذا العام ألغيت مناصب الولاة العسكريين واستبدلوا بقنصلين ينتخبان من الأعيان والعوام ، ولا حاجة للقول أن هذا الأمر تقرَّر بعد نزاع عظيم ، إذ الخصام على ما نرى ضربة لازب لإحداث أدنى تغيير فى الحكومة ، لأن الشرفاء يكرهون كل ما يرغب فيهِ العوام والعكس بالعكس ، ولا بدع ، فإن الإنسان مائلٌ بالطبع إلى المحافظة علَى الامتيازات التى يخولهُ إياها العموم ، ولو كانت تلك الامتيازات مبنيَّةٌ على أَسباب وهمية .

وحيث إن القنصليين هما رأس الحكومة وعليهما مدار كل الأعمال المدنية والعسكرية لم يكونا يستطيعان فى سائر الأحوال أن يقوما بعبءِ ما فوض إليهما أمرهُ، فارتأى القوم إقامة رجل يتولى القضاءَ دعوه « بريتور »، وقرروا انتخابهُ من الشرفاء لتعويض هذه الفئة مما خسرتهُ فى منح العوام حق انتخاب أحد القنصلين منهم ، وعين أيضاً سنة (٣٦٥ ق . م) رجلان من الشرفاء والعوام لملاحظة الهياكل والشوارع والأسوار وإدارة الألعاب العمومية ، وسموهما أديل كوريلس (لفظة كويرلس مشتقة من كوروس ، أى مركبة ، لأن الأديل المذكور كان يجلس فى باديءِ الأمر على كرسى عاج ، وكان هذا الكرسى يوضع فى مركبة) .

وفشا فى هذه الأثناء وباء بالمدينة واشتدت وطأتهُ على الأهلين ، لأنهُ دام مدة ثلاثة أَعوام ، ومات بسببهِ كاملس القائد الشهير ، وعدد عديد من العظماء والعوام ، فأجرى الشعب لإزالتهِ أموراً كثيرة خرافية لم تجدهم على ما أظن نفعاً لأن هذا الداء المخيف يلزمهُ علَاج آخر ، فالطبيب قد أخطأ الغرض والويل للمريض .

ومن الحوادث الغريبة التى نحكيها استطراداً ولا نشفعها بالتصديق هو أنهُ فى سنة (٣٦١ ق . م) فتحت الأرض فاها فى محلة الفورم وظهرت هوة عظيمة كانت تزداد بالتدريج عمقاً واتساعاً ، فنفر الشعب فرقاً ثم أقبل يطرح فى هذه الهوة تراباً لعلهُ يستطيع ردمها ، ولما رأى استحالة ذلك هرع إلى السحرة مستشيراً إياهم ، فأجابهُ هؤلاء : إن الأرض المفتوحة لا تستوى إلا إذا قدم لها ما يحوى قوة الشعب الرومانى ، وأن هذه التقدمة تجعل السلطة الرومانية أبدية ، فلم يفهم

الجمهور مغزى الوحى ، وبات حائراً فى أمره متردداً فيما يجب أن يعمل ، وكان فى المدينة فتى شريف اسمهُ كورتيوس ، فهذا أوَّل عبارة السحرة بأن الآلهة تعنى بقوة الرومانيين الشجاعة والسلاح ، وبناء عليهِ امتطى جواداً مطهماً ولبس عدة جلاده وتقدم إلى الفورم على مرأى من الشعب وألقى بنفسه إلى الهوة ، فانطبقت حالاً ورجعت الأرض كما كانت كأنهُ لم يحدث شيء قبلاً .

وأغار الغاليون السيزألبيون على أراضى رومية سنة (٣٦٠ ق . م) ، فالتقاهم الدكتاتور بنس بجيوشهِ على بعد ثلاثة أميال من المدينة بالقرب من جسر على نهر أنيو ، فعسكر الفريقان فى ذلك المكان ولم يتلاحما ، لأن النهر كان فاصلاً بينهما ، فكان يقضيان النهار بمشاهدة مبارزة الفرسان وقواد الجيشين على الجسر ، وبرز ذات يوم من صفوف الغاليين رجل طويل القامة وكبير الجثة وطلب نزال الأبطال ، فهال الرومانيين منظرهُ واجتنب الجميع مبارزتهُ ، ولما طال أمد انتظاره ، وكاد الرومانيون يلبسون من الخوف لباس العار تقدم فتى شجاع اسمهُ «مانليوس» ، واستأذن الدكتاتور فى قتاله ، فأذن له فتقلد مانليوس حساماً قصيراً وخرج لمحاربة ذلك الجبار فالتقاه الغالىُّ بسَيفهِ الطويل وهم بضربهِ بهِ فمرَّ مانليوس تحت ذلك السيف بسرعة عظيمة وابتدرهُ بضربة سقتهُ كأس حَتفهِ ، ولما رأى الغاليون بطلهم قتيلاً ولوا منهزمين وتشتتوا فى تلك البلاد وحدثت بعد ذلك عدة حروب أثارها على رومية الغاليون والأمم المجاورة ، وكان الظفر فى جميعها للرومانيين .

وفى سنة (٣٤٧ ق . م) حالفت قرطجنة رومية وعقدت معها معاهدة لحفظ السلم والصداقة ، وهى أول معاهدة عقدت بين هاتين الأمتين حسب رأى جلة الرواة المؤرخين .

وفى سنة (٣٤٢ ق . م) غزا السمنيتيون بلاد السيسنين وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، فاستجار هؤلاء بالكابنيين وسألوهم إمداداً ، وكانت كامبنيا شديدة الخصب وكثيرة المال لنشاط أهلها واعتمادهم على التجارة ينبوع الغنى ، ولما كانت التجارة والثروة تذهبان بالمرءِ إلى حب السلام والتنعم ، وكلاهما يفقد الإنسان العانى بهما الشجاعة والإقدام على الحروب ، لا سيما فى تلك الأعصر، حيث الخشونة صفة لا بد منها للفارس المغوار ، كان الكامبنيون غير قادرين على

قتال السمنيتيين الأبطال ، إلا أنهم كانوا مجبرين لصوالحهم الذاتية على مساعدة السيد يسينين وإذلال أعدائهم ، لذلك أشهروا العدوان وبادروا إلى ساحة الوغى، فلم يثبتوا فيها طويلاً ، بل انهزموا إلى كابوا عاصمة بلادهم ، فلحق بهم السمنيتيون وأنزلوا بهم رهقاً ، فضاق الجميع ذرعاً وأرسل الولاة سفراءَ إلى رومية ليبثوا لأهلها شكواهم ويطلبوا نصرتهم ، فجاء السفراءُ وعرضوا للمجلس ما عرضوه إلى أن قالوا : إذا لم يتتصر لنا حلفاؤُنا سريعاً نسقط فى يد أعدائنا الذين سيسوموننا بلا شك الخسف وعذاب الهون ، فالبدار البدار أيها الرومانيون لمساعدة قوم يكونون لكم حلفاءَ أمناءَ ويعدونكم ما حيوا مخلصى بلادهم ويجلونكم كما يجلون الآلهة .

أجابهم المجلس : أنهُ يود مساعدتهم لو لم يكن السمنيتيون حلفاءَ الرومانيين ، مع ذلك وعدهم بإرسال وفدٍ يسأل السمنيتيين كف العدوان ، فلما سمع السفراءُ هذا الكلام الناشىء عن الرغبة فى المحافظة على الصداقة أو الطمع للحصول على ما يقابل الأتعاب التى سيتجشمها الشعب فى هذه الحرب قالوا : أيها الرومانيون ، إذا أبيتم مساعدتنا كحلفائكم فلا نظنكم تأبون الدفاع عنا كرعيتكم، لأن أهل كامبينيا ومدينة كابوا وأراضينا وهياكلنا وكل ما نملكهُ هو من الآن لكم ، ثم جثوا فى ذلك النادى ورفعوا أيديهم إلى القنصلين مستجيرين وباكين ، فأشفق عليهم من كان حاضراً ، وعوَّل المجلس على مساعدتهم لا بل على حماية بلاد ملكها بلا حرب ، ولا يتم لهُ التمتع بطيباتها إلا بالضرب والطعان على أنهُ أرسل أولاً رسلاً إلى السمينيتيين يسألونهم كف القتال ، فأبى هؤلاءِ الإذعان لهم ، فتجهز القنصلان وخرجا بالجنود لمحاربتهم ، فظفرا بهم فى مواقع كثيرة وشتتا شملهم ، فطار خبر هذه النصرات فى الآفاق وبادر الأتروريون إلى الخضوع التام لرومية ، وأرسل القرطجينون رسلاً يهنئون المجلس ويقدمون تاجاً ذهبياً للإِله جوبيتر كابيتولينوس شكراً لهُ على فوز الرومانيين العظيم .

وظن اللاتينيون سنة (٣٣٩ ق . م) أنهم يستطيعون الاستقلال وخلع نير رومية عنهم ، وعلموا أن دون ذلك حرباً عواناً ، فاستعدوا لها لكنهم لم يباشروها قبل استعمال الوسائل السلمية كى لا يتهموا بالاعتداءِ أو لكونهم لم يكونوا خاضعين لرومية خضوعاً تاماً ، فأنفوا من القول أنهم نهضوا فى طلب

الحرية ، كأنهم كانوا عبيداً وعليهِ أرادوا أن يعاملوا الرومانيين معاملة نظير ، فوجهوا إليهم سفراء يعلنون رغبتهم فى دوام السلام وتقوية عرى الاتحاد بشرط أن يؤلف مجلس رومية من أعضاءَ رومانيين ولاتينيين ، وأن يكون أحد القنصلين لاتينياً ، أما المجلس فغضب جداً عند سماعهِ هذا الكلام ، وأمر القنصلين بجمع الجنود اللازمة لتأديب هؤلاءِ الأقوام الذينَ أبطرتهم النعمة فعصوا ، فجهز القنصلان مانليوس ودسيوس العساكر وزحفا إلى كابوا ، حيث حلّ اللاتينيون وحلفاؤهم .

وفى ذلك الليل ترآى لكل من القنصلين فى الحلم رجلٌ جبارٌ طويل القامة ومهيب قال لهما : إن النصر يعطى لأحد الجيشين الذى يقدم قائدهُ نفسهُ ضحية لآلهة الجحيم ، ولما أخبر كل قائد رفيقهُ ما تراءى لهُ فى الحلم عجبا جداً من أنهما حلما حلماً واحداً ، وعلما أن ذلك وحيٌ ينبئهما عما يجب فعلهُ لإحراز نعم الآلهة فذبحا الذبائح وقدما القرابين كفارة عن الذنوب ، واتفقا أن القنصل الذى يرى فرقتهُ مدحورة يجب عليهِ أن يخوض وحدهُ عجاج الحرب ، ويهجم عل صفوف الأعداء حتى يخرّ قتيلاً بأسيافهم ويموت فدى الوطن ورجالهِ .

ولم يكن اللاتينيون يباينون الرومانيين بشيء ألبتة ، بل كان الفريقان يتكلمان لغة واحدة ، وكانت عوائد الأمتين وطريقة قتالهما متشابهة لأنهما شعب واحد ، وقد عاشتا زمناً طويلاً بالألفة والاتحاد ، فتحذر القنصلان فى هذه الحرب كل الحذر ، وأمرا القواد والجنود أن يراعوا الترتيب ، وألا يقاتل أحدٌ منهم خارج صفهِ ، وحدث ذات يوم أن الفتى مانليوس ابن القنصل لقى قائداً لاتينياً ، فطلب هذا مبارزتهُ فلم يرفض مانليوس النزال كأنهُ قد نسى الأوامر الصادرة بهذا الشأن، وانقض عليهِ بسيفهِ البتار وخطف مهجتهُ ثم جمع أسلابهُ وتقدم إلى سرادق أبيهِ وقال لهُ : يا أبتِ ، قد اقتديت بشجاعتك وأظهرت ذاتى أهلاً لأن أكون ابنك ، فإن قائداً لاتينياً قد طلب نزالى فبارزتهُ وأسقيتهُ بحسامى كأس حتفهِ وهذى هى أسلابهُ أضعها عند أقدامك .

أما أبوهُ فجمع العساكر حالاً وأجابهُ قائلاً : يا طيطس مانليوس ، قد خالفت أوامرى وأقدمت على محاربة العدو فأبطلت بفعلك هذا الترتيب العسكرى الذى نعدّهُ عماد سلطة وقوة الشعب الرومانى ، فأحوجتنى إلى أحد أمرين : إما أن

أنسى حاساتى الأبوية فأقتلك ، أو أهمل صوالح العموم فاستحييك ، ولكن فليكن موتك مثالاً للرومانيين يردعهم عن مخالفة القوانين ، ويعلمهم إذا ارتكبوا هذا الأمر المنكر كيف يكفرون عن ذنبهم ، ثم أمر شرطياً بضرب عنقه ففعل .

ثم تلاحم الجيشان واشتد القتال ، وكان القنصل دسيوس متولياً قيادة الجناح الأيسر ، فأظهر فى ذلك النهار فعالاً تحير الأبطال إلا أن عساكرهُ لم تستطع الثبات ، بل رجعت إلى الوراء ، فتذكر القنصل وقتئذ حلمهُ وهجم على صفوف اللاتينيين مقدماً ذاتهُ والأعداء ضحية لآلهة الجحيم فسقط فى الحال قتيلاً ، ولما رآه قومهُ قد مات شجعوا واقتحموا الأهوال ، فأذاقوا خصومهم حرباً لا تبقى ولا تذر حتى نفروا فى مجاهل تلك الأرض بعد ما قتل منهم أناس كثيرون ، وحدثت معامع أخرى استظهر فيها الرومانيون فدخلوا المدن اللاتينية واستولوا عليها وعاملوا أهلها بالرفق والإحسان ، لأنهم لم يأخذوهم بذنبهم ، بل طردوا مسببى الثورة ومنحوا الباقين حقوقاً كأهل رومية وحسبوهم فى عداد الوطنيين .

* * *

الفصل الثانى

طالما رأينا رومية وأهلها هدفاً لسهام النزاع الداخلى الناجم عن حب الرياسة والمحافظة على بعض امتيازات أحدثها الوهم وجهد فى إثباتها قوم طمعون لا يدركون حقوق الإنسانية وواجبات المرء لأبناء جنسه ، أما الآن وقد اشتد ساعد العوام وقدروا على مشاركة الأعيان فى سائر المناصب العالية فأصبح سكان هذه المدينة العظيمة شعباً بالحقيقة واحداً يصرف همهُ فى التعاون وإحراز ما يعود بالمجد والعظمة على الأمة الرومانية ، وعرف الجميع أن التقدم بالفضل الشخصى لا بشرف الآباءِ والأجداد ، فنشطوا إلى الأعمال الخطيرة وولوا التوانى والانقسام صفحة الأعراض .

ويظهر أن الرومانيين أدخلوا فى هذا الزمان إصلاحاً فى نظام الجندية ، بأن جعلوا مدة التجند تدوم ما دامت الحرب ثائرة خلافاً لما اعتادوهُ قبلاً من أن القائد المعين لإنهاءِ حرب باشرها قائد آخر يجب عليهِ جمع عساكر جديدة كان الجندىّ غير مجبر على الخدمة إذا مات قائدهُ أو عزل عن منصبهِ .

وفى هذا الأوان كانت رومية تزداد يوماً فيوماً عظمة وبأساً ، لأنها كانت سائرة على قدم النجاح ، فأخضعت عدة مدن إيطالية وأصبحت قوية ومرهوبة الجانب فى تلك الأصقاع ، ومن عوائدها الحسنة التى تذكر فتشكر ، والتى خولتها قوة عظيمة ووطدت سلطتها فى المدن الخاضعة لها منحها سكان تلك المدن حقوقاً كالرومانيين ، واعتبارهم وطنيين ليجدوا فى تقدمها أو إرسالها فئة من فقراءِ العوام ليسكنوا بين الشعوب المغلوبة ويكونوا بمثابة جيش رومانى يحتل تلك البلاد ويمنع أهلها من المجاهرة بالعصيان .

ومما يجمل ذكرهُ ويتهلل لهُ وجه الإنسانية بشراً هو الأمر الذى أصدرهُ المجلس سنة (٢٣٥ ق . م) بمنع الدائن عن استعباد مديونهِ مصرحاً أن أملاك المديون فقط مرهونة لوفاءِ دينه ، أما شخصهُ فحر أبداً .

وقاتل السمنيتيون شعب رومية مراراً بعد حربهم الأولى غير أنهم كانوا يرتدون دائماً بالذل والفشل ، ودامت الحال هكذا إلى أن كانت سنة (٣٢٠ ق . م) ،

وقد انتصر الرومانيون عليهم نصرات عظيمة وغشوا البلاد بجيوشهم الجرارة ، فبادروا إلى طلب السلام صاغرين جرياً على عادتهم متى ألمت بهم ملمات ، فأبى الرومانيون إجابة طلبهم استكباراً وعولوا على مداومة القتال ليذيقوهم ثمر العصيان والبهتان ، ويجعلوا لهم هذه الحرب خاتمة الحروب ، ولما ضاق السمنيتيون ذرعاً عمد قائدهم بونتيوس إلى الحيل انتقاماً من أعدائهم ، فتسنى لهُ ما أمل وقدر على حصرهم فى مضيق بالقرب من مدينة كوديوم دُعى من ذلك الحين شوك كوديوم وسببهُ أن العساكر الرومانية ولجتهُ آمنة لزعمها أن العدو قد رحل وأن هذا المضيق أقرب الطرق الموصلة إليهِ ، وكان بونتيوس قد أذاع خبر رحيلهِ وهو كامن بالقرب من ذلك المكان ، فلما علم بتصديق أعدائهِ ما اختلقه واحتلا لهم المضيق فرح واستبشر وتقدم بجنوده ونظر الرومانيين ، وإذا هم فى قبضتهِ لا يستطيعون فراراً ولو اتخذوا لهم أجنحة .

أما السمنيتيون فباتوا حائرين فيما يجب فعله ليجتدوا نفعاً من هذا الفوز المبين، ولما كانوا مترددين فى الأمر لا يستقرون على رأى استشار بونتيوس أباهُ بهذا الشأن، فأجابهُ أبوهُ وهو شيخ جليل قد حنكتهُ الأيام أنهُ يجب إجلال الرومانيين وإطلاق سبيلهم ، فلم يحل رأيهُ محل القبول ، ثم استشير مرة أخرى فأجاب أنه يجب قتلهم جميعاً ، ولقد نطق هذا الشيخ بالصواب ، لأنهم إن عملوا بموجب الرأى الأول صادقوا الرومانيين وقلدوهم من المنة أطواقاً ، وإن تصرفوا حسب الرأي الثانى أضعفوهم وجعلوهم غير قادرين على القتال مدة مديدة ، إلا أن بونتيوس لم يصدع بأمر أبيهِ ولم يرضخ لمشورتهِ الحكيمة ، بل عزم وأعوانهُ على تخلية سبيل الرومانيين بعد أن يعاملهم معاملة عدو مقهور .

وكان الرومانيون قد ذهلوا وخافوا خوفاً شديداً حينما أبصروا الأخطار المحيطة بهم من كل جانب ، فأرسلوا رسلاً يسألون أعداءَهم السلام ، فأجابهم بونتيوس إلى ذلك بشرط أن يسلموا سلاحهم ويمروا تحت النير وأن يغادر الرومانيون المدن السمنيتية الساكنون فيها ، والتى سلبوها أهل البلاد ، فرضوا بما أمر كرهاً ، ومروا تحت النير على مرأى السمنيتيين الذين زادوا مصابهم مصاباً بأن أوسعوهم إهانة وشتماً ، فخرجوا من ذلك المضيق وقد ضاق بهم الفضاء ، وتمنوا لو تفتح

الأرض فاهاً وتبتلعهم لينجوا من الفضيحة والعار ، وأنفوا لذلك من الدخول إلى رومية نهاراً لئلا ينظرهم الشعب ، فولجوها ليلاً وأسرعوا إلى منازلهم واختبأوا فيها .

وأنَّ الجميع لهذه الحادثة المفجعة أنين الثكلى وخلعوا عنهم ثياب الزينة والتنعم إيذاناً بحزنهم الشديد على فقدهم المجد الذى رفلوا بهِ زماناً طويلاً ، فللَّه درّ هذا الشعب الجبار الذى لم يفقهُ أحدٌ على وجه البسيطة فى حب وطنه كأن الوطن إلههُ ، فلا يأنف من بذل النفس والنفيس ضحية لهُ ، أَفمثلهُ يُعادى أَو يُذَل بجعله يمر تحت النير ، ولكن حب الانتقام إذا تمكن من قلب الإنسان أعمى بصيرتهُ وبصره ، فيصبح كالباحث عن حتفه بظلفه ، إذ هيهات أن يدرك أن الانتقام كل الانتقام من الرجل الكريم فى الصفح عَنهُ إذا أَخطأ وفى إكرامهِ إذا قدر على إذلالهِ .

ولم يسكن روع الأهلين إلا بانتخاب قنصلين جديدين شهيرين بالشجاعة والبأس فأحضرا فى الحال إلى المجلس سلفيهما يستخبراهما عن العهدة التى أمضياها للسمنيتيين فأعلن بوستيموس أحد القنصلين السابقين أن العهدة المذكورة فاسدة لا توجب على الجمهورية أمراً لأنها تمت بغير علمها ورضاها ، ولا تستلزم سوى تسليم القواد الذين وقعوها لينتقم منهم السمنيتيون شفاءَ لغليلهم ، فوقع هذا الكلام عند الجميع موقعاً حسناً وصدقوا عليهِ ، ثم بادر الرومانيون إلى القتال تطوعاً وزحفوا من المدينة بالخيل والرجل ، ولما قربوا من معسكر الأعداءِ بعثوا إليهم بالقواد المذكورين مقيدين وبسفير يخبرهم ما نووا ، فمثلوا بين يدى بونتيوس وفاه الرسول قائلاً : حيث إن هؤلاء الرجال قد هادنوكم وعاهدوكم ولم يكونوا مأذونين فى ذلك ، فقد اقترفوا ذنباً عظيماً ، وعليه فنحن نسلمهم إليكم لنكون بُراءَ مما جنوهُ ، أما بوستيموس فلكى يلقى الفتنة ويجعل الحرب ضربة لازب رفس السفير وقال لهُ : أنا الآن سمنيتى وأنت سفير رومانى ، ولقد اعتديت عليك وخالفت الشرائع المرعية بين الأمم ، فأشهر الحرب صيانة لحرية ومجد أمتك وعلم بونتيوس أن وراءَ الأكمة ما وراءها ، فأجاب السفير إن رام الرومانيون مراعاة العدل وحفظ شرفهم فليعلموا بموجب العهدة التى أمضوها أو فليرجعوا جنودهم إلى مضيق كوديوم ، ثم أشار إلى بوستيموس وقال لهُ : أتريد أن تخدع الآلهة

بمكرك ، وهل تظنهم يحسبونك سمنيتياً ليعدوا فعلك إهانة صادرة منا للشعب الرومانى ، أهكذا تحتقر الدين والعهود ، ولكن هذه الأعمال لا تليق بقنصل يتولى الأحكام ولا بأمة عظيمة ، ثم أمر الشرط بفك رباط الأسراء وإطلاقهم .

وعلم الرومانيون بما كان فاستبشروا واستعدوا للقتال ، ولما التقى الجيشان أراد القائد الرومانى أن يحرض جنوده على الثبات ، فلم يستطع لأنهم حالما أبصروا الأعداء هجموا عليهم ، وهم مشهرون سيوفهم هجوم اللبوة على من رام خطف أشبالها وصدموهم صدمة ألجأتهم إلى الفرار ، فانقضوا عليهم وأعملوا بهم السيف البتار حتى أردوا منهم عدداً عديداً .

وجرى بعد بضعة أيام وقعة أخرى أظهر فيها الرومانيون ما أظهروه فى الوقعة الأولى من الحمية وحب الانتقام ، ولقد كادوا يفنون الجيش السمنيتى لو لم يوقفهم القنصل ويبتحيى من بقى منهُ ، وكان عددهم سبعة الاف رجل ، فمروا تحت النير وفى مقدمتهم بونتيوس سبب هذا البلاء .

وكان السمنيتيون أقدر وأشجع أمة فى تلك البلاد يأنفون من الخضوع للغرباء ويفدون الحرية بالأرواح ، فلم تكن الحروب التى حدثت كافية لإذلالهم ، بل ثابروا على القتال مدة تسعة وأربعين عاماً وكانوا تارة ينفردون فى حرب الرومانيين وتارة يتحدون مع بعض أمم كانت تنهض لانتصارهم خوفاً من رومية التى امتدت سلطتها حينئذٍ على كثير من مدن تلك الأنحاءِ غير أن الظفر كان خاضعاً للوائها ، فداست جنودها أرض الأعداءِ وقتلت منهم أناساً كثيرين حتى كادت أنفس السمنيتيين تزهق ، فأرسلوا سنة (٢٩٠ ق . م) رسلاً يسألونها السلامَ ، فرضى المجلس بذلك وفوض إتمام هذا الأمر إلى القنصل كوريوس الذى خرب بلادهم واستولى على مدائنهم العامرة .

وكان كوريوس هذا متصوفاً ، فلما حضر إليه سفراءُ السمنيتيين ليعقدوا معهُ شروط الصلح وجدوهُ جالساً على كرسىّ خشب بالقرب من النار يطبخ غذاءهُ ، فقدموا لهُ دراهم ليسترضوهُ ويحملوه على معاملتهم بالرفق والإحسان ، فنظر

إليهم شزراً وقال لهم : لا جرم ، إنكم رأيتم فقرى فرجوتم أن تستميلونى بالنضار ، ولكن اعلموا أنى أود التسلط على ذوى الأموال لا أن أكون متمولاً ، فخذوا ما أتيتم بهِ ، وأخبروا من أرسلكم أننى لا أغلب بالمال والسلاح ، فوجد السمنيتيون أن لا راحة لهم إلا فى الخضوع التام لأعدائهم ، فطرحوا عنهم الكبر والخيلاء ورضوا بكل ما شاء كوريوس أن يأمرهم بهِ ، وآبوا إلى أرضهم آمنين تحت ظل العلم الرومانى ، وخضع أيضاً فى ذلك الحين لرومية الصابنيون بعد أن كانوا حلفاءها زمناً طويلاً فعوملوا معاملة حسنة لصداقتهم القديمة وحسبوا فى عداد الرومانيين .

* * *

الفصل الثالث

قد قويت الآن شوكة رومية وعلا مقامها بين الملأ ، فأحدقت بها أبصار مجاوريها ، وتنبهت أفكارهم إلى سطوتها وعرفوا رغبتها فى الحروب وثباتها فيها ليتسنى لها إخضاع من يمكنها إخضاعهُ ، فهرع بعضهم إليها مستجيراً ليأمن بوائق الدهر وغدره ، وحاول بعض التخلص من ربقة سلطتها فسأمتهُ خسفاً وأذاقتهُ عذاباً أليماً ، وكان فى جنوب إيطاليا مدينة عظيمة اسمها ترنتوم قد استعمرتها فئة يونانية من أهالى سبرتا المشهورين بالتقشف والبسالة ، فحازت منذ نشأتها مالاً وافراً وسلطاناً عظيماً ، ولما تمادى بها الزمان انغمست فى الملذات والترف ، فأضاعت فى التنعم حبها للقتال وضعفت سلطتها .

ونظر الترنتيون عظمة رومية وانضمام من يجاورها إليها فأشفقوا على أنفسهم منها وألقوا الفتنة بينها وبين كثير من أعدائها القدماء ، لا سيما الأتروريين والغاليين السانويين ، فنشب القتال واحتدمت نار الحرب ، غير أن تلك المعامع انجلت عن فوز الرومانيين بإخضاع الأولين وإبادة الآخرين عقاباً لهم على ما جناه آباؤهم ، أما الترنتيون فكانوا جاهدين فى المحافظة على الحيادة كأن لا علم لهم بما جرى .

واتفق أن فالريوس أحد أميرى المراكب الرومانية دخل مرفأ ترنتوم بعشر سفن، وكان أهلها آخذين حينئذ فى إجراءِ ألعاب عمومية بملعب تجاه البحر ، فوهموا أن الرومانيين آتون بسفنهم للتجسس أو لشن الغارة عليهم ، لأن المنافق الواشى لا يأمن أحداً أو كيف يأمن أحداً ، وهو عدو الجميع فأبطلوا الألعاب وبادروا فى الحال إلى المرفإِ ، فأغرقوا سفينة وقبضوا على أربع وألجأوا الخمس الباقيات إلى الفرار ، وعلم الرومانيون بما لحق بهم من الإهانة ، فأرسلوا إلى ترنتوم سفراء يطلبون إرضاء وتعويضاً ، فسخر الترنتيون منهم وردوهم خائبين ، فكان ذلك كما لا يخفى ضغثاً على إبالة .

وكأن الترنتيين قد صحوا من غفلتهم وانتبهوا إلى سوء عاقبة ما فعلوهُ ، ونظروا إلى من يجاورهم ، فلم يروا أحداً قادراً على مساعدتهم فاستجاروا ببيرس ملك

أبيرس ، وهو أشجع أبطال اليونانيين وقتئذ ، ولما كان فخوراً ومولعاً بالحروب والانتصار ليشتهر ويحاكى اسكندر المقدونى الكبير المعروف بذى القرنين لبى دعوة الترنتيين وأخذ فى الاستعداد .

وكان لهذا الملك الجبار وزير تسالى اسمهُ سنياس قد قرأ على دمستينوس الخطيب اليونانى العلَم ولزمهُ ، فنشأ خطيباً كأستاذه بليغاً يفتن الألباب بسحر بيانهِ ويستميل القلوب بدرر الكلام والحكم ، فنجح فى كل ما فوضهُ إليهِ مولاهُ حتى أن بيرس كان يقول : إن ما اغتنمتهُ بفصاحة وتدبير سنياس لأكثر جداً مما حزتهُ بقوة ذراعى وبطشى وحدث أن هذا الوزير قال لبيرس ذات يوم : يا مولاى ، من المعلوم أن الرومانيين قوم أشداءُ ويتسلطون على أمم كثيرة مشهورة بالشجاعة ، فما الذى نفعلهُ بعد أن نغلبهم .

– أجابهُ بيرس : متى غلبنا الرومانيين لا يبقى لنا منازع فى تلك البلاد ، فنأخذ مدائنها ونستولى على أموالها .

– وماذا نعمل بعد أن نستولي على إيطاليا ؟

– نخضع جزيرة صقلية (سيسيليا) لأنها وإن كانت كثيرة المال والسكان لا تستطيع قتالنا من جراءِ الفتن الأهلية التى أوهت قواها .

– حسن ، ولكن هل نقف عند هذا الحد ؟

– كلا ، بل نجتاز إلى إفريقية وقرطجنة ونستولى على جميع ما هناك ، ثم نسترد مكدونيا ونخضع كل بلاد اليونان .

– أكيد ، ولكن ماذا نعمل بعد ذلك ؟

– فضحك بيرس وأجابهُ : حينئذٍ نعيش عيشة راضية لأننا نقضى أيامنا بالولائم وتعاطى المدام ومنادمة الخلان .

– قال لهُ سنياس : ما الذى يمنعنا الآن يا مولاى من نيل هذه السعادة التى تود الحصول عليها بعد هذه الأخطار العظيمة ؟

إن ما فاه بهِ هذا الوزير الفيلسوف لحرى أن يكتب بماءِ الذهب ، وأن يجعل للناس ما حيوا تبصرة وذكرى لينتبهوا إلى الأسباب الحقيقية التى تخولهم الراحة والسعادة ، لئلا تحملهم الأطماع على ارتكاب الأخطار وتجشم مشقات تجرعهم

غالباً كأس الهلكة ، فما أجهل الإنسان وما أغفلهُ عن الحقائق كأنهُ يحسب التعب أمراً محتوماً عليهِ ، فلا يبرح كاسف البال زائد البلبال متوسداً فراش الهموم والغموم حتى يقع فى براثن الموت ويدركهُ الفناءُ ، وكم من الأغنياءِ الذين لو رضوا بما يملكون لعاشوا هم ومن يلدون أحقاباً عديدة بالراحة والهناءِ ، ولكنهم كلما ازدادوا مالاً زادوا طمعاً وحرصاً حتى يسقطوا عاجلاً أم آجلاً فيما كانوا منهُ يحاذرون .

ولما كان بيرس لا يلهج بغير الحرب والغارات لم ينتصح بكلام وزيره الحكيم ، بل أعارهُ أذناً صماء وأرسلهُ على الفور إلى ترنتوم ليمهد سبيلهُ هناك ويبشر الترنتيين بقرب وصولهِ إليهم ، ثم جمع جيشاً جرّاراً وفيلة سنة (٢٧٩ ق . م) وركب بهم البحر ، وما زالت سفنهُ ماخرة حتى وصلت إلى ترنتوم فاحتلها وجنوده بالعز والإكرام ، وأخذ فى الاستعداد لقتال الرومانيين ، فكانت قنصلهم بما معناه من بيرس إلى لافينيوس سلام قد علمت أنك آت بجيش لمحاربة الترنتيين فأصرفهُ بلا مهل وتعالَ إليَّ وأعرض لى شكواك ، لأننى متى سمعت دعوى الفريقين سأصدر فى هذا الأمر حكماً يجب على كل مراعاتهُ ، إذ الويل لمن يخالفنى .

فأجابهُ لافينيوس : اعلم يا بيرس ، إننا لا نرضاك حكماً ، ولا نخشى غضبك وإنى لأعجب كيف تدعى أن لك الحقَّ بالحكم لنا أو علينا ، وأنت قد أهنتنا باحتلالك هذه البلاد ، أما الحكم الوحيد الذى نرفع إليه الشكوى فهو المريخ ، أبو الرومانيين وحامى جنودهم إذا الخيل باللبات يوماً تعثرت .

حينئذٍ نهض بيرس بجنوده وتقدم إلى نهر سيرس ، حيث كان الرومانيون معسكرين ونظر إليهم فأعجبهُ ترتيبهم وحركاتهم العسكرية ، فالتفت إلى أحد أعوانهِ وقال لهُ : إن نظام هؤلاءِ البرابرة ليس بربرياً (كما أن العرب يدعون أعجم كلٍ من يخالفهم جنساً ومحتداً كذلك اليونانيون كانوا يطلقون اسم البرابرة على كل أمم الأرض ما خلاهم) ، ويظهر أنهُ خافهم فأراد اجتناب المعامع العظيمة لتطول الحرب ويتسنى لهُ الحصول على إمداد محالفيهِ غير أن الرومانيين لم يمكنهم الاصطبار ، فعبروا النهر واندفعوا على الأبيريين بشجاعة وثبات ، فالتقاهم هؤلاءِ بالخيل والرجل ونشبت الحرب واشتد القتال ، ولقد أظهر الملك

بيرس فى تلك المعمعة تدبير قائد محنك خبير وبسالة مقاتل شهير ، وكان إذ ذاك لابساً لباساً فاخراً وسلاحاً بديعاً ، فأصبح مطمحاً لأبصار أعدائه وهدفاً لضرباتهم ، ولقد كاد يفقد حياتهُ ذلك النهار ، لأن فارساً إيطالياً تعمَّدهُ دون سائر الجيش وطعنهُ طعنة أصابت جواده ، فسقط على الأرض سالماً ومات ذلك الفارس بسيوف أعوان الملك .

وحارب الرومانيون فى ذلك النهار حرباً تشيب الأطفال وثبتوا جميعاً ثبات الأبطال لدى هجمات أعدائهم المتتابعة حتى أنهم كادوا يظفرون عليهم ويفتكون بهم فتكاً ذريعاً لولا الفيلة التى أطلقها بيرس ، والتى ألقت فى قلوبهم الرعب لأنهم لم ينظروها قط ولم يعرفوا ما هى ، فرجعوا إلى الوراءِ مدحورين ، ثم ولوا منهزمين فراراً من الموت وخوفاً من الأفيال ، وتركوا معسكرهم غنيمة للأبيريين وأسربيرس منهم فى هذه الوقعة ألفاً وثمانمائة رجل عاملهم معاملة حسنة واعتبرهم غاية الاعتبار لا سيما حينما رفضوا أن يحاربوهُ ويدخلوا فى خدمته .

وطار خبر هذه النصرة فى الآفاق وعدها الناس من خوارق العادة ، لأنهُ وإن يكن بيرس مشهوراً وقد تغلب على أمم كثيرة ، فانكسار الرومانيين وقنصلهم وتركهم معسكرهم غنيمة للأعداءِ لأمر عظيم غير منتظر قد حير الأفكار وفتح باباً لشماتة المبغضين ، والفضل فى ذلك لفيلة الأمير اليونانى لا لرجاله ، كما روت ثقات المؤرخين مع ذلك لم يكن بيرس فرحاً بنصرتهِ ، لأنهُ لما جاءَ إليهِ الترنتيون يهنئونهُ قال لهم : نصرة أخرى كهذه تمحقنا ولم يجزع الرومانيون ولا المجلس من هذا الانكسار ، بل جهزوا جيشاً جديداً وسلموا قيادتهُ إلى القنصل لافينيوس الذى زحف بهِ واعترض بيرس عند رجوعهِ إلى ترنتوم ، فأبى الملك محاربتهُ وانكف راجعاً إلى المدينة .

وأتى ترنتوم رسل رومانيون يرأسهم فابرسيوس البطل الشهير بشجاعتهِ وصدقهِ وأمانتهِ ، وطلبوا مقابلة الملك ليخابروه بشأن تخلية سبيل الأسراء ، فظنهم بيرس بادىءَ بدء آتين لكف العدوان وطلب السلام ، ففرح واستبشر غير أنهُ لما علم أمرهم خلا بفابرسيوس ، وقال له : قد سمعت وتأكدت أنك رجلٌ فاضلٌ كريم، ويسوءُنى جداً أن أراك فقيراً ، فأود أن أمنحك مالاً وافراً لتحاكى أشرف الرومانيين غنى واقتداراً ، ولست أسألك مقابلة لذلك سوى أن تجهد فى عقد الصلح وكف

القتال ، لأنهُ لا يليق بى الرحيل من هذه الديار قبل أن أعقد للترنتيين واليونانيين القاطنين فى إيطاليا صلحاً موافقاً لهم ولا تعجب من رغبتى فى السلام ، لأن لى شغلاً شاغلاً يستلزم حضورى عاجلاً إلى بلادى ، وإذا رأيت مجلسكم لم يركن إلىَّ لكونى ملكاً ، وكون ملوك كثيرين قد نقضوا العهود غير مبالين ، فالتمس منك أن تكون كفيلى لديهِ ، وإذا رمت أن تأتى أبيرس بعد ذلك ، فلك منى ما تريد لأنى مفتقرٌ إلى رجلٍ فاضل وصديق صدوق ، وأنت محتاج إلى ملك كريم يقدرك حق قدرك ويمكنك من إظهار فضلك فى إنهاءِ أعماله العظيمة التى سيفوضها إليك ، فلنتعاهد إذاً على الصداقة الصادقة العائدة على كلينا بالخير والسعادة .

أجابهُ فبرسيوس : أنا فقير كما قلت ، لأنى لا أملك سوى بيت حقير وقطعة أرض أحرثها بيدىَّ وأعيش من غلتها ، أما فقرى فلا يحط مقامى بين مواطنىَّ الذين يقدرونى حق قدرى ويعتبرونى من الكبراء الواجب إكرامهم ، كيف لا ورومية لا تعتدُّ بالمرء إذا لم يكن فاضلاً ونشيطاً ، وقد تقلدت عدة مناصب عالية وأحرزت فخراً عظيماً ، فالذى تخاله سبباً للإهانة هو عندنا عين الفخار ، ولو كنت أرغب فى الثروة وأحب حشد الأموال لأمكننى ذلك عند فتحى المدائن وقهرى الأبطال والجيوش ، ولكننى لا أبالى باللجين والنضار وأرى المجد كل المجد فى إتمام واجباتى لأكون طاهر الذيل وواسع الشهرة .

وأراد بيرس أن يختبر شجاعة فابرسيوس ، فدعاهُ إلى مكان للمخابرة ، وأمر أحد رجالهِ أن يأتى بأكبر الأفيال ويطلقهُ عليهِ حين حضوره ، فلما جاءَ وجلس هجم الفيلَ عليهِ بغتةً ومدَّ خرطومهُ فوق رأسهِ فلم ينزعج البتة ، بل التفت إلى الملك وقال لهُ وهو يبتسم : إنى لا أبالى بذهبك ولا بأعظم أفيالك .

وحدث عند المساءِ أنهم خاضوا فى حديث علماء الأدب وفلاسفة اليونانيين ، فأخذ سنياس يتكلم عن أبيقورس ويشرح قواعد فلسفتهِ قائلاً : إن الآلهة لا تحب ولا تبغض ولا تشفق ولا تغضب ولا تبالى بالبشر على الإطلاق لا يهمها شغل ولا تشغلها عناية ، بل هى منهمكة أبداً بالمسرات ، وعليه فالانشراح هو أعظم نعمة يحرزها الإنسان والحكيم من نبذ الفخار والعظمة ظهرياً ، لأنَّ كل ذلك يذهب بالسعادة الحقيقية ، فصرخ فابرسيوس حينئذٍ وقال : أيتها الآلهة فلتكن

هكذا تعاليم أعدائنا حتى ننتصر عليهم ، وأخفق مسعى الملك فى إقناع فابرسيوس أن يتوسط لهُ الصلح ، فأرسل وزيرهُ سنياس إلى رومية ليخابر المجلس بذلك وأصحبهُ بالتحف الثمينة للكبراء ، ولما كان سنياس كما تقدم المقال طلق اللسان بليغاً أمكنهُ استرضاءُ كثير من الآباءِ ، وكاد يفوز بالمنى لولا أبيوس الشيخ الذى على رغم أسقامهِ ووهن قواه أتى دار الندوة محمولاً على كرسى ، وخطب خطاباً أنيقاً أعربَ فيه عما يجب فعلهُ اتقاءً للحدثان وصيانة لشرف الرومانيين ، وكان لخطابهِ هذا وقع عظيم فى قلوب الحاضرين ، فأجمعوا جميعاً على رد الوزير اليونانى ، وعدم إنالتهِ سؤْلهُ بقولهم : إننا لا نخابر بيرس بصلح ، ولا نعاهده بعهد طالما هو محتل إيطاليا ، ولكننا سنبذل الجهد فى مداومة حربهِ ولو انتصر على ألف قائد مثل لفينيوس ، فغادر سنياس فى ذلك النهار رومية ورجع إلى ترنتوم ، قيل : إن بيرس سألهُ عند رجوعهِ كيف رأيت مدينة الرومانيين ومجلسهم ؟ أجابهُ : أن رومية نظير هيكل ومجلسها كمؤتمر ملوك .

وفى سنة (٢٧٧ ق . م) كان فابرسيوس قنصلاً وقائداً للجيوش ، فأرسل إليهِ رئيس أطباء بيرس كتاباً يعرض فيهِ رغبتهُ فى سمّ الملك لإنهاء الحرب وإراحة العباد من شره إذا كان الرومانيون يجيزونهُ على ذلك ، فأنف من دناءَة ورداءة هذا الطبيب الخائن اللئيم ، وكتب فى الحال إلى الأمير اليونانى ما يأتى من فابرسيوس وإميليوس القنصلين إلى الملك بيرس سلام :. قد أخطأت أيها الملك فى انتقاءِ أصدقائك وأعدائك ، لأنك متى قرأْت الكتاب المرسل إلينا من أحد أعوانك تعلم أنك تقاتل أناساً أمناءَ فاضلين ، وتأمن رجالاً طغاماً خائنين ، وأننا قد بادرنا إلى إعلانك الخطر المحيط بك لا رغبة فى صيانتك أو التزلف منك ، ولكن فراراً من قول قائل : « إننا لم نستطع قهرك علناً » ، فعمدنا إلى الخبث والخيانة ، حكى بعضهم : أن بيرس حينما بلغهُ ذلك قال : « إن تغيير سير الشمس فى قبة الفلك لأيسر من إفساد أخلاق فابرسيوس الشهم العادل » .

وكان السيسيليون قد خضعوا من مدة للقرطجنيين فكرهوا حكم الأجنبى وسلطة الغريب ، وطلبوا إلى بيرس أن يأْتى بلادهم ليعينهم على طردهم منها ، فلبى بيرس دعوة الداعين وأقبل إليهم بجيوشهِ الجرارة وأفيالهِ وقاتل القرطجنيين قتالاً لا يبقى ولا يذر ، فالجأهم إلى ترك الجزيرة فراراً من بطشهِ وبأسهِ ، ولما خلا لهُ

الجو وصفا الزمان عمد إلى ارتشاف كؤُوس الهناءِ والمسرات مجرعاً الأهلين من فعاله مرارة العلقم ، فسئموا منهُ وملوا الحياة لظلمهِ وانقسموا أحزاباً دعا كل منها بعضاً من الغرباء لإنقاذهم ، فأسرع إليهم القرطجنيون بجنودهم وعملوا معهم على نكايتهِ وتنكيلهِ ، وحدث فى ذلك الوقت أن الترنتيين ومحالفيهم باتوا من حرب الرومانيين بعد رحيل الأمير اليونانىّ فى ضيق الخناق ، فأرسلوا إليهِ رسلاً يسألونه إمداداً ، فحضر إليهم على جناح السرعة لأنهُ أصبح فى سيسيليا محفوفاً بالعناءِ والأخطار .

حكى المؤرخون : أنهُ قال عند تركهِ الجزيرة : ما أعظم هذا المكان الذى نتركهُ ساحة لقتال الرومانيين والقرطجنيين .

وأحيا بيرس بقدومهِ روح الشجاعة فى قلوب الترنتيين ، فنشطوا إلى القتال وخرجوا معهُ للكر والكفاح ، وكان الرومانيون قد أقاموا قنصلاً كوريوس الشهير فى الزهد والبسالة ، وسلموا إليهِ قيادة الجنود ، فالتقى الجيشان بالقرب من مدينة بنيفنتوم ، فنشبت الحرب وكانت مهولة ، ويلوح أن الرومانيين قد اعتادوا منظر الأفيال ، فلم ترعهم ألبتة ، بل كانوا يقطعون خراطيمها بسيوفهم أو يرمونها بسهام مشتعلة ، فكانت تنفر مذعورة وترتدّ إلى الوراء فتدوس الأبيريين ، ولم يستطع بيرس الثبات فى ذلك النهار أمام أعدائهِ ، بل ولى هارباً وترك معسكرهُ غنيمة للرومانيين ، وبعد أن أقام بضعة أيام فى ترنتوم غادرها ورحل سنة (٢٧٤ ق . م) إلى أبيرس ، ولما كان هذا الملك لا يرتاح إلى السلام ولا يعرف راحة بغير الحروب والأتعاب بادر سنة (٢٧١ ق . م) إلى محاصرة أرغوس فى بلاد اليونان ، وكاد يستولى عليها لو لم يخر صريعاً بحجر رمتهُ بهِ إحدى النساءِ من سطح بيتها .

وأخضع الرومانيون ترنتوم سنة (٢٧١ ق . م) وحاربوا الأمم الباقية التى حاربت بيرس أو جاهرت بالعدوان ، فأذلوها واستولوا على مدائنها ، وهكذا امتدت سلطتهم على شعوب إيطاليا كافة وأصبحت رومية أم المدائن حقيقة وعاصمة تلك البلاد .

* * *

الباب الرابع

من ابتداء الحرب القرطجنية الأولى

(سنة ٢٦٤ ق . م) إلى انتهاء الحرب الثانية (سنة ٢٠١ ق . م)
أو من سنة (٤٨٩ إلى سنة ٥٥٢ ب . ر)

توطـئة

إن ما فاه بهِ بيرس عند رحيلهِ من سيسيليا سيتم قريباً ، لأن هذه الجزيرة ستصبح عن قليل ساحة لقتال الرومانيين والقرطجنيين ، وستحدث فيها حروب مهولة وشهيرة فى تاريخ الإنسان .

أما الأمير الأبيرى فلم يقل ما قالهُ بوحى وإلهام ، ولكنهُ رأى هاتين الأمتين آخذتين فى افتتاح المدائن والبلدان بسرعة عظيمة وتتقاربان كل سنة أكثر فأكثر ، فلم يعسر عليهِ الجزم أنهما ستتعاديان ، ولما كان موقناً أن الرومانيين سيخضعون إيطاليا قبل أن يتسنى للقرطجنيين الاستيلاء على سيسيليا علم أن الجزيرة المذكورة ستكون داعياً إلى النزاع وشبوب نار حرب لا تهمد إلا بإذلال الفريقين .

وإننا نذكر فيما يأتى من الكلام سبب هذه الفتنة الكبرى الناتج بلا ريب عن انقسام الجزريين وتضعضع أحوالهم مع الإلماح إلى تاريخ عدوة رومية فكاهة للقراء وتتمة للفائدة ، فنقول : إن أغاتوكلس ملك سيراكوزا استأجر أيام ملكهِ عدداً عديداً من الكامبنيين الذين دُعوا ما مرتنيين واستخدمهم عساكر وأعواناً لهُ ، ولما مات هذا الأمير لم يحفل السيراكوزيون بالمامرتنيين المذكورين ، بل ساموهم خسفاً ، فرحل هؤلاء إلى مسينيا وحلوا فيها ضيوفاً مكرمين ، إلا أنهم خانوا الأهلين ، فذبحوا قسماً منهم وطردوا الباقين واستولوا على أملاكهم وزنوا بنسائهم ، وحينما أتى بيرس إيطاليا أوجس سكان ريجيوم خوفاً منهُ وأشفقوا على أنفسهم من القرطجنيين ، فطلبوا إلى مجلس رومية أن يمدهم بالجنود ، فأرسل إليهم المجلس جيشاً جهزهُ من كامبنيا ، فمشى هؤلاء الكامبنيون بادىءَ بدءٍ على سنن العدل والإنصاف طائعين أوامر قوادهم ، غير أنهم لم يلبثوا زمناً طويلاً حتى فسدت أخلاقهم لكثرة ملاهى المدينة ووفرة أسباب التنعم والترف فأبطرتهم النعمة وعاملوا سكان ريجيوم بقساوة بربرية ، كما عامل إخوانهم المامرتنيون أهالى مسينيا .

ولم يقدر الرومانيون حينئذٍ أن يقاصوا هذه الفئة العاصية الطاغية جزاء لها على ما جنتهُ من سوءِ الفعال وشرِّ المساوىء لاشتغالهم بحرب بيرس وحلفائهِ ، فلما

خلا لهم الجو ورحل بيرس من البلاد مدحورا أرسلوا كتيبة إلى ريجيوم وحاصروها واستولوا عليها عنوة وقتلوا مَنْ قتلوه من أولئك العصاة وقادوا الباقين إلى رومية مكبلين بالسلاسل ، وبعد أن جلدوهم جلداً عنيفاً أدمى منهم الأبدان ضربوا أعناقهم وأرجعوا سكان ريجيوم الأولين إلى وطنهم وردوا عليهم عقارتهم وما فقدوهُ .

وأغار أيرون ملك سيراكوزا بعد ستة أعوام على المامرتنيين ، فأذاقهم حرباً تشيب الأطفال ، فولوا منهزمين إلى مدينتهم مذعورين وباتوا بها حائرين فى أمرهم لا يدرون ما يفعلون فاستصرخ بعضهم القرطجنيين ، وسلم إليهم القلعة وأرسل بعضهم سفراء إلى رومية يطلب أمداداً ، فنظر الرومانيون إلى هذا الأمر نظرة عادل حكيم ، لأنهم عرفوا ما دون إسعاف هؤلاءِ الطغام من الإهانة والعار كيف لا ، وهم الأولى قد أماتوا عساكرهم الكامبنيين الذين اعتدوا على أهل ريجيوم شر ميتة ، وجعلوهم عبرة للبشر ليتأدب الطاغى ويعدل القوم الظالمون ، لكنهم رأوا القرطجنيين قد ملكوا قسماً كبيراً مخصباً من أفريقيا ، واستولوا على جزء من أسبانيا ، وفتحوا سردينيا وجزر إيطاليا ، وامتدت سلطتهم على مدن كثيرة فى سيسيليا ، فعلموا علم اليقين أنهم إن لم يبادروا إلى قتالهم يملكوا قريباً مسينيا وسيراكوزا وسائر مدن هذه الجزيرة العظيمة ، فتصبح إيطاليا وسكانها فى خطر عظيم منهم ، فقرَّر المجلس إرسال الجيش لمحاربتهم وسلم قيادتهُ إلى القنصل أبيوس ، قيل : إن أبيوس هذا لكى يتجسس أحوال الأعداء ويكون على بصيرة فى قتالهم ذهب إلى مسينيا وحدهُ ، وتولى قيادة الجيش المامرتيني وحارب القرطجنيين وأكرههم على تسليم القلعة ، ثم رجع إلى إيطاليا وأخذ فى الاستعداد ليجتاز وجنودهُ إلى سيسيليا كما سيأتى بيان ذلك فى الفصل الأول من هذا الباب .

* * *

قرطجـنة

قال المؤرخون : إن أليسا الأميرة الصورية المعروفة بديدو تزوجت خالها أو عمها أسرباس المشهور وقتئذ بالثروة فى تلك البلاد ، وكان أخوها بيغماليون ملك صور طمعاً بخيلاً ، فقتل أسرباس ليستولى على أمواله الوافرة ، أما ديدو فلم تمكنهُ من ذلك ، بل جمعت تلك الأموال ورحلت مع كثيرين من أصدقائها وتابعيها إلى ساحل أفريقيا بين تونس وأتيكا (الآن أبو شاطر) ، وابتاعت قطعة أرض من الوطنيين وبنت فيها دسكرة دعتها « بيرسا » ، سكنت بها هى ومن تبعها ، ثم بنت بعد ذلك مدينة قرطجنة المدعوة « قرطادو » باللسان الفينيقى ، أى المدينة الجديدة ، وكان القرطجنيون الأولون يحبون السلام ولا يميلون لغير التجارة وحشد الأموال ، وكانوا ينقدون الوطنيين كل سنة مقداراً من الدراهم كجزية أو أجرة الأراضى التى أخذوها منهم ، إلا أنه لما قويت شوكتهم وكثر مالهم أنفوا من ذلك ورفضوا دفع الجزية المفروضة عليهم ، فحاربوا الوطنيين وأخضعوا كثيرين منهم ، ثم سرت فيهم روح الافتتاح ومحبة الغزوات ، فاستولوا على الجزر القريبة منهم وفتحوا مالطة وغيرها ، وأرسلوا من مدينتهم أقواماً يستعمرون سواحل أفريقية من أعمدة أركيلس (بوغاز جبل طارق) إلى جون سيرتس الكبير (فى أراضى طرابلس الغرب) ، وما زالوا ناجحين فى أعمالهم آمنين حتى دهمهم الرومانيون فى سيسيليا ونشبت الحرب القرطجنية الأولى التى أضرم نارها الحسد والطمع .

* * *

الفصل الأول

وعلم القرطجنيون باستيلاءِ أعدائهم على قلعة مسينيا فغضبوا وهاجوا هيجاناً عظيماً ، وأمروا فى الحال بصلب القائد وإرسال جيوش جديدة وأسطول منيع ليحاصروا مسينيا براً وبحراً ، وحالفهم فى ذلك الحين أيرون ملك سيراكوزا وزحف بجنوده لمساعدتهم ومحاربة المامرتنيين شفاءً لغليلهِ وانتقاماً من هذه الفئة العاتية الطاغية .

وأتى إذ ذاك أبيوس القائد الرومانى بعساكره واحتل مدينة رجيوم ليجتاز منها إلى مسينيا وينتصر لأهلها غير أنهُ رأى دون ذلك خرط القتاد ، كيف لا وسفن القرطجنيين قائمة لهُ بالمرصاد لترقب حركاتهِ وتفتك بهِ متى ركب البحر ، وأصبح فى قبضتهم لأنهم كانوا ملوك البحار لا يغلَبون ولا يجارون فى ميدانها ، فارتدَّ إلى الوراءِ كأنهُ راجع إلى رومية ، فاغتر القرطجنيون بحيلتهِ وابتعدوا عن ذلك المكان ، فتربص أبيوس قليلاً حتى إذا كانت ليلة حالكة الأديم ركب ومن معهُ السفن التى أعدها لهم الترنتيون وغيرهم واحتلوا مسينيا آمنين .

ولم ترع أبيوس كثرة عدد الأعداءِ ووفرة عددهم ، بل خرج بجنوده وقاتل أيرون ملك سيراكوزا فكسرهُ وبدد شمل عساكره وجمع الأسلاب ، ورجع إلى المدينة غانماً ظافراً ، وكأن أيرون قد فطن إلى ارتكابهِ الشطط بمساعدتهِ القرطجنيين على أهل بلاده وتمهيده بذلك لهم سبل إخضاعهِ وإذلال السيسيليين كافة ، فارتد إلى مدينتهِ وأقام فيها صابراً ليرى ما يكون .

ونشط أبيوس بعد هذه النصرة إلى الكر والكفاح ، فتقدم حالاً إلى معسكر القرطجنيين ودهمهم بغتة ففتك بهم فتكاً ذريعاً وألجأهم إلى الفرار ، ثم جال فى البلاد وغزا مدنها وأتى سيراكوزا وألقى عليها الحصار وأمدَّ الرومانيون إذ ذاك جنودهم فى سيسيليا بفرق جديدة ، فتعزَّزت شوكتهم وزادت قوتهم هناك ، ففتحت لهم مدن كثيرة أبوابها وسلمت إليهم حصونها رغبة فى محالفتهم ، ورأى أيرون أن محالفة الرومانيين أجدى لهُ نفعاً من محالفة القرطجنيين ، فخابرهم فى ذلك وعاهدهم عهداً صادقاً لم يحل عنهُ حتى الممات ، وكان هذا الملك محباً لرعاياه وراغباً فى نفعهم ، فعاش محبوباً ومكرماً من الجميع .

وجرت بعد ذلك بين القرطجنيين والرومانيين عدة معامع ، لا سيما بالقرب من مدينة أكرجنتوم ، حيث كان القرطجنيون متجمعين وكان الظفر خاضعاً للواءِ الأمة الرومانية فانتصرت على أعدائها واستولت سنة (٢٦١ ق . م) على مدينة أكرجنتوم المذكورة ، فأذلت أهلها وسلبتهم أموالهم .

ولما كانت قرطجنة سلطانة البحار لم يمكن الرومانيين الاستيلاء على جميع سيسيليا ، لأن المدن البحرية أبت الخضوع لهم خوفاً من أعدائهم القرطجنيين وعلمت رومية أنهُ لا يستتب لها الأمر إلا ببناءِ سفن حربية ، لتحاكى عدوتها ، وتمنع هجماتها على سواحلها متى سنحت لها الفرصة ، ولكن أنى لها ذلك وهى لا تعرف من تلك الفنون الدقيقة شيئاً .

وحدث أن سفينة قرطجنية صغيرة قذفتها الأمواج إلى البر ، فأخذها الرومانيون مثالاً لبناء سفنهم الحربية وأقبلوا على العمل بحذاقة وثبات ونشاط ، فأنجزوا فى مدى شهرين مائة وعشرين سفينة التى وإن تكن بطيئة الحركة فى سيرها لجهل أو عدم خبرة صانعيها فهى تشهد بذكاءِ هذه الأمة وعلو مداركها ، وتظهر لنا جلياً للاجتهاد والثبات من المنفعة فى أعمالِ البشر .

ولما كان الرومانيون لا يمكنهم مجاراة أعدائهم بمراكبهم هذه استنبطوا آلة دعوها الغراب ، وهى أشبه بجسر يلقونه فى سفن القرطجنيين ويمرون عليهِ ليكافحوهم وينازلوهم فى مراكبهم ، كأنهم وهم فوق لجج البحار خائضون عجاج الحرب فى سهل عظيم ، ولقد أفادهم هذا الاستنباط فوق ما كانوا يأملون لأن القرطجنيين لم يبالوا بهم ولم يعلموا بما دبروهُ ، فهجموا عليهم سنة (٢٥٩ ق. م) باحتقار وبلا ترتيب ، فبادر إليهم الرومانيون بآلاتهم وأمسكوهم بها كى لا يمكنهم الفرار ، ثم انقضوا عليهم انقضاض الصواعق فقتلوا منهم عدداً عديداً واستولوا على بعض سفنهم وأغرقوا البعض ، ولم يفلت من أيديهم سوى نزر رأى العبرة فى غيره ، فاعتبر وولى هارباً فراراً من الموت الزؤام .

أما دويليوس ، أمير المراكب الرومانية ، فاحتفل بنصرتهِ هذه ببهجة لم يرَ قط مثلها فى الأعصر السالفة ، ومنح حقوقاً وحاز إنعامات لم ينلها قط قائد قبلاً ، وأقيم لهُ فى الفورم تذكاراً لغلبتهِ عمود رخامى أبيض نقش عليه صورة مقدَّم سفينة وكتابات أخرى ، فكان كل ذلك دليلاً بيناً على سرورهم العظيم بانتصارٍ لم يكن

مأمولاً ، واستولوا بعد هذا على جزيرتى كورسيكا وسردينيا وقهروا القرطجنيين فى عدة مواقع بحرية ، وكان الظفر تابعاً للوائهم حيثما ذهبوا وأينما حلوا .

وفى سنة (٢٥٥ ق . م) كان رغولس أحد القنصلين قائداً للجيوش البرية والبحرية ، فبعد أن انتصر مراراً على القرطجنيين أُمر بالذهاب إلى أفريقيا لمحاربتهم فى بلادهم . قيل : إن القنصل لما بلغهُ هذا الأمر تكدر جداً وكتب إلى المجلس يقول : إنهُ عند وفاة مزارعهِ قد فوض أمر قطعة أرضهِ الصغيرة إلى أجيرٍ يظنهُ استلب آلات الزراعة والبذار وعليهِ فحضورهُ واجب لينظر فى أمر القيام بأود امرأتهِ وأولاده ، فقرر المجلس حينئذٍ تعويضهُ مما خسرهُ والاعتناء بأرضهِ وتقديم النفقات اللازمة لعائلتهِ من الخزينة العمومية ، فاطمأن لذلك بالهُ وذهب إلى البلاد الأفريقية فاستولى على مدن كثيرة منها ، وكسر الجيوش القرطجنية بالقرب من مدينة قادس ، ثم زحف إلى تونس وملكها وأخذ يضايق القرطجنيين .

روى : أن رغولس إذ كان سائراً فى البلاد الأفريقية أتى وعسكر على ضفاف نهر باغرداس (الآن نهر المجردة) الذى يصب فى البحر بالقرب من قرطجنة فلقى ثعباناً طولهُ مائة وعشرون قدماً كان يبتلع الرجال عند مجيئهم إلى النهر ليستقوا ، وكانت حراشف هذا الثعبان ثخينة جداً حتى أن السهام لم تكن تؤثر فيها ، فبنوا الحواجز والمتاريس وشرعوا فى محاربتهِ كأنهم يحاصرون حصناً حصيناً ، فقتلوهُ وبعثوا بجلده إلى رومية ، ولقد أسهب بعضهم فى الكلام عنهُ وحكى نوادر يصعب تصديقها ، والمظنون أن هذا الحيوان تمساح عظيم جداً ، وحيث إن الرومانيين لم يعرفوا وقتئذٍ التماسيح ولم يروها قط حسبوهُ ثعباناً وبالغوا فى وصفهِ لغرابتهِ .

ونظر القرطجنيون إلى انكسارهم وضعفهم وتضعضع أحوالهم ، فأرسلوا رسلاً إلى رغولس يسألونهُ السلام ، وكان رغولس قد أبطرهُ الانتصار فاحتقر أعداءَهُ وطلب لعقد الصلح شروطاً تذلهم وتذهب بهم إلى دركات الضعة والخمول ، وقال لهم : من الواجب على الإنسان أن يقهر عدوَّهُ أو يخضع لأحكامهِ بطاعة عمياء ، فأنف القرطجنيون من ذلك الطلب وعولوا على ركوب

متن الأخطار واقتحام الأهوال ، لأنهم رأوا شرب كأس الحمام فى ساحة القتال أهون من الذل بعد الافتخار .

وأحضر القرطجنيون فى ذلك الأوان عساكر يونانية من سبرطا ، وكان كزانتبس قائد هذه العساكر رجلاً خبيراً بالفنون الحربية ، فعلّم القرطجنيين نظاماً جديداً ، وخرج بهم وبجيشه لمحاربة الرومانيين ، فنشب القتال وكان رغولس قد احتقر الأعداءَ فلم يكترث لهم وهجم عليهم برجاله مطمئناً كساعٍ لإدراك المفاخر والمنى، فانكسر أمامهم ووقع أسيراً فى يدهم وقتل القَرطجنيون فى ذلك النهار من جنوده عدداً عديداً ، سقوط رغولس يعلمنا الاتضاع ووجوب الاحتراس إبّان النجاح من غدر الدهر وصروف الزمان ، لئلا يذهب بنا الصلف إلى حيث لا نرغب ، ونجاح القرطجنيين يظهر لنا صحة ما قالهُ أحد الحكماء : إن رجلاً عاقلاً أفضل من جهالٍ كثيرين ، وإن القائد الخبير إذا لم يحترس من الدهر يصبح كواقف على شفا جرفٍ هارٍ ويكون سقوطهُ لا محالة قريب .

ومضت سنوات لم يحدث فيها سوى وقعتين مهمتين نال الرومانيين فى كلتيهما الظفر :

إحداهما : وقعة بحرية جرت سنة (٢٥٩ ق . م) بالقرب من رأس مركورى (الآن رأس الدار) خسر فيها القرطجنيون مائة وأربع عشرة سفينة .

والأخرى : جرت سنة (٢٤٩ ق . م) فى أراضى بانورمس (الآن بالرمو) قتل فيها قسم عظيم من الجنود القرطجنية فى سيسيليا وأُسر منها أيضاً رجالٌ كثيرون ، فعادت لذلك روح الشجاعة والحمية إلى صدور الرومانيين وعولوا على تجهيز جيوش جديدة لإنهاءِ حرب دموية قد شب سعيرها من زمان طويل .

وفى سنة (٢٤٩ ق . م) أرسل القرطجنيون إلى رومية رغولس ليتوسط لهم الصلح أو مبادلة الأسراء ، وحلفوهُ يميناً أن يعود إلى قرطجنة إذا أخفق مسعاهُ لدى المجلس الرومانىّ وأصحبوهُ بسفراء ليبلغوا هذه الرسالة ويكونوا شهوداً على صدق مخابراتهِ ، ولما وصلوا إلى رومية أبى رغولس أن يدخل إليها قائلاً : إنهُ خسر حقوقهُ الوَطنية لكونهُ عبد دولة أجنبية ، وأنهُ لم يأتِ ليخالف قوانين وعوائد بلاده المانعة المجلس عن مواجهة الغرباء داخل الأسوار ، وجاءَت إليهِ امرأتهُ وأولادهُ ليشاهدوهُ ، فلم يحفل بهم ولم ينظر إليهم ، بل أطرق إطراق مستحيٍ

من عبوديتهِ وغير آهل للإكرام ، فاجتمع الآباء خارج المدينة وأمروا الرسل بعرض حاجتهم ، ثم تذاكروا ملياً وسألوا رغولس عن رأيهِ فى هذا الأمر ، فأجابهم : أيها الآباء ، إننى عبد قرطجنى قد أرسلنى مولاىَ لأخابركم بشأن الصلح أو مبادلة الأسراء ، فألحَّ عليهِ المجلس بأن يقول بحرية ما يرتئيهِ، فأجابهم: أيها الرومانيون إننى موقن بمللكم من هذه الحرب التى تجشمتم لأجلها مشقات عظيمة فاعتصموا بالثبات ، لأن الثبات واجب لدى النوازل الجلى واعلموا أن القرطجنيين فى ضيق عظيم ، إذ شتان بين حالتكم وحالتهم ، فالنصر كان فى الغالب معقوداً بلوائكم وجزيرة سيسيليا ما خلا مدينتين منها هى ملك لكم ، وسفنكم العديدة تمخر البخار وتلقى الرعب فى قلوب من ناوأكم وأن أمركم لمطاع حيثما تملكون ، وحلفاؤُكم يتبارون فى خدمتكم متفاخرين ، أما قرطجنة فقد نفد مالها ولا تأمن حلفاءَها كثيراً ، وإذا نظرتم إلى جيوشكم ترونها مؤلفة من رجال أمة واحدة تربطها عرى المحبة والوطنية ، أما جيوش قرطجنة فمؤلفة من رجال غرباءَ قد تجندوا طمعاً فى المال ، وبناءً عليه لا أوافقكم ألبتة فى مهادنة أعدائنا ، ولا أرى مبادلتهم الأسراء رأياً سديداً ، لأنَهُ يوجد عندكم فى الأسر ثلاثة عشر قائداً فتيّاً قادرون على محاربتكم متى سنحت الفرصة ، أما هم فلم يأسروا قائداً غيرى ، وإننى الآن قد شخت فلا تأملوا منى نفعاً ، والأسراءُ القرطجنيون الباقون لأكثر جداً من أسرائنا ، فإذا بادلناهم نكون نحن الخاسرين .

فقرر المجلس ما ارتآهُ هذا الشهم الشجاع ، ورد رسل القرطجنيين خائبين ، إلا أنهُ سمح لرغولس أن يبقى فى رومية إذا أراد لأن يمينهُ فاسدة لكونه أكره على حلفها ، أما هو فلم يبالِ أو بالحرى لم يرد أن يبالى بتوسلات أصدقائهِ وبنحيب امرأتهِ وأولاده ، بل رجع إلى قرطجنة غير جاهل العذاب المعدّ لهُ هناك ، وهكذا آثر هذا الباطل العظيم أن يتجرع الموت الزؤام على أن يحنث بيمينهِ ، ولما وصل إلى قرطجنة وعلم القرطجنيون بما قال وفعل فى رومية حكموا عليهِ بعذابات تقشعر منها الأبدان ، ثم أماتوهُ صلباً .

وأهاج موت رغولس دواعى البغض والشحناء فى قلوب الرومانيين فأثاروا على القرطجنيين فى الجهة الغربية من سيسيليا حرباً عواناً دامت تسعة أعوام ، قُهروا فيها مراراً إلا أنهم انتصروا أخيراً على أعدائهم واستولوا على مدينة ليليبوم (الآن

مارسلا) ، وهى أحصن مدينة فى تلك البلاد ، وحطموا سفنهم الحربية سنة (٢٤١ ق . م) بالقرب من جزر أَغاتس وأكرهوهم على طلب السلام ، فعُقد الصلح سنة (٢٤٠ ق . م) ، وبناءً عليهِ تكون مدة الحرب القرطجنية الأولى أربعاً وعشرين سنة .

أما الشروط التى اتفقت عليها الأمتان فهى هذه :

أولا : يجب على القرطجنيين أن يخلوا كل بلاد سيسيليا والجزر المجاورة لها .

ثانياً : يلزمهم تسليم الأسراء الرومانيين بلا فداء .

ثالثاً : ينقدون الرومانيين بمدى عشر سنوات ثلاثة آلاف زنة فضة .

رابعاً : لا يمكنهم محاربة الملك أيرون ولا أحداً من حلفاءِ رومية ، ولا يمكن الرومانيين أيضاً الاعتداء على حلفاءِ قرطجنة .

خامساً : لا يمكن أحد الفريقين المتعاهدين بناءُ حصن فى أراضى الآخر ، ولا تجهيز عسكر من البلاد الخاضعة لهُ .

سادساً : لا يمكن أحداً منهما أيضاً أن يتحد مع حلفاءِ الآخر .

وجعلت جزيرة سيسيليا ما عدا سيراكوزا ولاية رومانية ، أى أنهُ يحكمها وال رومانى يغير فى كل سنة ، وتكون خاضعة لقوانين وشرائع رومية ، وأُرسل إليها خازن لجباية المكوس التى فرضت على الأهلين ، وكانت هذه المكوس على نوعين: إما مقررة وهى : مقدار معين من الدراهم ينقدونهُ للخزينة كل عام نظير جزية ، وغير مقررة وهى : عشور الغلال والرسوم المأخوذة على البضائع الصادرة والواردة .

* * *

الفصل الثانى

إن بخل وطمع القرطجنيين الذين اعتادوا تفضيل الدراهم على كل شيء فى العالم أثار عليهم فتنة كبرى وحرباً عواناً ذاقوا من هولها عذاب السعير ، وذلك أنهم رفضوا تأدية أجرة الجنود التى استأجروها لمحاربة الرومانيين أو بالحرى أرادوا تخفيض تلك الأجرة غير عالمين أن دون ذلك خرط القتاد ، لأنهُ كيف يمكن رجالاً غرباء قد أقدموا على سفك دمائهم للانتصار لهم رغبة فى المال ينصرفون عنهم بسلام إذا لم ينقدوا أجرتهم المعينة بالتمام ، وأى إنسان عادل يستحل صرف جنودٍ قد خاطرت بحياتها فى خدمتهِ ولا يعطيها مكافأة على تلك الخدمات ، أو من يا ترى يستطيع أن يهتضم حقوق قوم لا يمكنهُ قتالهم ، ولقد ارتكب القرطجنيون فى هذا الأمر غلطاً فادحاً بأن سمحوا لأولئك الغرباء فى الاجتماع خارج المدينة وبإرسال أولادهم ونسائهم إليهم ، لأنهُ كان أجدر بهم أن يفرقوهم ليضعفوهم ، وأن يقبضوا على أولادهم ونسائهم كرهائن لإكراههم على الطاعة والانقياد لأوامرهم وإن تكن ظالمة .

ولما رأى هؤلاء الغرباء ما آل أمرهم إليهِ هجموا على المدينة وحاربوها ، ونهض لمساعدتهم النومديون (سكان جزائر الغرب) الذين ثاروا وقتئذٍ فى طلب الحرية ، فدامت الحرب ثلاث سنوات وأربعة أشهر ، ولم تنتهِ إلا على يد أملكار القائد القرطجنىّ الذى أحاط بالأعداء إحاطة الأسورة بالمعاصم ، فمنع القوت والإمداد من الوصول إليهم ، فمات بعضهم جوعاً وبعضهم قتلاً ، وأُسر الباقون وصلبوا ، ودعيت هذه الحرب « الحرب غير المغتفرة » لسبب الفظائع التى جرت والقساوة البربرية التى أظهرها الفريقان المتحاربان .

ويلوح أن الرومانيين لم يفرحوا بضيق أهالى قرطجنة من جراءِ هذه الفتنة ، ولم يسعوا فى زيادة ضعف هذه المدينة الشهيرة ليعلوا بخرابها صرح مجدهم ، بل حافظوا على شروط العهدة وساعدوها مراراً كأصدقاءَ وخلوا سبيل رجالها الذين أسروهم فى الحرب السيسيلية ، وسمحوا للتجار الرومانيين أن يمدوها بما يعوزها وقطعوا صلاتهم الحبية والتجارية مع أعدائها ، وحدث أن شعب أتيكا

(أبو شاطر) عصى القرطجنيين وطلب تسليم المدينة إلى الرومانيين ، فرفض هؤلاءِ الاستيلاء عليها ، وكان العساكر المستأجرون فى جزيرة سردينيا قد ثاروا على الحكومة المحلية وأرادوا أن يملكوها الرومانيين ، فأبوا ذلك مراعاة للعهدة وخوفاً من الخيانة على أننا إذا تأملنا فى أفعال الرومانيين بعد هذه الحادثة نرى وراءَ ما أظهروهُ من الصداقة حكمة وأطماعاً ، لأنهم نظروا إلى قرطجنة نظرة عاقل بصير وعلموا أن هذه الدولة العظيمة متوقف نجاحها على قائدها أملكار الفريد الذى لو سقط فى أيدى العصاة لأصبحت بلاده فى موقف حرج ، وألجأتها الأحوال إلى الخضوع لرومية فراراً من شر محاربيها الطغام ، فتربصوا قليلاً ليروا ما يكون ويكتسبوا محبة القرطجنيين باللطف والإحسان إليهم ، إلا أنهُ لما انتهى القتال وخرجت قرطجنة منهُ ظافرة وعمدت إلى استرجاع سردينيا زاحت رومية برقع الصداقة وأرسلت أحد قنصليها ليستولى على الجزيرة المذكورة ويحارب القرطجنيين محتجة أنهم آخذون فى الاستعداد لقتالها ، فنالت ما رغبت فيه وتركت عدوها حاقدة عليها أبداً ، ولم تنصرف عنها إلا بعد أن أخذت منها ألفاً ومائتين زنة فضة ، قيل : إن ذلك كان من أعظم الأسباب التى أثارت الحرب القرطجنية الثانية وولدت فى قلب أنيبال بغض الرومانيين ورغبتهُ فى الانتقام منهم.

وكان ملك البلاد الأيلرية الواقعة إلى الجهة الغربية من مكدونية ولداً قاصراً ، فتولت أمهُ توتيا الأحكام بالنيابة عنهُ ، وكانت هذه المرأة عاتية جاهلة ، فلم تصرف همها فى تحسين إدارة مملكتها بل جهدت فى تعليم شعبها السرقة ، وكانت مراكبها تجول فى البحر لتعتدى على المسافرين وتنهب ما يمكنها نهبهُ ، فاغتاظ الرومانيون من هذه الأفعال وأرسلوا إليها سفيرين يسألانها تأديب القرصان ومنع رعاياها عن إجراء تلك الأعمال المنكرة ، فأجابتهما أنها ستبذل ما فى وسعها لاجتناب الأضرار التى تلحق الرومانيين ، ولكنها لا تستطيع أن تحظر على قومها الجولان فى البحار للكسب وطلب المعاش ، فقال لها أحد السفيرين : إن الرومانيين قد اعتادوا الانتقام من آية أمة كانت لذنب يقترفهُ رجالها ، وسيمكنهم بحول الآلهة أن يؤدبوا المعتدين وأن يصلحوا هذا الخلل ، فحنقت الملكة من كلامهِ وأمرت بذبح الرسولين عند رجوعهما إلى الأوطان ، ولما بلغ رومية خبر قتلهما هاج الشعب هيجاناً عظيماً ، وجهز المجلس مائتى سفينة حربية وعشرين

ألف جندى لمحاربة الأيلريين وخرب السواحل اليونانية ، فسار القنصلان بالمراكب والجيش واحتلا مدينة كبيرة اسمها أبولونيا وهى مفتاح البلاد الأيلرية من جهة مكدونية ، ثم تقدما وافتتحا عدة مدن أخرى بعد ما قبضا على القرصان وأدّبا المعتدين سنة (٢٢٨ ق . م) ، وأبرما صلحاً مع الملكة بشروط ، منها : أنها تنقد الرومانيين جزية معلومة فى كل سنة ، وأنها تسلم إليهم كل البلاد ما خلا بعض مدن تبقى للملك القاصر الذى أقيم وصيّاً عليهِ القائد ديمتريوس من جزيرة فاروس فى بحر الأدرياتيك .

وكانت رومية منهمكة بعد ذلك فى محاربة الغاليين كما ستعلم ، فظن ديمتريوس أن الأوان قد آن لخلع نير هذه الأمة وتوسيع نطاق المملكة ، فنقض العهود واعتدى على حلفاء الرومانيين ، وجهز سفناً أرسلها لغزو جزائر الأرخبيل وحصن مدينة ديمالوم فى أيلريا ، وجمع جنوداً عديدة فى جزيرة فاروس ، فحاربهُ القنصلان ليفيوس وأميليوس سنة (٢١٨ ق . م) ، واستوليا على ديماليوم بعد حصار سبعة أيام ، ثم تقدما إلى فاروس وافتتحها بحيلة فخضعت لهما جميع البلاد ، إلا أنهما لم يضيفاها إلى أملاك الجمهورية شفقة على الملك القاصر ، لأن ما حدث أولاً وثانياً كان ناتجاً عن أطماع وجهل وصيِيهِ .

وقبل انتهاءِ الحرب الأيلرية الأولى سنة (٢٢٦ ق . م) أخذ الغاليون القاطنون بالقرب من نهر « بو » يتقدمون إلى أراضى الجمهورية ، فجزع الرومانيون من هؤلاءِ الأقوام الذين خربوا بلادهم سابقاً ، وكادوا يجعلونهم فى عداد الأمم البائدة ، وكان الشعب يزعم فى ذلك الحين أن الغاليين واليونانيين سيستولون يوماً على رومية ، كما أنبأت بذلك السحرة ، فأعلن الكهنة أن النبوة تتم بدفن رجل وامرأة غاليين ورجل وامرأة يونانيين أحياءاً فى شوارع المدينة ، ففعل الجمهور هذا الفعل البربرى الشنيع واطمأن لظنهِ أن الغاليين واليونانيين قد افتتحوا بهذا الأمر حقيقة أراضى رومية ، كما أشارت كتب المشعوذين فتمت النبوة التى كان يخشاها ولم يمسسهُ ضرر ألبتة ، فلا ريب أن الجهل داءٌ عضال وسم قاتل للإنسان يستعبده لسلطان الخرافات ويقوده بسلاسل الأوهام .

وجهز القنصلان سنة (٢٢٥ ق . م) عساكر وفرساناً من الرومانيين والأمم

الخاضعة لهم وتقدما لمحاربة الغاليين ، فلقياهم عند رأس تلامون على بعد ثلاثة أيام من رومية ، فنشب القتال وكان مهولاً ، أما الجنود الرومانية فاستظهرت أخيراً على أعدائها لسبب نظامها المتقن وسلاحها الماضى ، وقتلت منهم أربعين ألف رجل ، واستولى الرومانيون على جميع البلاد الواقعة إلى جهة الغربية من «بو» ، ثم عبروا هذا النهر واحتلوا مدينة ميلان عاصمة الأنسبريين سنة (٢٢٣ ق. م) ، وفى سنة (٢٢٢ ق . م) غلب القنصل مارسلوس الغاليين القاطنين جبال الألب، فامتدت سلطة الجمهورية على جميع إيطاليا الشمالية .

* * *

الفصل الثالث
فى الحرب القرطجنية الثانية
أو حرب أنيبال

قد مرّت الآن على قرطجنة مدة اثنين وعشرين عاماً بعد خضوعها لأحكام الجمهورية الرومانية وتوقيعها على أثر الحرب الأولى عهدة سلبت حقوقها وأذلتها بين الملأ ، فأورثها ذلك حقداً لا يزيلهُ سوى الانتقام وولد فى قلبها داءً لا دواءَ لهُ إلا سفك دم عدوتها القادرة وتقويض صرح مجدها الشاهق ، وكان قائدها أميلكسار الشهير يوم دوام الحرب ليخوض عجاج القتال ويشرب كأس الممات أو يرجع غانماً ظافراً غير أنهُ حال دون بغيتهِ أحوالٌ ألجأتهُ إلى الإذعان لينقذ جنوده من الهلاك ، فرضخ لأحكام الغالبين وعاد إلى وطنهِ لاهجاً بأخذ الثأر وفاكراً بالوسائل اللازمة للنجاح ، وعلم أن هذا الأمر لا يتم إلا بتقوية شوكة القرطجنيين ، فسعى فى الاستيلاء على أسبانيا وهى بلاد كثيرة المعادن ومخصبة جدّاً ، ففتح قسماً منها ونظم من أَهلها جيوشاً يمكنها لقاءُ الإيطاليين فى ساحات الضرب والطعان .

ومما يدلنا على بغض أملكار الشديد للرومانيين وارتياحهِ للانتقام منهم هو أنهُ قبل ذهابهِ لأسبانيا ذبح ذبيحة لجوبيتر وخلا مع ابنه أَنيبال الذى كان عمرهُ وقتئذ تسع سنوات ، وقال لهُ : إنهُ يرغب أن يستصحبهُ فى هذه الحملة ، فسرّ الولدُ جداً وطلب إليهِ بإلحاح ألا يحول عن هذا الوعد ، ثم قاد أميلكار ابنهُ إلى المذبح ووضع يدهُ عليهِ وحلفهُ أن يبغض الرومانيين ويجهد فى أخذ الثأر ما دام حيّاً .

ومات أميلكار بأسبانيا سنة (٢٢٩ ق . م) ، وخلفهُ فى قيادة الجيش أسدربال أمير المراكب البحرية ، فمدّ هذا القائد الحكيم سلطة القرطجنيين فى تلك البلاد وبنى مدينة قرطجنة الجديدة التى جعلها لسبب مركزها الحسن محلاً لادخار السلاح والمهمات الحربية ومحطاً للجيوش الصادرة من أفريقيا والواردة إليها .

وهيج تقدم القائد القرطجنى فى صدور الرومانيين عوامل الخوف والحسد ، إلا

أنهم لم يبدوا حراكاً لاشتغالهم بمقاتلة الغاليين ، فأرسلوا إليه سفراء يتملقونهُ ليحملوه على عقد عهدة معهم يحظرون بها عليه شن الغارة على الشعوب القاطنة وراءَ الأيبرس (الآن نهر الأبرو) ، وما ذاك إلا سبب يتذرعون به لمقاتلة القرطجنيين فيما بعد ، لأن رفض أسدربال إجابة طلبهم أو إجابتهُ طلبهم ونقضهُ العهد يكون عذراً كافياً لإثارة الفتن وشبوب نار حرب عظيمة ، ولم يكن أسدربال أقل عداوة لهم من أميلكار ، ولكنهُ رأى بعد الحدود التى عينوها فلم يجد مانعاً من معاهدتهم ليخلوا لهُ الجو ويتمكن من توطيد سلطته هناك على أن هذه العهدة قد أشهرت اسم الرومانيين فى ذلك القطر ، ومهدت لهم سبل نكاية أعدائهم ، لأن الأسبانيين علموا بها علم اليقين أن الجمهورية الأفريقية التى تحاربهم حرباً عواناً لتستولى على بلادهم تخشى قوة وبأس شعب آخر قادر ، فاستجار بعضهم به وسعى فى محالفته .

وفى سنة (٢٢١ ق . م) قتل أسدربال رجلٌ غالى فخلفهُ فى الرئاسة وقيادة الجيش أنيبال بن أميلكار البطل الشهير .

ولما استتب الأمر لأنيبال وأصبح الآمر الناهى تقدم لمحاربة الأولكديين ، فظفر بهم ثم جمع الأسلاب وسار إلى مدينة قرطجنة الجديدة حيث صرف فصل الشتاء فى التمرينات الحربية وتدريب الجنود والإنعام عليهم فأحبهُ الجميع ، وأراد كل القتال تحت رايته والخضوع لأوامره بطاعة عمياء ولو أذاقهُ ذلك الخضوع عذاباً أليماً وجرعهُ كأس الحمام ، ولم يزل أنيبال مغالباً غالباً حتى أخضع كل البلاد الواقعة وراء نهر أيبرس وهمّ بالاعتداء على بعض الشعوب المحالفة رومية كالساغونتنيين الساكنين فى الجهة الجنوبية من النهر ، فأرسل إليه الرومانيون سفراء يذكرونهُ بالعهدة التى وقعها أسدربال لئلا يقاتل أحداً من حلفائهم أو يعبر النهر ، فلم يكترث أنيبال لهم ولم يبال بتهديداتهم وأجابهم قائلاً : إن الفتنة التى حدثت قبلاً فى ساغونتوم لم يفصلها الرومانيون بإنصاف ، بل قتلوا بعض الرؤساء ظلماً وبناءً عليه أعلن أنهُ يريد أن ينتصر للمظلومين ويعاقب الظالمين ، ثم صرف السفراء فذهبوا إلى قرطجنة ولم يفوزوا من مجلسها بطائل .

وكان أنيبال باذلاً جهدهُ فى الاستيلاء على ساغونتوم لأن خضوع هذه المدينة لهُ يضعف أمل الرومانيين بالنجاح فى محاربة القرطجنيين بالديار الأسبانية ويزيد

خوف سكان تلك البلاد منهُ ، فيأمن شرهم ويستطيع مداومة الحرب وشن الغارات غير مبال بأحد ، فتقدم بجيوشه وحاصرها ثمانية أشهر وافتتحها عنوة ، وقتل أهلها بحد السيف وترك العبيد والأمتعة التى فيها غنيمة لعساكره ، أما الأموال والأشياء الثمينة فجمعها واتخذها عدة لحوادث الدهر .

وبلغ رومية خبر خراب هذه المدينة العظيمة ، فهاج الشعب وحزن حزناً شديداً، وأخذ فى الاستعداد للقتال كأن الحرب على الأبواب ، فجهز القنصل سمبرونيوس عشرين ألف راجل وألفين ومائة فارس وعول على الذهاب إلى سيسيليا ومنها إلى أفريقية لمحاربة أعداء الرومانيين فى بلادهم ، وجهز القنصل كورنيليوس سيبيو أربعة عشر ألف راجل وألفاً وستمائة فارس ، وهمَّ بالتقدم إلى حدود أسبانيا ليحارب أنيبال ويمنعهُ من الدخول إلى إيطاليا .

ولسنا ننكر على الرومانيين خوفهم من هذه الحرب ، كما يدل على ذلك استعدادهم وتجهيزاتهم لأن القرطجنيين قد قويت شوكتهم بعد الذل والفشل وحازوا نصرات كثيرة وفتحوا مدائن عديدة ، وزادت جيوشهم بتجند الأسبانيين الشجعان ، ولم يكن للجمهورية الرومانية قائد كأنيبال خبير بضروب القتال وعليم بالفنون الحربية والخداع ، صبور على معظم الخطب ، لا يبالى بالأهوال والممات، قد نشأ فى ساحات الوغى وشاهد معامع تشيب الأطفال ، فشب بطلاً مغواراً وفارساً جسوراً لا يجارى فى مضمار النصر والفخار ، وكانت جيوشهُ مثالاً للشجاعة والانقياد تحسب الظفر معقوداً بلواء قائدها ، فتقدم على القتال بوجه طلق وقلب لا يعرف الجزع وتعود منهُ بالفوز والمنى .

وقبل أن يجاهر الرومانيون بالعدوان أرسلوا سفراء إلى قرطجنة يسألون مجلسها تسليم أنيبال وأعوانه إليهم ، وأمروهم بإشهار الحرب إن أبى القرطجنيون إجابتهم إلى ما طلبوه ، فأتى هؤلاء الرسل عاصمة الجمهورية الأفريقية وعرضوا للمجلس ما يبتغون ، فاستغرب القرطجنيون طلبهم وأنكروا عليهم تلك الحقوق ، فرفع فابيوس رئيس السفراء ثوبهُ وقال لهم : قد أتيناكم طى هذا الثوب بالسلام والقتال، فاختاروا منهما ما تشاؤون ، أجابوهُ جميعاً : إننا بما تختار راضون ، قال : إنى أطلب الحرب ، فكونوا لها مستعدين .

وذهب السفراءُ بعد ذلك إلى أسبانيا ليحالفوا أمراء الولايات الواقعة إلى الجهة

الشمالية من نهر الأبيرس أو ليغروهم بأن لا يساعدوا القرطجنيين ، فعاهدوا بعضاً منهم ، أما الباقون فأجابوهم قائلين : كيف يمكننا محالفتكم وقد رأينا ما حل بالساغونتنيين الذين ختنموهم بإهمالكم إياهم ، وإن ما جرى لهم سيكون لا محالة إنذاراً لساكنى هذه الديار ، ألا يصادقوكم ولا يغتروا بما تعدون فارتدوا من تلك الأنحاء خائبين ، وذهبوا إلى غاليا وسألوا رؤساءها ألا يدعوا القرطجنيين يمرون فى بلادهم ليدخلوا أراضى إيطاليا ، فسخروا منهم واستغربوا لأنهُ كيف يدعون ديارهم عرضة للخراب وساحة للقتال ليصونوا بلاد أُناس غرباء ، وما زال السفراء الرومانيون ينتقلون من مكان إلى آخر وهم لا ينالون سوى الخيبة والفشل حتى وصلوا مرسيليا وعلموا هناك أن أنيبال قد حالفهُ الغاليون وغيرهم بالذهب الرنان ، فرجعوا حينئذٍ إلى رومية مزودين بهذه الأخبار المكدرة .

وكان أنيبال فى هذه الأثناء مشتغلاً بإصلاح أحوال البلاد وتدبير ما يلزم لينال فوزاً مبنياً على العدى ، فسمح لعساكره الأسبانية أن تذهب إلى منازلها وتقضى فصل الشتاء بالتنزه والسرور ، وأن ترجع إليهِ فى ابتداء الربيع ، وأرسل إلى أفريقية لحمايتها جنوداً أسبانية ، وأحضر إلى أسبانية جنوداً أفريقية لاستتباب السلام فيها ومنع الأهلين من العصيان ، وأقام أخاه أسدربال قائداً لهذه الجيوش ووالياً مدة غيابهِ .

وفى ابتداءِ الربيع من سنة (٢١٧ ق . م) جمع أنيبال جيوشاً جرارة وزحف بها من قرطجنة الجديدة إلى نهر الأيبرس فعبرهُ وأخضع بعد معامع كثيرة الشعوب الساكنة بين النهر وجبال البيرينة ، ثم اجتاز هذه الجبال ودخل غاليا فأراد بعض الغاليين مقاتلتهُ فصادقهم بالهدايا والأموال ، وما زال سائراً بسلام وأمان حتى وصل إلى ضفات نهر الرون ، فابتاع من سكان الضفة الغربية قوارب عديدة لنقل المهمات والجنود ، أما أهالى الجهة الأخرى فتجمعوا واستعدوا للقتال ليمنعوه من دخول بلادهم ، فصرف ثلاثة أيام فى مخابرتهم وتملقهم ليصادقوه ، غير أن اجتهادهُ فى هذا الأمر ذهب أدراج الرياح ، فأرسل أخيراً أحد قواده سراً بفرقة من العساكر وأمره أن يعبر النهر من مكان لا يراه منهُ الغاليون ، ففعل وهجم على خيام الأعداء وحرقها ، وأبصر هؤلاء الخطر المحيط بهم من كل جانب ، فولوا منهزمين إلى قراهم والدساكر .

ولما بلغ الرومانيين أن أنيبال قد عبر نهر الأيبرس ركب القنصل كورنيليوس سيبيو البحر واحتل مع جنوده مدينة مرسيليا ، فأُخبر هناك أن القائد القرطجنى قد اجتاز جبال البيرينة ، فزحف إذ ذاك إلى مصب الرون وقام ينتظر أعداءَهُ فى تلك الناحية وأرسل ثلثمائة فارس ليتجسسوا الأخبار ، فلقيت هذه السرية خمسمائة فارس نوميدى بعث بهم أنيبال ليستطلعوا أحوال العدى ، فنشبت الحرب بين الفريقين وكانت عواناً ، وانتصر الرومانيون فى ذلك النهار وكسروا أقرانهم ولحقوا بهم إلى معسكرهم ، فرأوا رأى العين ما كانوا راغبين فى معرفتهِ ورجعوا إلى القنصل وأخبروه بكل ما نظروا وسمعوا .

وحينما وصل المهزومون إلى أنيبال وأعلموهُ ما حدث أمر هذا القائد جنودهُ بالرحيل حالاً ، لأنهُ لم يرد مقاتلة الرومانيين خارج إيطاليا ، فمشى شمالاً ووصل بعد مسير أربعة أيام إلى أرض اسمها الجزيرة ، لأن نهر الرون ونهرا آخر يصبان فيهِ يحيطان بها من جهتين ويجعلانها تشبه وادى النيل ، ولا فرق بينهما إلا أن هذه يحدها من الجهة الثالثة جبال شامخة وحدود تلك البحر ، ووجد أنيبال هناك أخوين يتنازعان الملك ، فأسعف أحدهما وملكهُ على البلاد ، ولا يخفى ما فى عملهِ هذا من الحكمة والفائدة ، لأن الملك الغالى الجديد شكره على إحسانهِ إليهِ وقدم لهُ زاداً وسلاحاً وثياباً ورافقهُ برجالهِ إلى المكان الذى أراد أن يرتقى جبالَ الألب منهُ .

أما ما كان من سيسبيو القائد الرومانى ، فحين رجوع السرية وعلمه بالمكان الذى عسكر فيهِ القرطجنيون أنزل عساكره من السفن وأسرع للقائهم ، غيرَ أنهُ لم يصل إلى هناك إلا بعد رحيل أنيبال ورجالهِ بثلاثة أيام ، فعاد إلى مراكبه وأمر أخاهُ كنيوس بالذهاب مع قسم عظيم من الجنود لإثارة الحرب فى الديار الأسبانية وقفل هو راجعاً إلى إيطاليا ومرَّ فى بلاد أتروريا ليقاتل الأعداء عند سفح جبال الألب .

وأبصر الجبليون القرطجنيين يرتقون الهضاب فتجمعوا فى الأماكن العالية الوعرة واستعدوا للقائهم بالسيوف والرماح ورميهم عن بعد بالسهام والحجارة ، فقلق أنيبال وتربص قليلاً ليرى ما يكون فأخبرهُ الأدلاء الغاليّون أن هؤلاءِ الأقوام لا يبيتون فى مراكزهم هذه ، بل يغادرونها ليلاً ويذهبون إلى مدينة قريبة ، ففرح

القرطجنى ولاحت لهُ أوجه المنى ، ولما أدلهم الظلام نهض بفرقة من الجنود وأسرع بالصعود إلى قمم تلك الجبال وتحصن فيها آمناً ، وعند الصباح عاد أولئك البرابرة جرياً على عادتهم ، فنظروهُ معسكراً ومتأهباً للكفاح ، فذهلوا وانكسفوا راجعين ليفتكوا بالباقين الذين كانوا وقتئذ سائرين بالمضيق ، فهجموا عليهم كالضراغم وقتلوا منهم أناساً كثيرين لأن خيلَهم كانت متى جفلت أو جرحت تثير فتدفع من تصادفهُ فى المهاوى التى على جانب الطريق ، ونظر ذلك أنيبال فانقض على الجبليين انقضاض الصواعق وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، ولم ينجُ منهم سوى نزر أمكنهُ الفرار ، فأفلت من الموت الزؤام . ، ثم سار إلى مدينتهم واستولى عليها عنوة واسترد الخيولُ والبهائم التى سلبوهُ إياها ، وأخذ حنطة وأغناماً تكفى جيشهُ يومين أو ثلاثة .

وما زال القرطجنيون سائرين بين الروابى والآكام مدة ثلاثة أيام إلى أن وصلوا إلى مكان صمم سكانه على الفتك بهم اغتيالاً طمعاً بالغنيمة ، فأتوهم حاملين أغصان الزيتون دليل السلام وقالوا لهم : إننا عالمون بقوتكم وبسالتكم وجئنا إليكم طالبين الأمان ، فصدق أنيبال كلامهم وأخذ منهم أدلاءَ ليقودوا جنودهُ فى تلك المسالك العسرة ، فمشى أولئك الأدلاءُ أمام الجند حتى وصلوا إلى واد عميق تكتنفهُ الصخور والشعاب من كل جانب ، فارتدوا على العساكر وظهرت أرفاقهم بغتة وأحاطوا بالقرطجنيين إحاطة الأسورة بالمعاصم ، فقاتل أنيبال ورجالهُ فى ذلك اليوم قتالاً لا يبقى ولا يذر فرد الأعداء ، ومكن جيشهُ من العبور ، وبعد بضعة أيام وصل إلى قمم جبال الألب ، ومكث هناك يومين لإراحة الجنود الذين أضنكهم التعب ، ثم جمعهم وقال لهم : أيها الأبطال ، انظروا إلى هذه الأقطار الواسعة والمخصبة واعلموا أن سكانها الغاليين هم أصدقاؤنا ويودون الانتصار لنا ، قد ذللنا بهمتنا المصاعب وتسورنا بارتقاء هذه الجبال الشامخة أسوار إيطاليا لا بل أسوار رومية نفسها ، وأننا بعد معمعة واحدة أو معمعتين سنستولى على عاصمة إيطاليا وما تحوى .

وبعد أتعاب كثيرة وأخطار مهولة قدر القرطجنيون على النزول من تلك الجبال إلى السهول المجاورة بلاد أنسبريا ، وكان عدد جيوش أنيبال حينما عبر نهر الرون ثمانية وثلاثين ألف راجل وثمانية آلاف فارس ما خلا الغاليين وغيرهم الذين حازبوهُ ونشطوا لإعانتهِ انتقاماً من أهل رومية .

وذاع أمر دخول أنيبال البلاد الإيطالية بسرعة عظيمة كان ذلك الخبر المخيف قد نقل إلى الرومانيين على أجنحة الرياح العواصف أو على متن البروق الخواطف ، فوقفوا ذاهلين حائرين ، ولقد استعظموا هذا الخطب وحق لهم أن يستعظموهُ فأرسلوا على الفور رسلاً يدعون القنصل سمبرونيوس إلى العود حالاً من جزيرة سيسيليا ، فلبى هذا القائد دعوة الداعين وأقبل مسرعا لحماية وطنهِ وإنقاذهِ من أيدى أعدائه الباسلين .

وكان القنصل سيبيو قد رجع من مرسيليا كما ذكرنا لقتال القرطجنيين بالقرب من جبال الألب إذا اجتازوها وأرادوا الدخول إلى البلاد الإيطالية ، فالتقى الفريقان عند نهر تيسينوس (الآن تيسينو وهو نهر يصب فى البو بالقرب من مدينة بافيا فى لومبارديا) ، وقبل انتشاب القتال أخذ كل قائد يشجع جيشهُ بالكلام والخطب الحماسية ويستنهض همتهُ بذكر حروبهِ ونصراته السابقة ، قيل : إن أنيبال وعد عساكرهُ أن يعطى كلاً منهم أموالاً وأراضى فى أفريقيا وأسبانيا أو إيطاليا ، وأخذ حجراً وخروفاً ورفع عينيهِ إلى السماء وقال : يا جوبتير العظيم ، ويا أيها الآلهة ، اقتلونى كما أقتل هذا الخروف إذا لم أوفِ ما وعدت بهِ ، ثم شج رأس الخروف بالحجر الذى بيده فشجعت رجالهُ ونشطت للكر والكفاح .

وحدث أن سيبيو نهض بفرسانه وبعض المشاة ليجول فى تلك الأنحاءِ ويستطلع أحوال الأعداء فلقيهُ أنيبال الذى خرج لمثل هذه الغاية ، فحملت حينئذ الأبطال على الأبطال واشتد القتال وأظهر القائد الرومانى فى هذه المعمعة من الشجاعة والتدبير ما يشهد لهُ بالفروسة والذكاء غير أنهُ جرح جرحا بليغاً فسقط على الأرض وكاد يمضى لسبيلهِ لولا ابنهُ الشجاع الذى بادر إليهِ وخلصهُ من براثن الموت ، ولم يستطع الرومانيون الثبات لدى أعدائهم فى ذلك النهار ، بل ولوا منهزمين يطلبون النجاة .

ورحل سيبيو من ذلك المكان تحت جنح الظلام ، فعبر نهر البو وأتى وعسكر بالقرب من مدينة بلاشنزيا (الآن بياتشنزا) وعلم ذلك القرطجنيون فلحقوا به وأرادوا قتالهُ ، فاجتنب القنصل القتال ما أمكن وأسرع بالذهاب إلى نهر تربيا والتحصن وراءهُ منتظراً وصول رفيقهِ سمبرونيوس ومعالجاً جراحهُ ليشفى ويستطيع خوض عجاج الحرب ومنازلة الفرسان ، وأتى أنيبال وعسكر تجاه الرومانيين على

بعد خمسة أميال منهم ، فبادر الغاليون لإعانتهِ وتقديم ما يحتاج إليهِ من السلاح والقوت .

ووصل فى هذا الحين سميرونيوس وجنوده إلى نهر تربيا وأخذوا فى الاستعداد للكر والكفاح ، فأحيوا بقدومهم روح الشجاعة والإقدام فى قلوب أصحابهم المعسكرين هناك ، وكان سميرونيوس حديد الطبع فخوراً ، فأراد قتال الأعداء حالاً فنصح لهُ سيبيو ألا يفعل ذلك وأن يصرف همهُ فى تمرين الجيوش وتعليمهم أثناء فصل الشتاء ، وأن يجتنب المعامع العظيمة ما أمكن ، فلم ينتصح هذا القائد بكلام رفيقهِ الخبير ، بل حارب القرطجنيين وانكسر كسرة مشومة أهلكت قسماً من عساكره ، وشتت الباقين ، أما سيبيو فنهض برجالهِ ولجأ إلى مدينة بلاشنزيا .

وبلغت الرومانين هذه الأخبار المكدرة ، فذهلوا وزاد خوفهم من أنيبال وأمر المجلس فى الحال بجمع جنود جديدة من الوطنيين والحلفاء ، وأرسل عساكر إلى سيسيليا وسردينيا وترنتوم ليقيها من اعتداءِ القرطجنيين وبعث بقوت ومهمات إلى بلاد أرمينيوم وأتروريا وجهز ستين سفينة حربية كبيرة لصيانة السواحل الإيطالية ومنع الأعداء من الهجوم على البلاد بحراً .

وبالجملة : لم يهمل شيئاً رآه ضرورياً لمداومة الحرب بقوة وثبات .

أما الجنود الرومانية فى أسبانيا فكانت منتصرة انتصاراً عظيماً ، لأنها استظهرت على أنو القائد القرطجنى وأخضعت أكثر الشعوب القاطنة بين نهر أبيرس وجبال ألبيرينة .

وأحضر أنيبال الأسراء الذين أخذهم من الأمم المخالفة الرومانيين ، وقال لهم : إنهُ لم يأتِ إيطاليا ليحاربهم بل ليسعفهم على استرجاع حريتهم واستقلالهم القديم ، وحرضهم أن ينتصروا لهُ ويخبروا بذلك مواطنيهم وصرفهم بلا فداء ، ثم زحف بجنوده واجتاز جبال الأبينين ودخل بلاد أتروريا من طريق رديئة جداً بين الوحول والمستنقعات فأضر ذلك العساكر وأهلك بعضاً منهم لكثرة الرطوبة والأتعاب وطول السهاد ، حتى أن أنيبال ذاتهُ فقد إحدى عينيهِ .

وكان فلامينيوس القنصل الذى انتخبه الرومانيون نة (٢١٦ ق . م) أكثر من سمبرونيوس خيلاء وجهلاً ، فاغتر بخداع أنيبال الذى علم طبع ومعرفة خصمه ، فأراد أن يقودهُ إلى مكان يسهل فيهِ للقرطجنيين الانتصار ، فزحف بعساكره وأخذ

يخرب حقول أتروريا المخصبة ، فأهاج ذلك فلامينيوس وعقد مجلساً حربياً للائتمار ، فأشار عليه القواد أن يبقى فى معسكره إلى حين وصول رفيقه ، وأن يرسل شرذمات فقط لمنع الأعداء من إتلاف الغلال وتخريب الحقول ، فخرج من المجلس حانقاً غضوباً ، وأمر الجنود بالرحيل ، فاغتم القواد من فعله وخشوا عاقبة الطيش والجهل ، وكان أنيبال ماشياً إلى رومية على جانب بحيرة ترازمينوس (الآن لاغودى بروجيا) خينما بلغه أن القنصل متأثرهُ ، فأتى وادياً يمتدّ من البحيرة المشار إليها إلى هضبة وعرة تكتنفها الروابى والآكام ، فرتب جيوشهُ على هذه الجبال وأقام كامناً ينتظر الرومانيين ، فأتى القنصل باكراً فى اليوم الثانى وولج الوادى ، وكان ضبابة كثيفة منتشرة إذ ذاك فوق تلك الأرجاء ، فلم ينظر الرومانيين أعداءَهم الذين هجموا عليهم من كل جهة هجمة الأسد الرئبال وقتلوا منهم خمسة عشر ألفاً من جملتهم القنصل فلامينيوس ، وسقط كثيرون فى البحيرة وماتوا غرقاً ، ولم ينجُ من ذلك الجيش الجرار سوى ستة آلاف راجل خرقوا صفوف القرطجنيين وزحفوا إلى قمة رابية وأبصروا منها لما انقشعت السحب والضباب أصحابهم مجندلين على الصحصحان رزقاً لوحوش الفلا وطيور السماء، ونظرهم أنيبال فأرسل إليهم أحد قواده ليحاربهم فاستسلموا لهُ وتبعوهُ وهم مكبلون بالسلاسل والقيود .

وعلم الشعب الرومانى ما أصاب القنصل والجنود ، فهرع إلى الفورم يسأل الحكام عن جلية الأمر ، فنهض أحد القضاة وأجابهُ بهذه الكلمات قد غلبنا فى معمعة عظيمة ، ولقد زاد هذا المصاب مصاباً خبر أتاهم أن القنصل سرفيليوس سمع بأقدام فلامينيوس على محاربة أنيبال فأمدهُ بأربعة آلاف فارس وصلوا بعد انتهاء المعمعة التى مرَّ ذكرها ، فأرسل القائد القرطجنى ماهربال أحد أعوانه لمحاربتهم ، فقتل منهم ألفين وأسر الباقين .

ورأى المجلس ضرورة إقامة رئيس ذى سلطة مطلقة ، وحيث إن القنصل وحدهُ لهُ الحق بتعيين ديكتاتور ، وكان القنصل وقتئذ غائباً أقام الشعب فابيوس ماكسيموس حاكماً مطلقاً ، ودعاهُ بروديكتاتورا ، وكان فابيوس هذا رجلاً هادئاً متأنياً فى جميع الأمور ، فأصلح حصون المدينة وهدم الجسور ، وأرسل يأمر سكان البلاد التى ظن أنيبال يمر بها أن يحرقوا منازلهم ويتلفوا أثمار أراضيهم

ويقيموا فى الأماكن الحصينة ، ثم جمع جيشاً جديداً ضاف إليه جنود القنصل سرفيليوس الذى بعثهُ إلى أوستيا ليجهز سفناً ويتولى قيادة المراكب الحربية وحراسة السواحل الإيطالية من القرطجنيين ، ومشى فابيوس بعد ذلك للقاء أنيبال ، وكان لا يقدم على عمل قبل الائتمار والتروى ، ولا يسلك طريقاً قبل فحصها ومعرفة ما تحوى .

وما زال أنيبال سائراً فى البلاد يخرب ما يراهُ ويقتل من يصادفهُ من الرومانيين حتى لقى فابيوس فى أبوليا معسكراً على رابية بالقرب من مدينة أتشى ، فزحف إليه ليقاتلهُ فلم يبد البروديكتاتور حراكاً وبقى فى معسكره غير مبالٍ بكلام القائد القرطجنى الذى قفل من ذلك المكان يشتم الرومانيين ويتهمهم بالجبن والخمول ، وكان فابيوس يتأثر القرطجنيين عن بعد ويرسل إليهم شرذمات توقع بهم متى سنحت الفرصة ، ولا يخفى أن هذه هى الطريقة الوحيدة لإهلاك أنيبال ورجاله لأنهم فى أرض غريبة يعوزهم بها كل شىء ، وإذا مات أحدهم لا يمكنهم تعوضهُ بسهولة لبعد الأوطان وانقطاع الصلات .

وبعد أن غزا القرطجنيون سامنيون زحفوا إلى كامبانيا (الآن ترَّادى لافورو) وهى بلاد جميلة جداً يقلّ نظيرها فى الدنيا ، فدخلوها وعسكروا عند نهر فولترنوس (الآن نهر فولترنو) فذهل فابيوس من جسارتهم ، وأتى واحتل رابية تجاههم ، ونظر الرومانيون أعداءَهم يجمعون الغلال والأثمار فى تلك الحقوق المخصبة فحنقوا وضجروا من صبر رئيسهم وتمنعه عن القتال ، وظنوا فعلهُ هذا ناتجاً عن ضعف وجبانة ، فقال لهُ بعضهم : لعلنا أتينا هذا المكان لنشاهد بأمان خراب إيطاليا أو لعلك رأيت الأرض لا تصلح لذلك فوددت أن تضرب خيامك فى الجو وتلتحف بالسحب ، أجابهم فابيوس : إننى لا أخشى عاراً فى عمل ما يؤول إلى صيانة بلادنا ، وأن الإنسان الذى يخاف عذل الجاهلين ويخضع لأهواءِ من هم أدنى منهُ ليس أهلاً لأن يتسلط على الناس ، وبقى هذا القائد الحكيم متبعاً منهج التأنى والحذر غير مبالٍ بملل جيشهِ ولوم الشعب .

ولما قرب فصل الشتاء أراد أنيبال الخروج من كامبانيا من مضيق لا يبعد عن كليكولا ، حيث كان الرومانيون معسكرين ، فأرسل فابيوس أربعة آلاف رجل يحتلون المضيق وفرقة إلى مدينة كاسيلينيوم الواقعة على ضفة نهر فولترنوس ،

وأقام هو مع الجنود الباقية على قمة الرابية، فأصبح القرطجنيون كأنهم محصورون فأتى أنيبال بألفى ثور وربط بقرونها حطباً يابساً ، وفى أول الليل أطلق الثيران بالقرب من المضيق وأمر الرعاة أن يشعلوا الحطب ويسوقوا هذه البهائِم إن أمكن إلى قمة الرابية ، وأتبع الرعاة فرقة من الفرسان ، ونظر الرومانيون المحتلون المضيق الأنوار وسمعوا الجلبة فظنوا أن القرطجنيين قد اجتازوا الجبل من تلك الناحية فتركوا مراكزهم بسرعة وذهبوا كما زعموا لقتالهم ، ولما دنوا من الثيران وأبصروها هائجة ورؤوسها مشتعلة ذهلوا وخافوا خوفاً شديداً ، أما فابيوس فعلم أن هذه حيلة أو شرك نصبهُ لهُ الأعداء ، فبقى فى مركزه صابراً ليرى ما يكون ، وفى أثناء ذلك عبر أنيبال وجيوشهُ المضيق وخرج من كامبانيا سالماً .

وحدث أن الشعب الرومانى تكدر من سلوك فابيوس وحذره وظنهُ خائناً ، فعين رفيقاً لهُ رجلاً اسمهُ منيسيوس كان لا يفتر عن الطعن عليهِ والسخر من حكمتهِ وتأنيه ، ولم يتفق القائدان لاختلافهما فى المشارب والطباع ، فعمد إلى قسم الجيش ليتولى كل منهما نصفهُ ولم يلبث منيسيوس زمناً طويلاً حتى نازل القرطجنيين آملاً نيل الظفر وإحراز الفخار ، فابتدر إليهِ أنيبال بجنوده وفرسانهِ وكسرهُ كسرة مشومة ، وكاد يسقيه وجنودهُ كأس الهلاك لولا فابيوس الذى أسرع كالبرق لإعانته ، فجمع عساكرهُ المتشتتة وانقض على القرطجنيين ، فألجأهم إلى الرجوع . حُكى : أن أنيبال قال لأعوانه فى ذلك الحين : ألم أنبئكم أن هذه السحابة الحائمة فوق رؤوس الجبال ستسقط فوقنا وابلاً منهملاً .

وجمع منيسيوس جنودهُ بعد ذلك وأعلن لهم خطأَهُ وقال : إنهُ من الواجب عليَّ وعليكم أن نطيع فابيوس بكل ما يأمر ، ثم قادهم إلى حضرة البروديكتاتور وصرح لهُ بما يخالج ضميرهُ من حاسات الشكر لهُ والثناء عليهِ ، واستعفى من منصبهِ ، فتلقاهُ فابيوس بالبشاشة والإكرام ، وسرت الجنود جداً حتى إن كل واحد كان يقبل رفيقهُ من شدة الفرح .

وفى سنة (٢١٥ ق . م) جهز المجلس الرومانى جنوداً وفرساناً ، وأقام أميليوس وفرو قنصلين الذين أسرعا للقاء أنيبال بالقرب من قرية كانَّهْ فى أبوليا ، وكان القنصل أميليوس رجلاً عاقلاً وفطيناً قد اشتهر فى الحروب التى أثارها بالبلاد الأيلرية ، فجمع العساكر وحرضهم على الشجاعة والثبات فى القتال معلناً فوز

الأعداء بالوقائع الماضية كان ناتجاً عن أسباب جديرة بالاعتبار أهما عدم ترتيب الجنود الرومانية كما يجب وجهلها قوة وبطش قائد شهير كأنيبال ، وأن الذين حاربوهُ فى وقعة تريبيا كان التعب قد أعياهم ، فلم يستطيعوا الكفاح ، وأن فى معمعة ترازيمينوس قد حال بين الرومانيين والقرطجنيين ضباب كثيفة ، فلم ينظروا الخطر المحيط بهم ، بل كانوا كالباحث عن حتفه بظلفهِ إلى أن قال : قد تغيرت تلك الأحوال وأصبحنا عالمين بقوة وخداع عدونا الألد ، وأننى لأعجب أيها الجنود كيف أمكننا الانتصار عليهِ بالوقائع الصغيرة ، ونيأس من النجاح والظفر إذا كانت الحرب واسعة المجال يخوض عجاجها جميع الفرسان والأبطال، وأنى نخاف جيوش العدى ونحن أكثر منهم عدداً ، ونعلم علم اليقين أن صيانة بلادنا وشرفنا متوقف علينا اليوم ، فلنصبر على الأهوال ولنبادر إلى القرطجنيين بقلب ثابت لا يعرف الجزع .

وكان الفريقان معسكرين فى فلاة واسعة الأطراف يمكن فرسان أنيبال الأفريقيين الجولان بها ، وهؤلاء الفرسان كانوا حاذقين جداً بركوب الخيل وشهيرين فى الأزمنة القديمة بالشجاعة والحماسة ، فيشبهون العرب العرباء فى الكر والكفاح ، ولا غرو فإنهم نظيرهم يسكنون البوادى والقفار ويعتادون وهم صغار الفراسة وشن الغارات ، وعلم أميليوس صعوبة مركزه وما لديهِ من الأخطار ، فأراد أن يخرج من تلك البطاح قبل أن تفاجئهُ خيل أنيبال وتوقع بعساكره .

أما فرو الذى كان متولياً قيادة الجيش فى ذلك النهار فلم ينتبه إلى آراء رفيقهِ الحكيم ، بل زحف لقتال القرطجنيين وعاد بالخسارة والفشل ، وحدث بعد ذلك أنهُ كان متولياً أيضاً قيادة الجنود ، فاغتر بخداع أنيبال ونازله فى مركز ردىء جداً لأن الشمس كانت تجاه الرومانيين ، وكانت الرياح عاصفة تهب فى وجوههم فتعمى أبصارهم بالغبار على أنهم قاتلوا قتال من استمات وثبتوا ثبات من لا يخاف الحمام ، ولم ينج منهم سوى أربعمائة فارس وثلاثة آلاف راجل تشتتوا فى البلاد ، وأسر القرطجنيون ألفى فارس وثمانية آلاف راجل وقتلوا الباقين الذين يبلغ عددهم كما قيل نحو سبعين ألف رجل ، أما خسارة أنيبال فكانت أربعة آلاف غالى وأسبانى وألفاً وخمسمائة أفريقى ومائتى فارس .

ترى يذل الشعب الرومانى بعد هذه الوقعة العظيمة ، ويقر بسيادة القرطجنيين،

نعم إنه بات خائفاً حائراً ، لأن ذلك الجيش العرمرم الجرار الذى خرّ صريعاً لجهل قائده الأحمق الفخور قد هد منهُ الأركان ، ولكنهُ لم يفقده تلك الحماسة والشجاعة التى يفاضل بهما أمم الأرض فيفضلهم لدى حلول الرزايا ، فأقبل لذلك على تحصين المدينة واتخاذ الوسائل الواقية بهمة ونشاط آملاً أن يمحو بجسارتهِ وحكمته ما لحق بهِ من الذل والعار ، فكأنى بهِ مؤسس أو مصلح إحدى الممالك الحديثة الذى قال : قد قهرنا عدوّنا ليعلمنا كيفَ نقهرهُ ، وعلى كل حال أن ما حدث كان كافياً ليظهر للشرفاءِ والعوام فضل فابيوس العاقل الذى قدر أن يعرف دهاءَ أنيبال ويمنعه الفوز والنجاح من غير أن يتصدى لقتالهِ بمكان يخشى فيهِ خطراً .

وأقام الرومانيون فى ذلك الحين ديكتاتوراً يونيوس بيرا ليصلح الخلل ويكون وسيلة لاجتماع كلمة الشعب ، فبادر الجميع إلى التجند بغيرة وحمية مقدمين اختياراً للحكومة ما يلزمها من النقود .

وزحف أنيبال بعد انتصاره فى كانه إلى بلاد سامنيوم ، وقسم هناك جيشهُ إلى قسمين ، ولى قيادة قسم منهُ أخاه ماغو ومشى هو بالباقى إلى مدينة نابولى ليستولى عليها ، ويصبح قادراً على مراسلة القرطجنيين بحراً على أنهُ لم يستطع محاصرتها لحصانتها ، فارتد عنها راجعاً وأتى مدينة كابوا التى فتحت لهُ أبوابها وسرت بمحالفته ، وسببُ هذا الأمر أن شعبها وحاكمها كانا يبغضان المجلس لأسباب سياسيةٍ أو لأن الجمهور يكره فى الغالب الرؤساءَ وإن كانوا عادلين لم يأتوا أمراً يستوجب البغض ، فسعى الحاكم فى تسليم المدينة إلى أنيبال ، وجمع لذلك أعضاء المجلس بالهيكل وقال لهم : قد حلف الشعب يميناً أن يخضع لأنيبال بعد أن يقتلكم جميعاً ، فرعبوا جداً وطلبوا إليهِ بإلحاح أن يشفق عليهم وينقذهم من هذا البلاد فوعدهم بذلك ، وذهب وجمع قومهُ وأخبرهم أن أعضاءَ المجلس فى قبضة يده الآن ، وأنهُ يمكنهُ أن يسلمهم إليهم ليفعلوا بهم ما يشاءُون من جزاءَ لهم على محاربتهم الرومانيين ، ثم قال لهم : إنهُ لما كان لكل مجتمع بشرى عوائد وأمورٌ أوجدتها الضرورة وأثبتها الزمان كان من الواجب إن أرادوا الفتك بهؤلاء أن ينتخبوا أعضاء آخرين يخلفونهم فى الرئاسة وتدبير الأحوال ، فرضى الشعب بترك القديم على قدميهِ وعفا عن أولئك التعساءِ الأولى لا ذنب

عليهم سوى صدقهم فى خدمة الوطن ومصادقتهم أهل رومية ، إذ علموا علم اليقين أن لا راحة لهم ولا نجاح إلا بسلوكهم هذا المسلك .

أما الآن وقد أصبح الحاكم مطلق التسلط لخضوع الشعب والمجلس لهُ ، فخابر أنيبال وحالفهُ ، ثم فتح لهُ أبواب المدينة فدخلها القرطجنى بالعز والإكرام ، ومنح الأهلين الحرية والاستقلال .

وفى ذلك الأوان بعث أنيبال أخاهُ ماغو إلى قرطجنة ليخبر مجلسها بنصراته العظيمة على الشعب الرومانى الذى راعت حروبهُ أمم الأرضين ، وخفقت أعلام مجده فوق الروابى والبحار ، ويطلب إليه أن يمده بالرجال والمال ، فعمد المجلس إلى إعانتهِ ، ولكنه لم يقدم على الأمر بسرعة ونشاط كما كان واجباً عليهِ أن يفعل .

وكان ماهربال أحد قواد الجيش القرطجنى ينصح لأنيبال أن يزحف حالاً إلى رومية ، فأبى هذا أن ينتصحهُ ، فأجابهُ ذلك القائد : أنت تستطيع الانتصار ولكنك تجهل طرق الانتفاع منهُ ، والحق يقال : إن أنيبال لو زحف حالاً إلى رومية بعد وقعة كانه يستولى عليها عنوة ، وأخضع شعبها أو جعلهُ فى عداد الأمم البائدة .

وصرف أنيبال فصل الشتاء فى كابوا والمدائن الأخرى التى حاربتهُ ، وأخذ وجنوده فى ارتشاف كؤوس الصفو والانشراح كأن نصراته المتتابعة وأعمالهُ العظيمة قد أتعبته ، فأراد الاستراحة فى سبل الظفر ، فكان ذلك داعياً إلى فوز الرومانيين الذين جدوا فى الاستعداد لمحاربة عساكر قد ذلوا للملذات فنسوا شجاعتهم التى أكسبتهم فخراً تخلدهُ صحف التاريخ ويبقى مثالاً يقتدى بهِ فرسان الأرض وأبطالها .

وكان الترنتيون يبغضون الرومانيين ويرغبون فى التخلص من ربقة الخضوع لهم فخابروا أنيبال بتسليم المدينة إليهِ بشرط أن يكونوا أحراراً لا يدفعون جزية ولا يحتل أرضهم جيش قرطجنى ، فرضى أنيبال بما طلبوا ودخل المدينة بحيلة وقتل قسماً من العساكر الرومانية ، أما الباقون فلجئوا مع قائدهم لفيوس إلى القلعة وتحصنوا فيها ، فحفر القرطجنيون أمام تلك القلعة خندقين وبنوا وراء كل خندق سوراً ليأمن الترنتيون شر العدى ويستطيعوا الدفاع متى رحل أنيبال بجيشهِ .

ولما كانت القلعة مبنية بالقرب من مدخل المرفأ أراد أنيبال منع المدد من الوصول إلى الرومانيين ، وفتح طريق البحر للترنتيين ، فنقل السفن الكثيرة الموجودة فى ميناء المدينة براً على عجلات صنعت لهذه الغاية وأنزلها فى البحر من ناحية أخرى فأتت ورست تجاه القلعة التى أصبحت محصورة من كل الجهات .

وفى سنة (٢١١ ق . م) زحف القنصلان بالعساكر لمحاربة كابوا والاستيلاء عليها ، فعلم ذلك أنيبال وأسرع كالبرق الخاطف لإعانة الكابويين ، فحارب الرومانيين وهاجمهم مراراً ، ولكن بلا فائدة لأنهُ لم يستطع خرق صفوفهم ليدخل المدينة التى أصبحت فى ضيق عظيم من الحرب والجوع ، فارتد راجعاً ومشى إلى رومية ليحمل القنصلين على رفع الحصار وتأثرِه ، فلم يغتر الرومانيون بخداعهِ بل بقوا مشددين الحصار إلى أن دخلوا المدينة قسراً وبخيانة الرعاع .

وحدث أنهُ لما خاب أمل الكابويين من استطاعة الدفاع زمناً طويلاً جمع فبيوس فريوس أحد زعماء العصاة أصحابهُ وأبان لهم بغض الرومانيين لهم وحقدهم عليهم إلى أن قال : لا نجاة لنا أيها الأصدقاء إلا بالموت ، فها قد أعددت فى منزلى وليمة فاخرة أدعوكم إليها لنتمتع من طيبات هذه الدنيا ونشرب بعدها رحيق الحمام من كأس يطوف علينا بهِ أحد السقاة ، فمن منكم قد أتعبتهُ الحياة أو ملّ منها فليتبعنى لأن ميتة مجيدة تكسب الميت فخراً وتجعلهُ أهلاً لاعتبار الأعداءِ والخلان ، فقبل دعوته سبعة وعشرون رجلاً قضوا نحبهم جميعاً بتجرع سم زعاف أُدير عليهم بكأس الراح كما تدار الصهباء بالأفراح ، فغادروا هموم الدنيا وأحزانها وهم غارقون ببحار الملذات والسرور .

ولما دخل الرومانيون المدينة هدموا أسوارها ودكوا حصونها وقتلوا كثيرين من كبرائها الذين لم ينتحروا ونهبوا سبعين زنة ذهب وثلاثة آلاف ومائتى زنة فضة وحرموا الأهلين امتيازتهم القديمة ليظهروا للعالم أن شعب رومية كريم يعامل أصدقاءهُ ومحالفيهِ بالرفق والإحسان وحقود ينتقم من أعدائه ، ولا يصفح عنهم أبداً ليؤَدب الطاغينَ ويوطد أركان سلطتهِ فى البلاد الخاضعة لهُ .

وأتى البر وقنصل فولفيوس رجلٌ شجاع اسمهُ يوبليوس توريا بعد ما أصدر مجلس رومية أمراً بكف القتل وإعطاء الأمان ، وكان البر وقنصل قد همَّ بالانصراف ، فقال لهُ : مر بقتلى يا فولفيوس وأفخر ما دمت حياً بإرداء بطل

يفوقك بالشجاعة والبأس ، أجابهُ الرومانى: حبذا ما تطلب لولا إعطائى الأمان، فصرخ يوبليوس : واأسفاه ، هل عشت إلى الآن لأرى مواطنىّ عبيداً ، وهل بعد ذبحى امرأتى وأولادى لأصونهم من الإهانة والعار أحرم لذة القتل ليمتزج دمى بدم أصدقائى ومواطنىّ ، ولكن إذا رفض العدى قتلى فإنى أفوز براحتى بالانتحار، قال هذا واستل مدية طعن بها صدرهُ وخرَّ قتيلاً يخبط بدماه .

وفى سنة (٢١٦ ق . م) مات أيرون ملك سيراكوزا وخلفهُ حفيدهُ أرونيموس فخالف هذا الملك الفتى وصية جده ونقض عهود صداقتهِ للرومانيين ، وأرسل رسلاً إلى قرطجنة يحالفون مجلسها ويعقدون معهُ عهدةَ مفادها اقتسام جزيرة سيسيليا بينهما بعد اتحادهما لافتتاحها ، ولكنهُ ندم بعد ذلك وطلب إليهِ فقط أن يحالفهُ ليشهر الحرب على الرومانيين إذا مست الحاجة فسر القرطجنيون بما حدث ورضوا بما طلب الملك لأنهُ حليف قوى يمكنهُ إعانتهم وإحباط أعمال أعدائهم بالجزيرة المذكورة .

وفى سنة (٢١٤ ق . م) أقدم القنصل مارسيلوس على محاربة السيراكوزيين فحاصر مدينتهم براً وبحراً ، وكان فى تلك المدينة عالمٌ شهير اسمهُ « أرخميدس» قدر وحدهُ على لقاء جنود الرومانيين وقهرهم مراراً ، لأنهُ كان مسلحاً باختراعاتهِ العجيبة ومتحصناً وراء أسوار علمهِ وأفكاره الثاقبة ، فعمل آلات كانت ترمى المحاصرين بأحجار إلى مسافة بعيدة ، فتردى من تصيبهُ وتحطم السفن ، وعمل أيضاً آلات أخرى كانت تمسك المراكب الرومانية وترفعها ، ثم تقذفها على الصخور فتنكسر ويغرق من فيها ، فابتعد مرسيلوس عن الأسوار وحل بمكان لا صل إليهِ بهِ ضرر من آلات أرخميدس آملاً أن الجوع سيفتح لهُ مدينة لم يمكنهُ الاستيلاء عليها بالسلاح والجيوش .

ودام حصار سيراكوزا ثلاث سنوات إلى أن كان ذات يوم عيدٌ عظيم أهمل فيهِ الأهلون حراسة الأسوار وأقبلوا على الأفراح والولائمِ ناسين أن العدو على الأبواب ، فاغتنم مرسيلوس هذه الفرصة وأرسل فرقة من جنوده تسورت الجدران والحصون ودخلت المدينة وملكت قسماً منها ، وبعد بضعة أيام استولت على الأقسام الباقية فنهبت ما نهبته وقتلت كثيرين من جملتهم أرخميدس العالم الذى لم يكترث لدخول الأعداءِ المدينة ، بل كان منهمكاً فى بعض مسائل علمية أو

رسوم هندسية ، فمات وهو قابض على قلمه سبب شهرتهِ وهلاكهِ ، لأنهُ لو ترك شغلهُ ولجأ إلى معسكر الرومانيين نجا لا محالة .

وكان سيبيو الذى حارب أنيبال بالقرب من نهر تيسينيوس متولياً مع أخيه كنيوس قيادة الجيش الرومانى فى أسبانيا ، فانتصر الأخوان مراراً كثيرة على القرطجنيين ، وكادا يستوليان على جميع البلاد لو لم يقسما جيشهما إلى قسمين ويفترقان ، فحارب كلاً منهما أسدربال أخو أنيبال وكسرهُ ، فخسر الرومانيون ما كسبوهُ قبلاً فى معامع كثيرة وأسفوا جداً لموت ذينك القائدين اللذين خرا صريعين فى ساحة القتال .

ولما بلغت هذه الأخبار رومية حزن الشعب ويئس من النجاح بأسبانيا ، وعدّ استرجاع ما فقد فيها من الأمور المستحيلة ، ودليل ذلك أنهُ لم يرض أحد من الرومانيين تولى قيادة الجيوش هناك إلا ببليوس سيبيو ابن المتوفى ، وكان شاباً عمرهُ أربع وعشرون سنة شهيراً بالذكاء والتدبير ومحبوباً من الجميع ، فعين على الفور برو قنصلاً وقائداً عاماً للعساكر الرومانية فى تلك الديار ، فبادر إلى الرحيل حالاً وأتى البلاد الأسبانية وقاد جيشهُ المحاصرة قرطجنة الجديدة ، فاستولى عليها فى يوم واحد ، ثم حارب الأعداء فى معامع عديدة وانتصر عليهم انتصاراً مبيناً وشتت شملهم ، فاستتب لهُ الأمر وخضعت لهُ جميع شعوب ذلك الإقليم .

وكان هذا القائد الفتى شهماً عظيماً وفاضلاً كريماً ، فأتتهُ يوماً بعد استيلائه على قرطجنة الجديدة امرأة شريفة من أهالى تلك الديار وسألتهُ وهى جاثية بين يديه وعبراتها تتساقط على الأرض من شدة الكدر أن يأمر رجاله باحترام الأسراء، فلم يفهم سيبيو معنى كلامها وظنها تشكو عسرها ، فأجابها : انعمى بالاً أيتها المرأة لأنك ستحصلين على كل ما تحتاجين إليه ، قالت لهُ : هذا الأمر لا يهمنى ولا يقلقنى سوى حالة هؤلاء الواقفات حولى وكان معها بنات أخيها ملك الألرجيين وبنات أخر شريفات كلهنّ بديعات الحسن والجمال ، فتحركت فى صدره حاسات الشفقة والحنو واغرورقت عيناه بالدموع وقال لها : يا أماه ، ثقى إننى ورجالى جميعاً لا نحلل شيئاً محرماً وسنبذل الجهد فى صون طهارتكن وشرفكنّ ، ثم طيب خاطرهنّ وصرفهنّ بالإكرام ، فذهبن مسرورات شاكرات .

وأحضر إليهِ قوادهُ مرةً بنتاً عذراء ذات حسن باهر وقدٍّ رشيق ، وكان سيبيو زير

نساء فافتتن بها ، إلا أنهُ ملك شهوتهُ وقال لأعوانهِ : إن منصبى يمنعنى من قبول هديتكم ، ثم التفت إلى الجارية واستخبرها عن أهلها ووطنها فأجابته أنها مخطوبة لأمير قبيلة السلتبريين المدعو « أليسيوس » فأحضرهُ سيبيو مع أبيها وقال لهُ: يا أليسيوس ، إننا فتيان ويمكن كلاً منا أن يكلم صاحبهُ بحرية ، فأخبرك أن جنودى قد أتتنى بجارية عذراء علمت منها أنها خطيبتك وأنك مغرم بها فأردها عليك الآن عفيفة طاهرة كما كانت قبلاً ، ولا أسألك عوضاً عن ذلك إلا أن تكون حليف الأمة الرومانية التى فاقت شعوب الأرض بالفضل والفضيلة ولا يحاكيها أحد فى حب الإحسان إلى أصدقائها ورغبة الانتقام من أعدائها .

وكان أبوها قد قدم مقداراً وافراً من الدراهم فداءً لها ، فأعطى سيبيو تلك الدراهم لأليسيوس ليزيد بها مهر امرأتهِ ، فانصرف ذلك الفتى الأسبانى مع جيشهِ شاكراً مسروراً وأخبر قومهُ أنهُ أتى مع الجيش الرومانى بطل يحاكى الآلهة فى الشجاعة والكرم يفتح المدائن والقلوب بسيفهِ وشهامتهِ .

أما أسدربال قائد الجيوش القرطجنية فى أسبانيا ففر هارباً من أمام سيبيو واجتاز بمن معهُ جبال البيرينة والألب ، ودخل إيطاليا ليعين أخاهُ على حرب الرومانيين فيها فأرسل المجلس القنصل لفيوس ليقاتلهُ ويمنعهُ من الانضمام إلى أنيبال ، وكان القنصل الآخر نيرون يحارب بطل قرطجنة ، فنهض سراً بسبعة آلاف رجل وبعد مسير سبعة أيام وصل إلى معسكر لفيوس بالقرب من نهر متورس ، فدهم القنصلان أسدربال وانتشب القتال وكانت هذه المعمعة من أعظم المعامع التى حدثت فى تلك البلاد أو منذ دخول أنيبال إليها ، لأن قائد تلك الجيوش القرطجنية خرَّ قتيلاً بأسياف أعدائهِ ، ومات من عساكرهِ ستون ألف رجل ، وقد مل المنتصرون من القتل وسفك دم الأبطال حتى أن لفيوس ترك بعض المنهزمين يذهبون بسلام قائلاً : فليمضوا ليذيعوا خبر انتصارنا فى سائر الأنحاء ، ورجع نيرون إلى معسكره بسرعة عظيمة كما أتى منهُ وطرح أمام سرادق أنيبال رأس أخيهِ ليعلمهُ ما جرى ، رعب هذا الباطل وأدرك عظم المصائب التى فاجأت حكومته وعائلتهُ ، فرحل حالاً من ذلك المكان واحتل بروتوم وشرع فى الاستعداد للحرب والدفاع .

وكان سيبيو القائد الرومانى مكللاً بالظفر والنجاح فى جميع أعمالهِ وغزواتهِ ،

فلما أمن شر أعدائه بالديار الأسبانية أخذ يفكر فى محاربة القرطجنيين بأفريقيا فأرسل ليليوس أحد أصدقائه لمحالفة سيفاكس ملك الماسيسيليين (اسم إحدى القبائل الشهيرة فى الأزمنة القديمة الساكنة فى جزائر الغرب) فرضى هذا الملك البربرى بمصادقة الرومانيين ورغب فى مقابلة البرو قنصل ليخابره بهذا الشأن ، فأتاه سيبيو على جناح السرعة غير مبال بالأخطار التى تلحق به إن نكث الأمير النوميدى العهد وغدر به لأنه رأى فى تلك المقابلة خيراً لأمته ، فخاطر بحياته لنيل هذه الغاية الشريفة .

وحدث أن أسدربال القائد القرطجنى فى أسبانيا الذى خلف أخا أنيبال حضر فى ذلك الأوان إلى عاصمة الملك سيفاكس ليسترضيه ويحمله على محالفة القرطجنيين ، فسر هذا الأمير أن يرى فى بلاطه قائدى أعظم وأقدر أمم الدنيا يتباريان فى مصادقته ، فدعاهما إلى الطعام فجلسا إلى مائدته ويلوح أن أسدربال قد أعجبه حديث سيبيو وفصاحته وذكاءه ، فقال : لا بدع أن خسر القرطجنيون أملاكهم الأسبانية ، ولكن العجب كل العجب فى استطاعتهم المحافظة على أفريقيا ، وقدر البطل الرومانى على محالفة سيفاكس فعاهده وارتد راجعاً من حيث أتى .

وعلم سيبيو أن الوسيلة الوحيدة لإذلال قرطجنة وإخضاعها لسلطة الرومانيين فى محاربتها فى بلادها الأفريقية ، لأن وجود جنود غريبة هناك يثير لا محالة حلفاءها والأمم الخاضعة لها التى تطلب فرصة للانتقام منها ، كيف لا وإن عدوك من صديقك مستفاد ، فطلب إلى المجلس أن يأذن له فى ذلك ، فبعد مذاكرات طويلة لا محل لاستقصائها هنا عين قنصلاً وسمح له بالذهاب إلى سيسيليا ومنها إلى أفريقيا ، فجهز الجنود اللازمة ورحل إليها سنة (٢٠٣ ق . م) ، وكان سيفاكس النومدى قد نقض العهد وحالف القرطجنيين فنهض بعساكره ، وأتى مع أسدربال القائد القرطجنى لمحاربة الرومانيين ، ولما كان الأعداء لا يحرسون معسكرهم فى الليل كما يجب أرسل سيبيو ليليوس أحد قواده وأمره أن يحرق معسكر سيفاكس ، فأنفذ هذا القائد النشيط ما أمر به وحرق خيام الجيوش النوميدية فمات عدد عديد منها بالنار والسيف ، ونظر القرطجنيون ناراً مشبوبة ، فلم يعلموا ما سببها ، فبادروا حالاً لمساعدة حلفائهم النوميديين وكان سيبيو واقفاً

لهم بالمرصاد فهجم عليهم بغتةً وما زال يطعنهم حتى قتل منهم كثيرين وشتت الباقين فى تلك البيداء ، ثم تقدم إلى معسكرهم وحرقه كما حُرق الأول ولم ينجُ من ذلك الجيش العرمرم سوى ألفى راجل وخمسمائة فارس ولوا هاربين إلى قرطجنة .

وركب ليليوس مع الملك مسينيسا النوميدى الذى حالف الرومانيين وجدا فى المسير ليحاربا سيفاكس ، فافتتحا مملكتهُ وقاداهُ أسيراً مع أحد أولاده وأرسلاهُ إلى سيبيو مكبلاً بالسلاسل والقيود ، فسألهُ القائد الرومانى : لماذا نقض عهدهُ وحارب أمة حالفها قبلاً ؟ أجابهُ : سبب ذلك الجنون لأننى أحببت امرأة قرطجنية تزوجتها فأخضعتنى لسلطان هواها وأكرهتنى على مقاتلة صديق قريتهُ وأكرمتهُ ، فأنا على ذلك نادمٌ وأطلب المعذرة .

وحدث أن مسينيسا بعد انتصاره على سيفاكس دخل مدينة سيرتا عاصمة مملكته فلقيتهُ امرأتهُ سوفونيزيا ابنة أسدربال القرطجنى التى مرَّ ذكرها وخرَّت ساجدةَ وقالت لهُ : قد خضت أيها البطل عجاج الحرب وخرجت منها ظافراً غانماً بحول الآلهة ، فهلا تجيب طلب أسيرة جاثية عند قدميك وترغب إليك بذل أن تشفق عليها ولا تسلمها إلى أعداء أمتها الرومانيين ، وإذا كنت لا تستطيع إنقاذها فاضرب عنقها بسيفك البتار لأنهُ خيرٌ لها أن تشرب كأس الحمام من حسام نوميدى أفريقى من أن تجل وتنال الفخار من أعدائها الغرباء ، ثم قبضت على يده وأخذت تقبل قدميهِ ، فأهاجت فى قلبهِ عوامل الحب والغرام لأنها كانت خوداً رداحاً تفتن الألباب بمعانى جمالها الباهر ، فاقترن بها مسينيسا حالاً غير فاكر بعاقبة ما عمل لكونها أسيرة رومانية لا يحق لهُ التزوج بها قبل أن يأذن بذلك سيبيو الذى بلغهُ هذا الأمر ، فقلق جداً وخاف من دهاء هذه المحتالة التى لا بد أن تتغلب على زوجها هذا كما تغلبت على زوجها الأول وتغريهِ بمخالفة القرطجنيين ومحاربة الرومانيين .

ولما حضر مسينيسا إلى المعسكر خلا معهُ سيبيو وقال لهُ : لا ريب أن صفاتى الحسنة هى التى حملتك على مصادقتى ومحالفة مواطنىّ ، ولكن أحسن تلك الصفات وأفضلها هى القناعة والزهد ، فأود أيها البطل لو تتخذ هذه السجية شعاراً لأن عدوّك الشاكّ السلاح هو أقل خطراً لك من الملذات ، وأن الذى يملك شهوتهُ لأفضل من يفتح المدائن والحصون ، ومعلوم أن سيفاكس قد ذل للراية

الرومانية ، فامرأتهُ ومملكتهُ وأراضيهِ وكل ما هو للرومانيين ، فانتبه أيها الشهم لما فعلت وما تفعل ، واحذر من تدنيس ثوب كمالك بأمر يلحقك منهُ الشين والشنار .

فعلت وجه الأمير النوميدى حمرة الخجل واغرورقت عيناهُ بالدموع ، ثم انصرف إلى سرادقهِ ، وأخذ فى النحيب وهو يكتب لامرأتهِ ما يأتى :

كان بودى أيتها الحبيبة أن أقوم بجميع ما تقتضيهِ واجبات الزواج ، ولكن قد حال دون ذلك موانع ، وعليهِ فإننى أفى بوعدى لك ألا أسلمك إلى الرومانيين وأنت فى قيد الحياة ، وأظنك لا ترفضين إجراء أمر فيهِ صيانة شرفك وصينك من العار ، وختم كتابهُ ودفعهُ إلى عبد أعطاه سماً زعافاً ليسلمهُ إليها ، فأخذت الملكة الكتاب والسم وقالت : إنى راضية بهذا الصداق إذا كان زوجى لا يمكنه منحى غيره ، ولكن كان أولى لى ألا أقترن بأحد وأنا عازمة على الموت ، ثم سفت السم المرسل إليها ووقعت فى الحال على الأرض لا حراك لها .

وأرسل سيبيو بعد ذلك سيفاكس إلى رومية ، فأمر المجلس بحبسهِ وعين مسينيسا ملكاً على كل إقليم نوميديا وبعث إليهِ بهدايا كثيرة دلالة على اعتباره وصداقتهِ لهُ .

وكأن نصرة سيبيو على أسدربال قد هدت من القرطجنيين الأركان ، فأرسلوا رسلاً إلى إيطاليا يدعون أنيبال إلى الحضور حالاً ، قيل : إن هذا البطل حينما بلغته تلك الأوامر بكى وقال : لم يغلبنى الرومانيون ، بل المجلس القرطجنى الذى رفض إرسال مدد إلىَّ ، ثم ركب البحر وسار بجنوده وهو يلعن نفسهُ ويشكو الآلهة والناس وظل شاخصاً إلى السواحل الإيطالية حتى توارت عن أبصاره ، وحين وصولهِ إلى قرطجنة أخذ فى الاستعداد لمحاربة سيبيو الذى كان جائلاً فى البلاد يفتتح المدائن ويقهر الأبطال ، فجهز العساكر وزحف إلى مدينة زاما (الآن زوارين) ، وطلب مقابلة القائد الرومانى الذى أتى وعسكر بالقرب منهُ فتقابلا فى مكان على مرأى من الجيشين وبقيا صامتين برهة لا يتكلمان من الدهشة أخيراً ، خاطب أنيبال خصمهُ بهذه الكلمات :

قد قضى علىَّ أنا الذى فتح الحرب ونال نصرات عديدة أن آتى وأخابرك بالسلام ، ويسرُّنى جداً أن أطلب هذا الأمر إليك وأعلم علم اليقين إنك ستفاخر

أبطال وفرسان الدنيا ، لأن أنيبال الشهير الذى ظفر على قوادٍ رومانيين كثيرين قد خضع لك وحدك .

وبعد أن حذَّر سيبيو من الدهر وغدره قال لهُ : إننا نخلى أسبانيا وسيسيليا وسردنيا وكل الجزائر الواقعة بين إيطاليا وإفريقيا ملكاً للرومانيين ، ولعمرى أن صلحاً هذه شروطهُ يعود بالراحة علينا وبالفخر والنجاح عليكم ، ولا تخشَ خيانة القرطجنيين لأننى أنا أنيبال الذى يسألك الآن السلام يسألك إياهُ لكونهِ ضرورياً لبلاده ولكونهِ ضرورياً سيحافظ عليهِ حتى الممات .

أجابهُ سيبيو : أن هذه الشروط لا ترضى بها أمة ظافرة ، بل من الواجب على القرطجنيين أن يخضعوا للرومانيين ليعاملوهم كما يشاءُون أو فليخوضوا عجاج الحرب لعلهم ينتصرون .

حينئذٍ انفصل القائدان ورجع كل لمعسكرهِ ليستعد للكر والكفاح ، وفى الغد خرجت الجنود باكراً واصطفت فى تلك البطاح ، ثم حملت الرجال على الرجال واحتدمت نار الحرب وزاد سعيرها ، فانكسر القرطجنيون وانهزم أنيبال مع بعض فرسان ، ودخل قرطجنة وأعلن للمجلس والكبراء أن الصلح واجب ، فليسعوا في إبرامهِ ، فأرسلوا إلى سيبيو ثلاثين سفيراً من الشرفاء ليخابروه بذلك، فرضى بإجابتهم إلى ما طلبوهُ بالشروط الآتية :

أولاً: يملك القرطجنيون المدائن والأقاليم الأفريقية التى كانت لهم قبل الحرب.

ثانياً : يسلم القرطجنيون إلى الرومانيين أسراء الحرب والعساكر الذين فروا والعبيد الآبقين .

ثالثا : يسلمون إليهم أيضاً جميع سفنهم الحربية ما خلا عشراً وجميع أفيالهم ، ولا يسمح لهم باقتناء هذه الحيوانات فيما بعد .

رابعاً : لا يحاربون أحداً فى أفريقيا أو خارجها بلا إذن الشعب الرومانى .

خامساً : يردون على مسينيسا ما سلبوهُ إياه ويحالفونهُ .

سادساً : ينقدون الرومانيين بمدى خمسين سنة عشرة آلاف زنة فضة (نحو مليون وأحد وتسعمائة وسبعة وثلاثين ألفاً وخمسمائة ليرة إنكليزية) .

سابعاً : يسلمون إلى سيبيو رهائن مائة رجل لا يكون عمر أصغرهم أقل من أربع عشرة سنة وأكبرهم أكثر من ثلاثين .

وذهب السفراء إلى رومية يعرضون هذه الشروط لمجلسها ويطلبون إليهِ توقيعها فصدق عليها المجلس وصرف الرسل القرطجنيين ، فانقلبوا إلى بلادهم راجعين .

وعاد سيبيو إلى إيطاليا ودخلها بالإكرام ، وكان الناس يزدحمون فى الطريق التى يمر بها ليروا مخلص الوطن ، ودعى من ذلك الحين بالإفريقى تذكاراً لأعمالهِ ونصراتهِ التى رفعتهُ إلى ذرى المجد وأوج الفخار .

* * *

الباب الخامس

من انتهاء الحرب القرطجنية الثانية

(سنة ٢٠١) إلى حين انتهاءِ الحرب الثالثة

وخراب مدينة قرطجنة (سنة ١٤٦ ق . م)

أو من (سنة ٥٥٢ إلى سنة ٦٠٧ ب . ر)

الفصل الأول

إن ضعف الجمهورية القرطجنية خوّل الرومانيين الأولى انتصروا عليها سلطة عظيمة ، فأصبحوا مرهوبى الجانب يخافهم جميع أمم الأرض ولا يخافون هم أحداً ، وكانوا منتبهين للحوادث يرقبونها بعين بصيرة وعقل خبير جاهدين فى توسيع نطاق أملاكهم بسائر الأقطار ومتذرعين لذلك بأسباب طفيفة لا تستوجب إثارة الحروب وسفك الدماء لو لم يكن وراء تلك الأسباب أغراض سياسية وأطماع أشعبية .

وكانت الدولة المكدونية أقوى الولايات اليونانية وأقربها من إيطاليا ، وكان لها منذ أيام فليبس الثانى أبى اسكندر الكبير حق السيادة بين اليونانيين ، فعمد الرومانيون إلى إذلالها ليتسنى لهم ولوج المدائن الأسيوية والتمتع بطيباتها وأموالها وأثاروا عليها سنة (٢٠٠ ق . م) حرباً عواناً دامت ثلاث سنوات محتجين أنهم نهضوا لنصرة الآثينيين والروديين وغيرهم ، فقهروا ملكها فيلبس الخامس مراراً وأكرهوهُ على إبرام الصلح بالشروط الآتية :

أولاً : جميع اليونانيين الساكنين فى أوروبا وأسيا يكونون أحراراً مستقلين .

ثانياً : يخلى فيلبس قبل أوان الألعاب الكورنثية كل المدائن اليونانية التى لهُ فيها جنود .

ثالثاً : يسلم إلى الرومانيين كل سفنهِ الكبيرة ما خلا خمساً .

رابعاً : لا يكون لهُ أكثر من خمسة آلاف جندى ولا يسمح له باقتناء أفيال ولا إثارة حرب خارج مكدونية إلا بإذن الشعب الرومانى (هكذا روى لفيوس وعهدة ذلك على الراوى) .

خامساً : ينقد الرومانيين ألف زنة نصفها عاجلاً والنصف الآخر بمدى عشر سنوات .

ولما أُعلنت هذه العهدة لليونانيين سروا جداً وشكروا للرومانيين الأولى سفكوا دماء أبطالهم ليمنحوهم الحرية والسلام غير محرزين سوى الفخر بأنهم أضعفوا

المكدونيين وغدوا منقذى الأمم الأثينية من ربقة الخضوع لهم على أننا إذا تأملنا فى الأمر نجد أن الرومانيين لم يفعلوا ما فعلوهُ عن شهامة وإخلاص ، ولكنهم أدركوا صعوبة إخضاع هؤلاءِ الأقوام الذين يحبون الحرية ويفدونها بالنفوس ، فمهدوا بما أجروه سبل الاستيلاء على بلادهم فى المستقبل .

وفى سنة (١٩٢ ق . م) حارب الرومانيين أنطيخوس الكبير ملك سوريا الذى اعتدى على البلاد الثراكية واليونانية وقهروه بالقرب من مضيق ثرموبيلى ، وفى مواقع أخرى وأكرهوهُ على تخلية المدائن والأراضى الواقعة وراء جبل طورس ودفع خمس عشرة زنة آبية (نحو مليونين وتسعمائة وستة الاف ومائتين وخمسين ليرة إنكليزية) بمدى اثنتى عشرة سنة وطرد أنيبال القرطجنى من بلاده لأنهُ لجأ إليهِ بعد نفيهِ من وطنهِ وأغراهُ بمحاربة الرومانيين ، وكان ذلك على يد سيبيو الأفريقى وأخيهِ لوسيوس الذى دعى الأسيوى لسبب نصراتهِ فى هذه الحرب بالديار الأسيوية ، وحدث فى هذه الأثناء أن سيبيو الأفريقى ذهب إلى أفسس ليقابل أنطيخوس فلقى أنيبال هناك ، فبعد أن تذاكرا ملياً سأل سيبيو خصمهُ من هو الرجل الذى يظنهُ أعظم قائد وجد فى الدنيا ؟

أجابهُ القرطجنى : هو أسكندر الكبير .

– ومن هو الثانى ؟

– بيرس .

– ومن هو الثالث ؟

– قال لهُ أنيبال على الفور : أنا هو .

– فعجب سيبيو من كلامهِ وسألهُ قائلاً : أى رتبة كنت تستحق لو غلبتنى ؟

– أجابهُ حينئذٍ : كنت أعظم من اسكندر وبيرس وجميع قواد العالم .

وعند عودتهِ إلى رومية اتهمهُ وكيلا الشعب أنهُ أخذ رشوة من أنطيخوس ، وسلب وأخاه أموالاً للجمهور وطلبا إليهِ أن يقدم حساباً مدققاً ، فنهض سيبيو ومسك بيدهِ سجلاً وقال للحضور : بهذا السجل ترون حساب الأموال والغنائم التى حزتها ، قال لهُ الوكيلان : اقرأ إذاً ما كتبته فيه ، أجابهما : عارٌ علىَّ أن أفعل ذلك ، ثم مزق السجل إرباً إرباً وطرحهُ أمامهما ، ولما كان الوكيلان

مصممين على تغريمه التفت إلى الشعب وقال لهُ : بمثل هذا اليوم أيها الرومانيون قد غلبت أنيبال والقرطجنيين فلنبادر إلى الكابيتولينوس ولنشكر جوبيتر على ما أولانا من النعم ، فأثر كلامهُ بالجمهور الواقف وتبعهُ الجميع إلى الهيكل ، أما أخوهُ الأسيوى فغرم بدفع مقدار وافر من الدراهم ، وبيعت أمتعتهُ وأملاكهُ لوفاء تلك الغرامة ، فكان جزاؤهُ من مواطنيه كجزاءِ سنمار .

وفى سنة (١٨٢ ق . م) قضى أنيبال القائد القرطجنى الشهير نحبهُ ببلاد بيثينيا لأن الرومانيين أرسلوا رسلاً إلى ملكها يطلبون تسليمهُ إليهم فخوفا من أن يقع فى أيدى أعدائهِ شرب سماً ومات .

وكان فيلبس ملك مكدونيا منذ انتصار الرومانيين عليهِ لا يألو جهداً فى الاستعداد لمحاربتهم والانتقام منهم ، وقد حملهُ بغضهُ الشديد لهم على قتل ابنهِ الأصغر ذمتريوس الذى كان يحبهم ويثنى عليهم جهراً فى كل مكان .

وفى سنة (١٧٨ ق . م) مات هذا الملك وخلفهُ ابنهُ برسيوس الذى كان أشد عداوة لهم من أبيهِ ، فنشبت من جراءِ ذلك الحرب المكدونية الثانية سنة (١٧١ ق. م) ودامت أربع سنوات ، وكانت نتيجتها استيلاءُ الرومانيين على البلاد وجعلها ولاية رومانية ، وهكذا انقرضت الدولة المكدونية بعد ما سادت زمناً طويلاً واستولت فى أيام اسكندر على أكثر الممالك المعروفة .

ثم أخضع الرومانيون الأبيريين ومن يجاورهم وقهروا الغاليين الذين أعانوا أنيبال وجعلوا بلادهم ولاية رومانية ودعوها غالياً « سيزالبية » ، أى الواقعة داخل جبال الألب .

* * *

الفصل الثانى

فى الحرب القرطجنية الثالثة

إن الجمهورية الرومانية لم تكن راضية عن القرطجنيين الذين ألبسوها ثوب العار بدخولهم بلادها وقهرها مراراً ، ولم يشف غليلها ذل هذه الأمة وخضوعها لها ، بل كان بودها لو تجعل مدينة قرطجنة خراباً ينعق فيها البوم وتأوى إليها الوحوش ، لا سيما الآن وقد قويت شوكتها وتسلطت على أقاليم كثيرة واسعة شاسعة .

وحدث أن الملك مسينيسا اعتدى على القرطجنيين واستولى على بلاد لهم ، فأرسل مجلس رومية سفراء إلى أفريقيا لينظروا فى هذا الأمر ، وكان من جملتهم رجل اسمهُ كاتو الكبير شهير بالزهد وحب العيشة الخشنة لظنه أن هذه هى الطريقة الوحيدة لإحراز المجد والفخار ، ولما رجع كاتو إلى رومية أخبر المجلس أن القرطجنيين أصبحوا أغنياءَ وقادرين وحرضهُ على محاربة هذه المدينة وخربها، وأحضر من تلك الديار تيناً كبيراً جداً وأراهُ الآباء أعضاء المجلس وهم مجتمعون وقال لهم : إن البلاد التى توجد بها هذه الأثمار هى على بعد ثلاثة أيام من رومية ، ومن ذلك الحين لم يكن يتكلم فى المجلس عن أمر إلا ويقول فى عرض الكلام : أظن خراب قرطجنة واجباً .

ولما كان القتال منتشباً بين مسينيسا والقرطجنيين اتخذ الرومانيون ذلك ذريعة للمجاهرة بالعدوان ، وأرسلوا إلى أفريقيا سنة (٢٤٨ ق . م) ثمانين ألف راجل وأربعة آلاف فارس ، فقلق القرطجنيون وبعثوا سفراءَ إلى رومية يسترضون مجلسها فأجابهم المجلس أنهُ يمنحهم الحرية والاستقلال بشرط أن يعطوا القنصلين قائدى الجيوش رهائن ثلثمائة فتى شريف ويخضعوا بطاعة عمياء لكل ما يأمرانهم به وكان القنصلان وقتئذٍ فى سيسيليا مستعدين لركوب البحر حينما وصلت إليهما الرهائن القرطجنية ، فأجاب الرسل : إنهما يعلمان القرطجنيين ما يريدان حينما يحضران إلى أفريقيا .

ثم أسرعا بالمسير ووصلا إلى أتيكا (الآن أبو شاطر) فلقيا هناك سفراء قرطجنيين أتوا ليسترضوهما فخاطبوهما بما معناه : إننا نجهل الذنب الذى جنيناهُ والأسباب التى حملت الرومانيين على غزونا بهذا الجيش العرمرم ، ألم ننقدهم الجزية تماماً جاهدين بعمل كل ما يرضيهم ، وإذا كانت الحرب التى جرت بيننا وبين مسينيسا قد أغضبتهم ، ألم ينظروا كيف احتملنا اعتداءهُ بصبر عظيم ورضينا أخيراً بإنالته ما طلبهُ ، ولو فرض أن محاربتنا النوميديين دفاعاً عن وطننا هى ذنب ألم نكفر عن هذا الذنب بتسليم أنفسنا وبلادنا إلى الشعب الرومانى ومبادرتنا إلى إعطاء الرهائن المطلوبة حسب أمر المجلس ؟ قال لهم حينئذ أحد القنصلين : إذا كنتم ترغبون فى السلام احضروا لنا حالاً جميع الأسلحة الموجودة فى مدينتكم لأنها لا تفيدكم شيئاً ، فانقاد القرطجنيون لأمره صاغرين وبعثوا إلى المعسكر الرومانى بمائتى ألف مجن ورماح وحراب لا تحصى ، وأتى أيضاً الكهنة والكبراءُ بهيئة ذليلة ليحركوا الشفقة فى قلوب الرومانيين ، فنهض أحد القنصلين وقال لهم: إننى أشكركم أيها القرطجنيون لإذعانكم لأوامرنا وتسليمكم إلينا حالاً جميع ما طلبناه غير أنهُ يجيب عليكم الآن أن تغادروا مدينتكم وتنتقلوا إلى أى مكان أردتموهُ من بلادكم بشرط أن تبعدوا عشرة أميال عن السواحل ، لأننا قد صممنا على هدم قرطجنة ودك أسوارها .

وحينما سمع القرطجنيون الحاضرون كلام القنصل طار الشرار من أعينهم ومزقوا ثيابهم من الحنق والقنوط ، ووقعوا على الأرض يضربونها برؤوسهم ، ثم أقبلوا إلى القنصلين وهم يذرفون الدموع كالمطر وسألوهما أن يشفقا عليهم ويرحما قوماً أصبحوا كالطفل الصغير لا يستطيعون خيراً ولا شراً ، فلم ينالوا بتوسلاتهم وتذللهم شيئاً ، فانكفوا إلى المدينة وأخبروا الشعب بما كان ، فأخذ الجميع بالبكاءِ والعويل ، وماجت الأرض بأقدام الرجال والنساء والأولاد لأنهم كانوا يسرعون لاستعلام الأخبار وينثنون بالكآبة واليأس ، فلا يعلمون أين هم ولا إلى أين يذهبون ، غير أن بعضاً من الكبراءِ العاقلين علم كالباقين عظم الأخطار المحيطة بهم ، ولكنهُ آثر الموت شريفاً فى ساحة الحرب على الحياة بالذل والعار، فأمر بإيصاد أبواب المدينة وجمع أحجار على الأسوار لرمى المحاصرين ، فنشط فعلهُ هذا الأهلين الذين أقدموا على القتال بشجاعة وحمية آملين النجاة أو الموت

فى ساحة الحرب فداءَ الوطن ، وأعتقوا عبيدهم فى ذلك النهار ليعينوهم ويقاتلوا مثلهم ببسالة .

وكان القرطجنيون قد نفوا من المدينة أحد قوادهم العظام المدعو أسدربال إرضاء للرومانيين لأنهُ هو الذى حارب مسينيسا النوميدى ، وكان هذا القائد محتلاً وقتئذ مع جيش يبلغ عددهُ عشرين ألف راجل مكاناً قريباً من قرطجنة فأرجعوه إلىَ المدينة وشرعوا يستعدون للقتال وجعلوا الهياكل والمحالّ العمومية الواسعة معامل أسلحة ، وأقبلوا جميعاً رجالاً ونساءَ شيوخاً وإحداثاً يشتغلون ليلاً ونهاراً لتجهيز العدد اللازمة ، فكانوا يعملون فى كل يوم مائة وأربعين مجناً وثلثمائة حسام وخمسمائة رمح وألف حربة ، وقصت النساء شعورهن وصنعتها حبالاً للآلات الحربية .

ولم يكن القنصلان عالمين بما هو جارٍ داخل المدينة ، فتقدما بعزم وأمل وطيد لمحاصرتها ظانين أنهما يستوليان عليها بسهولة ، ولكنهما ذهلا حينما رأيا الأهلين شاكين السلاح ومستعدين للحرب والدفاع ، فهاجماهم مراراً وارتدا عن الأسوار بالخيبة والفشل ، ولم يكن حظ القائدين اللذين خلفاهما بأسعد من حظهما ، لأن القرطجنيين كانوا يحاربون أعداءهم حرب من استمات ويهجمون عليهم هجوم اللبوة على من رام خطف أشبالها ، كيف لا وهم يدافعون عن نسائهم وأولادهم وعن حريتهم التى هى أثمن شىء لهم فى العالم ، فدامت الحرب أكثر من سنتين ولم تنته إلا على يد سيبيو أميليانوس بن سيبيو الذى غلب برسيوس ملك مكدونية ، فذهب هذا القائد الفتى إلى أفريقيا وأصلح نظام الجيش وشدد الحصار ، وفى ربيع سنة (١٤٦ ق . م) استولى بفرقة من جنوده على أحد الأسوار ودخل المدينة ، فقامت الحرب فى الشوارع والمنازل على قدم وساق وبقى القتال أو القتل ستة أيام ولم يسلم من سكان قرطجنة الكثيرين البالغ عددهم سبعمائة ألف نفس سوى خمسين ألفاً لبسوا لباس الذل وأتوا معسكر الرومانيين يطلبون الأمان فاستحياهم سيبيو وباعهم عبيداً .

وكان فى المدينة تسعمائة رجل رومانى قد هربوا من معسكرهم ولجئوا إليها ، فعلموا علم اليقين أنهُ لا نجاة ولا أمان لهم فى جميع الأقطار ، فدخلوا مع أسدربال القائد القرطجنى إلى هيكل وصمموا على حرقهِ والموت فيهِ اختياراً ،

غير أن أسدربال خرج من الهيكل سراً وأتى البرو قنصل حاملاً غصن زيتون دليل السلام ، واستسلم لهُ فأجلسهُ سيبيو عند قدميه وأراهُ للقوم المحصورين فى المعبد، فلما أبصروه أخذوا يشتمونهُ ويلعنونهُ ، ثم أشعَلوا نارهم وماتوا .

قيل : إن امرأة أسدربال صعدت إلى سطح الهيكل ونادت سيبيو ورغبت إليهِ أن يقاص زوجها الخائن ، ثم خاطبت بعلها قائلة : أيها الرجل اللئيم الجبان الدنئ ، إن النار التى تنظرها مشتعلة ستميتنى قريباً مع أبنى فنروح من هذه الدنيا مزودين بالفخار ، ولست أراك مؤثراً الحياة على الممات إلا لتزيد مجد من أنت جالس عند قدميهِ وتذوق منهُ عذاباً أليماً .

وحينما استولى الرومانيون على قرطجنة أمر المجلس بهدمها تماماً وهدم كل المدائن التى حاربتها وإعطاءِ أراضيها لحلفاءِ رومية ، وجعل البلاد التى كانت خاضعة للجمهورية الأفريقية ولاية رومانية ، فأنفذ سيبيو تلك الأوامر وعاد إلى رومية ، حيث احتفل بنصرتهِ ولقب بالأفريقى .

قال أحد المؤرخين : إن سيبيو الكبير قد مهد سبل عظمة الرومانيين ، أما سيبيو الصغير فقد فتح لهم باب التنعم والترف لأنهم لما أمنوا شر القرطجنيين أهملوا تلك الصفات الحسنة التى أوصلتهم إلى هذه الدرجة العليا من سلم الفضيلة والفخر وتهوروا فى مهاوى الرذائل .

* * *

الباب السادس

من حين انتهاءِ الحرب القرطجنية الثالثة (سنة ١٤٦)

إلى إقامة الحكومة الثلاثية الأولى (سنة ٦٠ ق . م)

أو من (سنة ٦٠٧ إلى ٦٩٣ ب . ر)

الفصل الأول

لا ريب أن دأب الرومانيين توسيع نطاق سلطتهم بأية وسيلة يرونها موافقة لهذه الغاية ، فلا يهمهم لذلك رعاية صداقة وحفظ ذمام لأنهم بعد ما هدموا مدينة قرطجنة وخربوا تلك الجمهورية الأفريقية العظيمة بزمان قليل هدوا أركان الحكومة الأخائية اليونانية وحرقوا مدينة كورنثوس عاصمة البلاد ، وسبب ذلك أنهُ تنازع الأهلون فى أمور طفيفة وأبوا الانقياد لما أمر بهِ المجلس الرومانى ، وأضرموا نار الحرب الأهلية فحاربهم الرومانيون وقهروهم وخربوا مدائنهم الحصينة وجعلوا البلاد اليونانية ولاية رومانية .

وكان الأسبانيون القدماء شجعاناً يحبون الحرب والغارات ويأنفون من الخضوع للغرباء فنهضوا لقتال الرومانيين مراراً وقهروهم فى وقائع كثيرة ودامت هذه الفتن مدة مديدة لجهل أو جبن قواد الجمهورية فى تلك الديار وبسالة وحكمة فيريانس رئيس الثائرين الذى قتلهُ الرومانيون اغتيالاً سنة (١٤١ ق . م) ، ومما يشهد لأولئك الأقوام بالجسارة والبأس هو أن نيمانسا إحدى المدائن الأسبانية الحصينة قدرت وحدها أن ترد هجمات المحاصرين ، وأن تستظهر على أبطال دانت لهم أمم الأرض صاغرة ، فأقام الشعب سنة (١٢٣ ق . م) قنصلاً وقائداً لجيوش ذلك الإقليم سيبيو الذى خرب قرطجنة ، لأنهُ كان أحسن رجلٍ قادرٍ على إخضاع العصاة وإحياءِ الشجاعة بقلوب الجنود .

ولما وصل هذا القائد البطل إلى أسبانيا وجد العساكر الرومانية هناك بلا ترتيب ولا نظام لا تعرف الانقياد للرؤساء ولا الإذعان لأوامرهم ، وكانت منغمسة بالتنعم والملذات كأنها أتت للتنزه لَا للكر والكفاح ، فعلم القنصل أنهُ من الواجب عليهِ قبل أن يحارب الأعداء ويقهرهم أن يصلح أحوال الجنود ويكرههم على الخضوع لأوامره بطاعة عمياء ، فمنعهم عن التأنق بالمآكل والمشرب وطرد من المعسكر البيعة والخدام والنساء العواهر ، ولم يترك للجندى غير مرجل وفراش محشواً أوراق شجراً أو تبناً وعوّد هؤلاء الرجال الأتعاب والصبر عليها .

وفى ذلك الأوان أرسل إليهِ مسينيسا ملك نوميديا مدداً مع ابن أخيهِ يوغرتا

الفارس المغوار الذى لهُ فى تاريخ الرومانيين شأن عظيم ، والذى سنفرد لذكر أعمالهِ الفصل الثانى من هذا الباب .

وكان سيبيو يرغب اجتناب قتال النيمانسيين ما أمكن لأنهُ رأى الجوع خير جيش وأحسن سلاح يفتتح بهما تلك المدينة بلا عناء ، فشدد عليها الحصار ومنع المدد والقوت من الوصول إليها ، فضاق الأهلونَ ذرعاً وأرسلوا إليهِ رسلاً يسألونهُ السلام بشرط أن يعاملهم بالرفق والإحسان ، فمثل السفراء لديهِ ونهض رئيسهم وعرض له حاجتهم بعبارات وجيزة أعربت عن مدح مواطنيهِ وإطراء بسالتهم ، وعقب ذلك بقولهِ : إن النيمانسيين وإن كانوا تعساء الآن ليسوا بمذنبين لأنهم أقدموا على سفك دمائهم دفاعاً عن نسائهم وأولادهم واستقلال بلادهم ، فمن العدل أيها البطل أن ترحم شجعاناً يرومون الاستسلام لك ، وإن أبيت فدعهم يحاربونك ويموتون كرجال فى ساحة القتال ، أجابهم سيبيو : لا سلام إلا بتسليمكم إلىَّ سلاحكم ومدينتكم وأنفسكم ، رفض النيمانسيون إجابتهُ إلى ما طلب وفضلوا الموت على حياة ذليلة ، وأخذوا فى الاستعداد للقتال ، ثم خرجوا من مدينتهم وهجموا على متاريس الرومانيين ، فهلك منهم عدد عديد وارتد الباقون بالفشل ، ولما خاب أملهم من النجاة حرقوا سلاحهم وأمتعتهم ومنازلهم وقضوا نحبهم جميعاً بالجوع أو السيف أو السم أو النار ، ولم يتركوا للظافرين من المدينة سوى اسمها ، فدخلها سيبيو وأمر بهدم الأسوار والمنازل القليلة الباقية وعاد إلى رومية واحتفل بنصرتهِ فيها .

بينما كان سيبيو جاهداً فى إخضاع مدينة نيمانسا والاستيلاء عليها حدثت فى رومية حوادث أقلقت الأهلين وفتحت باباً جديداً للفساد وإهراق الدماء فى الاجتماعات العمومية ، وسبب ذلك تيبيريوس وكايوس غراكس حفيدا سيبيو الأفريقىّ الأول من ابنتهِ كورنيليا اللذين كانا حاذقين نجيبين لا يحاكيان بالبلاغة ولا يجاريان بميدان الخطابة فنالا بين مواطنيهما مقاماً عالياً وشهرة واسعة ، وانتخب تيبيريوس وكيلاً للشعب فى هذه السنة .

وكان من عوائد الرومانيين كما أبنا سابقاً أنهم إذا افتتحوا بلاداً أو أخضعوا أمة بإيطاليا يأخذون قسماً من أراضى تلك البلاد يبيعون نصفهُ قياماً بنفقات الحرب ويعطون النصف الآخر للفقراء بأجرة طفيفة ليحرثوهُ ويقتاتوا من غلالهِ غير أن

الأغنياء والكبراء قدروا بالخبث والدهاء أن يختلسوا الأراضى المذكورة ويحرموا المحتاجين وسائل الراحة والهناء ، فحمل ذلك لشينيوس ستولو أن يقترح القانون العقارى الذى مرَّ ذكرهُ صفحة (٦٣) ، والذى بعد أن صدق عليهِ المجلس وعمل بموجبهِ مدة من الزمان أهمل وطوتهُ يد النسيان ، وكان هؤلاء الكبراء يستخدمون لحرث حقولهم وبساتينهم الكثيرة عبيداً وغرباء لا يهمهم تقدم الجمهورية ويفرحون بخرابها .

ونظر تيبيريوس إلى حالة الوطنيين الأحرار نظرة آسف على حالتهم التعيسة ومشفق منهم ، فأراد إحياء القانون العقارى وكاشف بذلك بعض أصدقائهِ الأصفياء فوافقوه وعولوا على مساعدتهِ لإرجاع هذا القانون وإجرائهِ .

وعلم بما جرى الشرفاءُ والأغنياءُ فحنقوا وهاجوا ولعنوا تيبيريوس وقالوا : إنهُ ظالم معتد ، يريد إلقاء الفتن لنيل أمر يسرُّ بهِ إلى أصدقائهِ وأعوانهِ أو يكتمهُ من الجميع ، أما الفقراءُ فكانوا مثقلين بسلاسل الحاجة والتعاسة لا يستطيعون الزواج لإحياء نسلهم وإن تزوجوا لا يمكنهم القيام بأود عائلتهم وتربية أولادهم ، فتذكروا تلك الحروب التى خاضوا عجاجها والمعامع التى أبصروا الأهوال فيها دفاعاً عن الجمهورية وإعلاءِ لمنار مجدها ، ورأوا أنهم جوزوا على بسالتهم وأفعالهم هذه بأن كان الفقر لهم نصيباً وحرموا قطعة أرض يحرثونها ويتقوتون بغلالها ، وزاد العظماءُ ظلمهم ظلماً بأن منعوهم من الشغل مفضلين العبيد عليهم ، فأصبحوا وهم أحرارٌ أشقى من الأولى خسروا الحرية وحقوقهم المدنية .

وحينما اجتمع الشعب للنظر فى أمر القانون نهض تيبيريوس واندفع يتكلم ببلاغة تفتن الألباب وتسلب القلوب ، ثم التفت إلى الأغنياء وقال لهم : أنَّى تفضلون يا قوم العبيد على الوطنيين والذين لا يجوز تجندهم على الأولى يسفكون دماءَهم فداءَ الوطن ، إن وحوش إيطاليا لها كهوف وأغوار لجأ إليها ، أما الرجال الذين يخاطرون بأرواحهم لحمايتكم لا يملكون سوى النور والهواء ، ألستم تنظرونهم يطوفون الأحياءَ بنسائهم وأولادهم ليجدوا مكاناً يأوونهُ ، فلا ريب أن القواد يسخرون من الجنود بتحريضهم على اقتحام الأخطار لصون مدافنهم ومذابحهم الأهلية ، لأنهُ لا يوجد أحد منهم لهُ مذبح أو مدفن ،

فبالحقيقة أنهم يحاربون ويموتون دفاعاً عن ثروة الآخرين ، ومن العجب العجاب أنهم يدعون سادة الأرض وهم لا يملكون منها قدماً واحدة .

فأذهلت فصاحتهُ وحججه الدامغة الحاضرين ، فلم ينطقوا ببنت شفة بل انصرفوا متعجبين ، وكان المجلس والشرفاءُ يحاولون إهلاكهُ وإحباط أعماله ، فبينما كان يخطب مرة فى محفل حافل ، وقد زاد الضجيج واللغط حتى أن صوتهُ لم يكن الجميع يسمعونهُ وضع يدهُ على رأسهِ مشيراً للناس أن بعضاً يريد قتله ، فأوّل أعداؤهُ تلك الإشارة بأنهُ يطلب إلى الجمهور إكليل الملك ، فانقض عليهِ سيبيو نزيكا أحد أنسبائهِ وكثير من الشرفاءِ وقتلوهُ مع ثلثمائة رجل من أصدقائهِ .

وكان كايوس أخوهُ فتيّاً ، فلم يشترك معهُ فى هذه المؤامرة بل قضى سنوات عديدة ساكناً لا يبدى حراكاً ولا يظهر رغبة فى الانتقام من أعداء أخيهِ وقاتليه ، غير أنهُ لما استتب لهُ الأمر وأصبح قادراً على إجراء أغراضه أعلن صداقَتهُ للشعب وعداوتهُ للمجلس والكبراءِ ، وأخذ يقترح قوانين وأموراً تحط سلطة العظماء ، فرعبوا وعمدوا إلى إردائهِ بالطريقة التى قتلوا بها أخاهُ تيبيريوس وأرسلوا لذلك القنصل أوبيميوس بفرقة من الجنود ، وحينما أبصر أعوانَهُ الخطر المحيط بهم أركنوا إلى الفرار ، فأمر كايوس إذ ذاك أحد عبيده أن يقتلهُ فطعنه ذلك العبد ثم طعن نفسهُ وخرّا كلاهما صريعين سنة (١٢١ ق . م) ، وحيث إن أوبيميوس أقسم أن يعطى من يأتيهِ برأس كايوس ذهباً ثقلهُ أخذ رجل اسمهُ سبتيسيميليوس ذلك الرأس ونزع دماغهُ وحشاهُ رصاصاً ، فنال لذلك سبعة عشر رطلاً ذهباً .

وحزن الشعب جداً على موت هذين الأخوين الفاضلين ، فأقاما لهما تمثالين فى المكان الذى قتلا بهِ ، وكان كثيرون يأتون هناك ويصلون ، أما وكلاء العوام فذلوا بعد هذه الحادثة وفقدوا تلك الحمية التى طالما اشتهروا بها ، وعدا الكبراء والأغنياء قادرين لا يجسر أحد أن يخالف لهم أمراً ، وكان القانون العقارى قد دفن مع الغراكيين فأصبح نسياً منسياً .

وفى سنة (١٣١ ق . م) ثارت حرب مهولة فى سيسيليا وسببها أن الأغنياء هناك اشتروا عبيداً كثيرين لحرث أراضيهم والاعتناء بها ، ولما كان أولئك العبيد لا يُعاملون معاملة حسنة ولا يعطون طعاماً كافياً لهم كانوا يفتكون أحياناً بالأهلين

وينهبون دائماً ما يمكنهم نهبهُ ، وكان الولاة يغضون الطرف عن أعمالهم خوفاً من مواليهم الذين كانوا فى الغالب فرساناً رومانيين ذوى مقام رفيع ، فاتسع الخرق وزاد أولئك الأشرار جسارة وفجوراً حتى إنهم تآمروا فى خلع نير العبودية .

وكان لرجل سيسيليّ عبدٌ سورى اسمهُ أنيوس ذو فكر ثاقب ودهاء عظيم ، فادعى أن الآلهة تظهر لهُ فى الحلم وتذاكرهُ بأمور البشر ، فصدقه بعضهم وصار الناس يأتونهُ أفواجاً ليستشيروهُ بأمور خطيرة .

وجاءَ إليه ذات يوم عبيد رجل قاسٍ من مدينة أنّا وأخبروه أنهم يريدون قتل مولاهم وسألوهُ إذا كانوا ينجحون فى مسعاهم أم يخيبون ؟ أجابهم : إن كل ما يرومون فعلهُ يرضى الآلهة بشرط أن يباشروا الأمر بسرعة ونشاط ، فاجتمع العبيد المذكورون وكان عددهم أربعمائة نفس وأقاموهُ قائداً عليهم وقصدوا مدينة أنا وقتلوا سكانها ونهبوا منازلها ، ثم نصبوه ملكاً ودعوهُ أنطيوخوس وسموا هم أنفسهم سوريين ، ولما علم ذلك العبيد الباقون هرعلوا إليهِ جماً غفيراً فقويت شوكته وحارب ثلاثة ولاة وقهرهم وشتت جنودهم فى البلاد .

ولما استفحل أمر العصاة بعث المجلس إلى سيسيليا بقنصل وجيش عرمرم ، فقاتل القنصل العبيد بالقرب من مسّانا وقهرهم ، ولكنهم لم يخضعوا تماماً إلا فى سنة (١٣٢ ق . م) .

* * *

الفصل الثانى

فى حرب يوغرتا

إن مسينيسا الذى ملكهُ الرومانيون على بلاد نوميديا خلف ثلاثة بنين مات منهم اثنان ، وبقى ميسبسا الذى ملك بعد وفاة أخويهِ على جميع ذلك الإقليم ، وكان لهذا الأمير غلامان وابن أخ اسمهُ يوغرتا أحبهُ جداً واعتنى بتربيتهِ غاية الاعتناء .

وكان يوغرتا جميلاً وشجاعاً لا يهاب الموت ويقتحم الأخطار بقلب ثابت ، كأنهُ ساع لنيل المنى ، ولقد ألف ركوب الخيل وهو صغير ، فشب فارساً مغواراً لا يحاكى بخبرة الضرب والطعن ، ولا يجارى بميدان البسالة والإقدام ، وكان مع ذلك لطيفاً بشوشاً لا يعرف العجْب والافتخار فأحبهُ جميع الفرسان والأبطال ودانوا لهُ طائعين اختياراً .

وكأنَّ الملك قد تنبه من غفلته وأدرك أن يوغرتا لا بد يوماً أن يخلع ابنيهِ عن سرير الملك ويرتقيهِ بدلاً منهما ، فأراد الفتك بهِ اغتيالاً ولكنهُ خاف الشعب وخشى حدوث ثورة وفتن أهلية ، فأرسلهُ بفرق من جنوده إلى الديار الأسبانية ليساعد الرومانيين على افتتاح مدينة نيمانسيا آملاً أن شجاعتهُ توقعهُ بالمهالك ، فأسرع يوغرتا إلى ساحة القتال ، وأظهر إذ ذاك من البأس والإقدام ما حير الأبطال ، وسهل لهُ سبل التزلف من القواد العظام الذين أهاجوا فى صدره حاسات الطمع بقولهم لهُ : إنهُ يمكنهُ الملك على البلاد النوميدية وإرضاءُ الرومانيين ليغضوا الطرف عنه بالذهب الأصفر الرنان .

ولما انتهت الحرب وأراد سيبيو صرف الجنود التى أتت لمساعدتهِ دعا يوغرتا وأثنى عليهِ ثناءً طيباً ومنحهُ هدايا ثمينة وحرضهُ أن يكون صديقاً صدوقاً للشعب الرومانى وألا يغفل عن عمل كل ما يرضيهِ ليحرز الفخر وينال المقام العالى ، ثم أمره بالانصراف بعد ما أعطاه كتاباً إلى ميسيسيا هذا معناه :

أحيطك علماً أن يوغرتا قائد جنودك قد أظهر فى هذا الحرب فعالاً تحير الشجعان ، فسأخبر بصفاتهِ الحسنة مجلس وشعب رومية ليحباهُ ويجلاهُ كما أحبه

وأجلهُ أنا ، وبناءً عليهِ أهنئك ببطل هو لا ريب أهل لأن يكون ابن أخيك وحفيد مسينيسا العظيم .

وعلم الملك استحالة إهلاك يوغرتا سراً أو علناً ، وأراد تلافى الخطب ومصادقتهُ فتبناهُ وأشركهُ فى الملك مع ابنيهِ الشرعيين ، وحينما حضرتهُ ساعة الوفاة ضمهُ إلى صدره وسألهُ ألا يحول عن العهد ، وأن يتذكر إحسانهُ إليهِ ويعامل ابنيهِ بمثل ذلك .

وبعد أن دفن الملك المتوفى بالتجلة والتكريم اجتمع الأمراءُ الثلاثة للنظر فى أمور المملكة وإصلاح شؤُونها المختلة ، وكان أصغر ولدى ميسبسا فتى حاذقاً نجيباً يحتقر يوغرتا ويبغضهُ ، فأتى وجلس على يمين أخيهِ لئلا يكون ابن عمه فى الوسط وهو محل يحفظ فى الاجتماعات لذوى المكانة العالية ، ويدل فى كل حال على الرئاسة ، فغضب يوغرتا ووغر صدره عليهِ لا سيما حينما قال : إنهُ يجب مراجعة الأوامر التى أصدرها ميسيسا فى السنين الخمس الأخيرة ، أجابهُ ذلك الفتى : نعم ، أنا راضٍ بما تشير بهِ لأن أبى قد تبناك فى هذه المدة ، فأشعل هذا الكلام القاسى فى قلبِ يوغرتا سعير الغضب وحب الانتقام وأرسل رجالاً إلى منزل ابن عمهِ قتلوه بهِ ليلاً .

وعلم النوميديون بما حدث فانقسموا إلى قسمين ، حازب كل منهما أحد الأمراءِ وانتشبت لذلك الحرب بين الفريقين واحتدمت نار الفتن الأهلية ، ولما كان الفرسانَ والأبطال يحبون يوغرتا لبسالتهِ انضموا إليهِ حالاً ، فتقدم بهم إلى ساحات الضرب والطعان وافتتح المدائن ، واستولى على جميع البلاد ، ورأى أدربال بن ميسبسا فوز خصمهِ والأخطار التى أصبح محاطاً بها من كل جانب ، ففرَّ هارباً إلى ولاية رومانية ، ومن هناك أسرع بالذهاب إلى رومية .

وخشى يوغرتا غضب الرومانيين ، فأرسل على الفور سفراءَ إلى رومية وأعطاهم الهدايا الثمينة والأموال الوافرة ليسترضوا الرؤساء ، ويرشوا القابضين على زمام الأحكام ، فنجح أولئك الرسل بالتزلف من الكبراءِ واستمالتهم لسيدهم ، وغض المجلس لذلك الطرف عن أعماله القبيحة ، وأمر بقسم المملكة بين الأميرين ، فنال المغتصب أحسن القسمين وأكبرهما ، غير أنهُ لم يرضَ بما حازه بل شن الغارة على أدربال ، وبعد حروب طويلة استولى على مدائنهِ وأماتهُ

شر ميتة ، فأغضب هذا الفعل الشعب الرومانى وأمر يوغرتا بالحضور إلى رومية ليبرأ نفسهُ فيها ، فجاءَ إليها متكلاً على دراهمهِ ودناءَة كبراء تلك المدينة ، ولقد كاد يظفر بالمنى لو لم يقتل هناك نوميديا سليلَ مسينيسا ، أراد أن ينازعهُ الملك حينئذ أعلنهُ المجلس الحرب ، وأوعز إليهِ أن يغادر إيطاليا حالاً ، قيل : إنهُ لما خرجَ من رومية فاه بهذه الكلمات :

أيتها المدينة المبنية على الفساد والرشوة ، إنك على شفا الخراب ، ولا يعوزك غير مشترٍ يشتريك .

وأراد الرومانيون تأديب يوغرتا الظالم الطاغى ، فأرسلوا إلى أفريقيا جيوشاً جرارة سنة (١١٠ ق . م) ، وأملوا أن يقمعوا بها ذلك الرجل المحتال ، ولكن دناءَة وطمع القواد حالا دون النجاح ، وألبسا تلك الأمة العظيمة ثوباً من الذل والعار ، لأن الملك النوميدى قدر أن يستميلهم بالدرهم الغرار ، فأهملوا واجباتهم وقضوا أياماً كثيرة بالجولان بالبلاد بلا فائدة ، وأخيراً حينما رجع القنصل رئيس تلك الجنود إلى رومية اغتنم يوغرتا الفرصة وحارب عساكرهُ وقهرهم وأكرههم أن يمروا تحت النير دلالة على الذل والعبودية .

ولما بلغت تلك الأخبار الشعب الرومانى غضب جداً وبعث سنة (١٠٩ ق.م) ميتلوس مع جيش جهزه لهُ ، وكان هذا القائد خبيراً بالفنون الحربية ورجلاً فاضلاً لا يؤثر شيئاً على خير أمتهِ والبلاد ، أتى أفريقيا وباشر الحرب بهمة وحكمة فنال على عدوّه ظفراً مبيناً واستولى على المدائن الحصينة ، ولقد كاد يذلل جميع المصاعب ويقبض على يوغرتا أسيراً لولا ماريوس أحد قواده الذى رغب فى الارتقاءِ ، فحمل الرومانيين بدهائهِ ومكره على إقامتهِ قنصلاً وتقليده قيادة الجيش.

وفى سنة (١٠٧ ق . م) وصل ماريوس إلى أفريقيا وأثار على النوميديين حرباً عواناً ، فقهرهم مراراً وشتت عساكرهم فى البلاد ، وأكره بوكخس ملك موريتانيا وحما يوغرتا على العود من ساحة القتال وطلب السلام ، فأرسل إليهِ خازنهُ سيلاً وهو رجل يقل نظيرهُ فى الدنيا ، ودليل ذلك ما ستراهُ فى هذا الكتاب عن أعماله العظيمة التى تشهد لهُ بالبراعة والفطنة ، ولكن لا تبرئهُ من المكر الذى اتخذهُ شعاراً ولا تبيض سيرتهُ التى سودتها قساوتهُ وجعلتهُ مثالاً للحقد وحب الانتقام .

وحينما قابل سيلا الملك المغربى أخبرهُ أن المجلس الرومانى يرضى بإبرام الصلح معه بشرط أن يشترى السلام بخدمة مهمة ويسلم صهرهُ يوغرتا إلى الرومانيين ، فتردد بوكخس زماناً طويلاً حتى أنهُ عزم أن يقبض على سيلا ويسلمهُ سيراً إلى يوغرتا غير أن هذا الباطل الرومانى تغلب عليهِ بمكره ودهائه وأراهُ جلياً ما وراء غدره من الأخطار ، وخوَّفه من غضب الرومانيين فحمله علَى خيانة صهره الذى دعاهُ إليهِ محتجاً أنهُ يريد مخابرتهُ ، ولما حضر قبض عليهِ وسلمهُ إلى سيلا مكبلاً بالقيود ، وهكذا انتهت هذه الحرب الشهيرة التى كان بودنا أن نتكلم عنها بالتفصيل حسبما روى ذلك سلست المؤرخ اللاتينى البليغ ، لولا وجوب مراعاة المناسبة فى الأخبار من حيث الإسهاب أو الاختصار ، وخوفنا من ملل المطالعين فى ديارنا العربية ، لأنهم لم يعتادوا درس الحوادث القديمة بهمة ونشاط فينفروا من كثرة الأسماء الأعجمية وتستك مسامعهم من ألفاظها الوحشية ، فيتخذون ما نكتبهُ وراءهم ظهرياً ، كما اتخذوا كتباً أخرى تاريخية ألفها أو ترجمها بعض الفضلاء من أبناءِ الوطن ، ولا ذنب على أولئك المؤلفين أو المترجمين سوى أنهم لم يبسطوا الكلام على الأخبار التى تستلفت أنظار المتفكهين ولم يهملوا الحوادث القليلة الأهمية المملوءَة بالألفاظ الغريبة التى يجب حصرها فى الجداول التاريخية أو تركها رأساً لأنها من مباحث الأسفار المطولة ، وهناك أيضاً ذنب آخر ، وهو أن بعض المترجمين غير مضطلع بلغتهِ التى يكتب فيها أو ينقل إليها ، فيلتزم الترجمة الحرفية ويعسر عليهِ أحياناً فهم غرض المؤلف ، فيأخذ فى التأويل والتحريف وهو يخبط خبط عشواء ، فيأتى كلامهُ لغواً وعباراتهُ خارجة عن حد التركيب المألوف ، وبعضهم يكون قليل المعرفة باللسان الذى يترجم منهُ فيتصرف بالمعانى وهو لا يدرى .

وكان سيلا يفاخر ماريوس بنصرته علَى الملك النوميدى حتى أنهُ عمل خاتماً نقش عليهِ صورتهُ وصورة باكخس آتياً يسلم إليهِ يوغرتا الذى أُحضر إلى رومية ومشى أمام مركبة القائد الظافر حينما احتفل بنصرتهِ ، ثم طرح بالسجن ومات فيهِ جوعاً .

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث

فى حرب السمبريين والتيتونيين والحرب الأهلية أو الإيطالية

إن تاريخ الشعب الرومانى هو بالحقيقة سلسلة قتال وفتن ، فلا تكاد هذه الأمة توصد باب حرب إلا ويفتح الزمان لها أبواباً لذلك لم يكن فرحها بانتصار ماريوس أو قهر يوغرتا خالصاً من شوائب الكدر ، لأن السمبريين والتيتونيين وهم قبيلتان ساكنتان فى الجهة الشمالية من أوروبا زحفوا إلى الجنوب بالقرب من جبال الألب وأخذوا فى تخريب ونهب البلاد الغالية ، فأرسل المجلس الجيوش اللازمة لقمع هؤلاء البرابرة ، ولكن قواد تلك الجيوش كانوا جاهلين غير متفقين فانكسروا سنة (١٠٤ ق . م) كسرة مهولة لم يرَ الرومانيون نظيرها منذ تأسيس مدينتهم ، لأن الأعداء قتلوا منهم ثمانين ألف رجل وأربعين ألفا من الخدام والتابعين ، غير أن هؤلاء الأقوام الظافرين لم ينتفعوا بنصرتهم بل طرحوا الذهب والفضة والأمتعة الثمينة التى غنموها فى النهر ، ومزقوا الثياب وكسروا السلاح ، وأغرقوا الخيل وعلقوا الموتى بأغصان الشجر ، وعوضاً عن أن يجتازوا جبال الألب ويدخلوا إلى إيطاليا زحفوا إلى أسبانيا فقهرهم هناك السلتبريون وألجأُوهم إلى رجوع من حيث أتوا .

ولا يمكننا تصور الكدر الذى استولى على الرومانيين حينما نعى لهم ذلك الجيش الجرار ، فهاجوا وأمروا بخلع القائد عن منصبهِ وحجز أملاكهِ ، ولا يخفى أن هذا الأمر قصاص قاص لم يعاقب بهِ قائد قبلاً .

ولم ير الشعب فى هذا الضيق رجلاً أقدر من ماريوس على إنقاذ الوطن من مخالب الأعداء ، فأقامهُ قنصلاً أربع سنوات متوالية ، وذلك مضاد للعوائد الرومانية والقوانين ، فشرع ذلك البطل يستعد للكر والكفاح ويعود جنوده الأتعاب والصبر عليها ، ثم زحف وعسكر على نهر الرون فالتقى هناك بالتيتونيين الذين أبى قتالهم لأنهُ رام أولاً اختبار شجاعة عساكره وجعلهم يألفون صياح

البرابرة الشبيه بعواء الذئاب ولا يجزعون من مناظرهم الوحشية القبيحة ، قيل : إن قائداً تيتونياً قوياً طويلاً أراد مبارزتهُ ، فأجابهُ إذا كنت تحب الموت اذهب واشنق نفسك ، ولما رأى التيتونيون أن الرومانيين يرفضون القتال زحفوا إلى إيطاليا فتأثرهم القنصل وهجم عليهم بالقرب من مدينة أكس سنة (١٠٢ ق .م) وقتل منهم وأسر أكثر من مائة ألف رجل ، وفى اليوم الثانى أتى ماريوس رسل من رومية وأخبروهُ أنهُ أقيم قنصلاً مرة خامسة ، فسبب هذا الخبر فى المعسكر فرحاً عظيماً وأصبح لذلك السرور عاماً .

وفى سنة (١٠١ ق . م) التقى السمبريون والرومانيون عند نهر البو ، وشرع كل فريق يستعد للكر والكفاح ، ويظهر أن السمبريين لم يبلغهم خبر انكسار التيتونيين أو لم يصدقوهُ ، فأرسلوا رسلاً يطلبون إلى القنصل أن يعطيهم أراضى ومدائن كافية لسكنهم مع أخوتهم .

– فسألهم من هم أخوتكم ؟

– قالوا لهُ : التينونيون .

فضحك جميع الحاضرين من كلامهم غير أن ماريوس التفت إليهم وأجابهم قائلاً :

– لا تهتموا بشأن إخوتكم ، لأننا قد أعطيناهم أرضاً كافية سيملكونها إلى الأبد .

فغضب السفراءُ جداً وظهرت على وجوههم سمات الحنق وقالوا لهُ :

– ستندم على كلامك لأن السمبريين سيفتكون بك أولاً جزاءً لك على احتقارك إيانا ، وحينما يصل التيتونيون سيقاتلونك قتالاً لا يبقى ولا يذر .

أجابهم ماريوس : قد وصلوا من مدة ، وأظن أنهُ لا يليق بكم أن تذهبوا قبل أن تروهم وتسلموا عليهم .

ثم أمر بإحضار ملوك (أو قواد) التيتونيين الذين أسرهم فرآهم السفراء ورجعوا فى الحال يخبرون قومهم بما جرى .

وأتى السمبريون بعد ذلك وعسكروا فى مكان قريب من الرومانيين وركب

ملكهم بوجاركس بفرقة من الفرسان ، وجاء وطلب الحرب ملتمساً من ماريوس أن يختار الزمان والمكان ، قال لهُ القنصل :

لا يخفى أن الرومانيين لم يعتادوا قط أن يشاوروا أعداءَهم بشأن القتال ، ولكن إجابة لطلبهِ يرضى بمحاربتهِ بعد ثلاثة أيام فى سهل فرتشلّة .

وفى اليوم المعين التقى الجيشان وانتشبت الحرب وكانت عواناً ، وقاتل الفريقان فى ذلك النهار قتال من استمات وثبتا ثبات الأبطال ، إلا أن الرومانيين انتصروا أخيراً على أعدائهم ونكلوا بهم تنكيلاً وأسروا ستين ألف رجل وأردوا الباقين ، وبلغت هذه الأخبار رومية ليلاً ففرح الشعب جداً وأخذ يقدم قرابين لماريوس كما يقدم للآلهة ودعاهُ مؤسس المدينة الثالث .

إن لفظة إيطاليا كانت تطلق قديماً على الأراضى الواقعة داخل نهر الروبيكون (الآن نهر لوزا حسب منشور البابا سنة ١٧٥٦ غير أن البعض يرجح كونهُ نهر بيزاتلو وهو أبعد منهُ قليلاً إلى الجهة الشمالية) الذى يصب فى بحر الأدرياتيك بالقرب من مدينة ريمينى الحالية ونهر أرنوس (الآن أرنو) الذى يصب فى البحر الترينى الواقع بين سردينيا وإيطاليا بالقرب من بيزا ، وهى أعظم مدينة فى أتروريا (الآن توسكانا) ، وكلا النهرين واقع فى عرض درجة (٤٤ شمالاً) ، أما البلاد الواقعة وراءهما إلى سفح جبال الألب فكانت تدعى غالياً « السيزألبية » ، وهى قد أُخضعت من زمان وجعلت ولاية رومانية .

ولم يحسب الرومانيون الإيطاليين رعية ، بل حلفاء تختلف شروط محالفتهم باختلاف الأزمنة والوسائل التى أُخضعوا بها وبناءً عليهِ لم يكن لهم جميع امتيازات وحقوق الوطنيين سكان رومية ، غير أن اللاتينيين كانوا ممتازين عن الأمم المجاورة والصابنيين كان هم حق الاقتراع ، لذلك لم ينهضوا مع الباقين فى طلب المساواة .

وكان الحلفاءُ مجبرين أن ينقدوا الرومانيين جزية معلومة فى كل سنة ، وأن يقدموا عساكر لمساعدتهم وقت الحاجة ، غير أن تلك العساكر كانت منفردة وحدها لا يمكنها الامتزاج مع الفرق الرومانية الخاصة ، أما قوادها ورؤساؤُها فكانوا رومانيين يطيعون أوامر قائد الجيش العام .

وكان الإيطاليون من زمان طويل يطلبون إلى الشعب الرومانى منحهم جميع الحقوق الوطنية ، فبدلاً من أن يمنحهم تلك الحقوق التى استحقوها بشجاعتهم وإخلاصهم للحكومة الجمهورية قتل الحكام والكبراءَ الذين حاربوهم ، فاتحدوا إذ ذاك جميعهم وأثاروا على رومية سنة (٩٠ ق . م) حرباً عواناً دامت سنتين ولم تنتهِ إلا بنيل ما رغبوا .

* * *

الفصل الرابع

فى حرب متريدات الأولى
وعداوة ماريوس مع سيلا

إن متريدات ملك بونتس الذى نازع الرومانيين زماناً طويلاً السلطة على البلاد الأسيوية ارتقى عرش مملكته فى السنة الثانية عشرة من عمره ، ولما كان هذا الأمير عاقلاً فطيناً أراد أوصياؤُهُ أنَ يهلكوهُ وهو صغير فأركبوهُ فرساً جموحاً أخذ يعدو بهِ الرهقى وهو يغير وينجد ، غير أن متريدات تخلص من الخطر بمهارته وثبات جنانهِ ، لأنهُ رجع إلى قومه آمناً سالماً ، قيل : إنهُ كان مولعاً بالطب والتطبيب حتى إن أعوانهُ لكى يتزلفوا منهُ كانوا يحرقون بقعاً من أجسادهم ليعالجهم وييسر بشفائهم ، وادعى أنهُ يحب الصيد لينجو من القتل ، ويكون على حذر خارج المدينة ، فقضى سبع سنوات جائلاً فى الرياض والغياض بين الجبال والآكام لا ينام فى بيت ليلة واحدة على أن هذه العيشة ، وتلك الأتعاب ولدت فى قلبه الشجاعة والثبات وعودتهُ الصبر على الأهوال والرزايا ، فشب فارساً مغواراً يصطلى بنارهُ وجباراً لا يحاكى فى ميادين الضرب والطعان ، فقتل أوصياءَهُ وأمهُ وأخاهُ وزحف بعساكره وأخضع قسماً عظيماً من البلاد السكيتية (الآن السلافية) وغيرها ، وأجبر الثراكيين ومنٍ يجاورهم أن يحالفوهُ ويساعدوهُ بجنودهم ، ويظهر أن نصراته هذه قد زادت أملهُ وأزالت على ما زعم جميع العقبات التى تقف فى طريق نجاحَه ، فطمحت أبصاره إلى افتتاح آسيا ، فغادر بلاطهُ وسافر منكراً مع بعض أصدقائَه يجول فى البلاد ليرى قوة المدائن والحصون والمظنون أن هذه الرواية قد اختلقها الرومانيون ليشهروا اعتداءَ الملك فى الحرب التى سنأتى على ذكرها فى هذا الفصل .

وحدث أن ملك كابدوكية تزوج كوديكى أخت متريدات ، فولدت لهُ غلامين، وكان ملك البونتس جاهداً فى الاستيلاء على تلك البلاد فاغتال صهره وسعى ليقتل ابنى أختهِ ، غير أن نيكوميدس ملك بيثينيا زحف بجنوده وافتتح كبادوكية واقترن بالملكة .

ولما بلغ متريدات ما جرى أسرع لمحاربة خصمه فقهرهُ وملّك ابن أخته البكر الذى ذبحهُ بعد ذلك بيده ، لأنهُ عصى أوامرهُ ولم يرضَ بإرجاع غورديوس قاتل أبيه من المنفى ، ثم طرد ابن أخته الآخر وولى ابنهُ وهو صبى عمرهُ ثمانى سنوات دعاهُ أرياراتس وأقام لهُ وصياً غورديوس المذكور .

وكان الحكام الذين أقامهم متريدات ظالمين طاغين ، فملَّ الكبادوكيون من جورهم وأرسلوا يدعون ابن ملكهم المتوفى ليملكوهُ عليهم ، فأتاهم هذا الفتى على جناح السرعة وحارب متريدات ، إلا أنهُ انكسر ومات .

وخشى نيكوميدس من ملك البونتس الذى استولى الآن على كبادوكية وقويت شوكتهُ أن تدفعهُ أطماعهُ إلى افتتاح البلاد البيثينية المجاورة لها ، فأتى بفتى مليح ادعى أنهُ ابن ملك كبادوكية المقتول وأرسلهُ إلى رومية مع الملكة لوديكى يسأل المجلس ردّ مملكة أبيهِ عليه ، وعلم ذلك متريدات فبعث بغورديوس ليدحض دعوى خصمهِ ويثبت أن الغلام المالك هو ابن الملك الحقيقى ويلوح أن الآباء أعضاء المجلس أدركوا وراء دعوى الفريقين من المكر والخداع ، فأخذوا كبادوكيا من متريدات وبافلاغونيا من نيكوميدس (هى بلاد استولى عليها هذا الأمير ظلماً وعدواناً) وأعلنوا أنهما حرتان مستقلتان ، ولما كان الكبادوكيون معتادين الحكومة الملكية طلبوا تولية ملك عليهم، واختاروا لذلك رجلاً شريفاً اسمهُ أريوبارزانس.

ولم يجاهر متريدات الكبادوكيين بالعداوة ، ولكنهُ أثار عليهم الأرمنيين فاستجاروا بالرومانيين الذين أرسلوا فى الحال سيلا إلى آسيا ليصلح أحوالهم ويطرد المعتدين ، ففعل ذلك سيلا ورجع من حيث أتى فى سنة (٩٢ ق . م).

وكان تيغرانس ملك أرمينيا قد افتتح مدائن وأقاليم واسعة شاسعة ، فأصبح مرهوب الجانب يخافهُ جميع الأمم المجاورة ، فتزلف متريدات إليهِ وزوجهُ ببنتهِ كليوبترا ، ثم أغراهُ بقتال الكبادوكيين فزحف الأرمنى بجنوده ، ولما علم ذلك أريوبارزانس ترك عرش ملكهِ ومملكتهُ وفرَّ هارباً يطلب النجاة .

ومات فى هذه الأثناء نيكوميدس فيلوباتر ملك بيثينيا وخلفهُ ابنهُ المدعو أيضاً نيكوميدس ، وكان الرومانيون راضين بهِ فأصدر مجلسهم أمراً يثبت جلوسهُ على أريكة آبائه إلا أن أخاهُ سوكراتس خرستس ادعى أن لهُ حقاً بالملك ، فاستعان بعساكر متريدات وحاربهُ وخلعهُ .

وعلم الرومانيون ما حدث فأرسلوا سفراء إلى آسيا ردوا على الملكين المعزولين ما فقداهُ ، وكان متريدات يود التظاهر بمصادقتهم ، فقتل سوكراتس خرستس المغتصب الذى لجأ إذ ذاك إلى بلاده مستجيراً .

وحالف متريدات فى ذلك الحين تيغرانس ملك أرمينيا وتعاهدا أنهما يتحدان لمحاربة الأمم المجاورة واتفقا أن المدائن والأراضى التى يفتحانها تكون ملك الأول، أما الثانى فلهُ الحق بنهبها ونقل سكانها إلى مدينة تيغرانوسرتا التى كان آخذاً ببنائها ، والتى كان يود أن يجعلها من أعظم مدائن العالم .

وكان المعتمدون الرومانيون فى أسيا يرومون انتشاب القتال ليتسنى لهم النهب وحشد الأموال ، فأغروا ملك بيثينيا بمحاربة متريدات ، فشن الغارة على بلاده وغزا قسماً عظيماً منها ، فتظاهر ملك بونتوس أن لا علم لهُ بما فعل ، وأمر سفراءُ الرومانيين وأرسل إليهم رسلاً يعرضون لهم ما جرى ويسألونهم مدداً لقمع نيكوميدس أو لإجباره على إرضائهِ وتعويضه مما خسر ، وكان السفراءُ البيثينيون يتشكون من اعتداءِ متريدات عليهم ويتهمونهُ أنهُ عدو رومية لكونه أسعف سوكراتس على خلع ملكهم الذى رضيهُ مجلسها واستولى على محال كثيرة فى خرزونزس الثراكية مع أن الرومانيين حظروا على جميع ملوك آسيا تملك قطعة أرض فى أوروبا ، ولو لم يكن ناوياً الغدر بمن يجاورهُ لم يجمع الجنود وهو يجهد فى محالفة ملوك كثيرين ، حينئذٍ أجابهم بيلوبيداس السفير البونتسى أن هذا المقام ليس مقام مماحكة وخصام ، فالأمر واضح لا يستوجب الجدال ، ثم استأنف التماسهُ من المعتمدين الرومانيين أن يأمروا نيكوميدس بكف القتال أو يسعفوا متريدات عليه ، فقالوا لهُ : إنهم غير راضين بما جرى لأن ذلك يضر الجمهورية الرومانية وأنهم لا يسمحون لأحد أن يعتدى على الآخر .

ولما كان متريدات موقناً أن الكبادوكيين هم المعتدون أرسل ابنهُ أرياراتس بكتيبة إلى بلادهم ، واستولى عليها سريعاً ، ثم بعث بيلوبيداس سفيراً إلى المعتمدين الرومانيين ، فقال لهم : إن غدر ومكر الكبادوكيين قد حملاهم على محاربتهم وأن مولاهُ قد أرسل يشكوهم إلى مجلس رومية ، فيلزمهم الذهاب إلى هناك ليدافعوا عن أنفسهم لديه ، فغضب المعتمدون من هذا الكلام وأمروا متريدات بالجلاءِ عن كبادوكية ، وأن يكف كل اعتداءٍ على نيكوميدس ، ثم صرفوا

السفير وأوعزوا إليهِ ألا يعود إليهم مرة أخرى إذا كان الملك ظل مصمماً على العصيان .

ولم ينتظر المعتمدون لإشهار الحرب أمر المجلس ، بل جهزوا سنة (٨٧ ق . م) من الولايات الأسيوية مائة وعشرين ألف رجل قسموهم إلى ثلاث فرق وفرقوهم فى البلاد ليحتلوا المراكز الحسنة ويهجموا على الأعداء وأمدهم نيكوميدس بخمسين ألف راجل وستة آلاف فارس ، أما عدد جنود متريدات فكان مائتين وخمسين ألف راجل وأربعين ألف فارس ، وكان لهُ مائة وثلاثون مركبة مسلحة وأربعمائة سفينة حربية ، وأمدهُ صهرهُ تيغرانس ملك أرمينيا وملوك بارثيا (خورسان) وسوريا ومصر بعدد عديد من الأبطال والفرسان .

وهاجم قائد ملك بونتس نيكوميدس بعشرة آلاف فارس أرمنى وبضع مركبات فكسراهُ وشتتا شمل عساكره ، وعامل متريدات بعد هذه الوقعة الأسراء بالرفق والإحسان وأرجعهم إلى بلادهم بلا فداء ، ثم زحف بجنوده الجرارة وقهر فرقة رومانية وأجلاً الفرقتين الباقيتين إلى الفرار ، فخضعت لهُ البلاد صاغرة واستتب لهُ الأمر فى جميع تلك الأنحاءِ ، ويظهر أن الانتصار لم يبطرهُ ولم يهيج بصدره حب الانتقام ، بل صفح عن الأهلين كافة وأعفاهم من الديون التى عليهم للحكومة وسمح لهم بجزية خمس سنوات ، واستولى بعد ذلك على كل مدائن وجزائر أسيا الصغرى ما خلا رودس، وقبض على القائد أُبيوس الرومانى وأكرمهُ، أما القائد أكويليوس فعاملهُ بقساوة عظيمة وأركبهُ على حمار فى مقدمة الجيش وأجبرهُ أن ينادى وهو سائر : أنا مانيوس أكويليوس البرو قنصل الرومانى وأماتهُ أخيراً فى أراضى تروادة بأن صب ذهباً مصهوراً فى حلقهِ ، وذلك توبيخ للرومانيين على طمعهم الأشعبى .

وعزم المجلس فى هذه السنة على محاربة متريدات وتأديبهُ ، فجهز جيشاً جراراً ولى القنصل سيلا قيادتهُ فأهاج ذلك فى قواد ماريوس حاسات الحسد والغضب ، لأنهُ كان عدوهُ وكان يرغب من زمان طويل قتال ملوك آسيا طمعاً بثروة تلك البلاد، فسعى مع صديقه سيلبيسيوس أحد وكلاءِ الشعب فى عزل سيلا عن منصبهِ ، فتم لهُ ما أرادهُ لأن المَجلس أُكره على إصدار أمر بهذا الشأن ، لكن سيلا كان وقتئذٍ بعيداً عن رومية يحارب أو يحاصر مدينة نولا ، فلم يصدع بأمر المجلس

وقتلت عساكره الرسولين المرسلين لإبلاغهِ ما حدث ، ولما علم ذلك ماريوس قتل كثيرين من أصدقائهِ وحجز أملاكهم وهو يريد بهذا الأمر أن يشفى غليلهُ وينتقم من عدوه الألد ، حينئذ زحف سيلا بجنوده إلى رومية ودخلها بعد أن قهر أعداءهُ وجمع المجلس فى الكابيتولينوس وأوعز إليهِ أن يصدر أمراً بنفى ماريوس وابنهُ وسلبيسيوس وتسعة آخرين فلم يحسر الأعضاءُ أن يفوهوا ببنت شفة بل صدقوا جميعهم على ما طلبهُ .

ولم يكف سيلا نفى عدوهُ ، بل أهدر دمهُ ووعد من يقتلهُ جزاءً ، ففرّ ماريوس من رومية هارباً وهام على وجههِ فى المدائن والبحار ، وما زال محفوفاً بالمشقات والأخطار حتى ألقى أعداؤهُ القبض عليهِ فى مرج منتورنى وقادوهُ أسيراً .

روى المؤرخون : أنهُ قال لفتى سمبرى همّ بقتلهِ : أتجسر يا رجل أن تقتل ماريوس ، فجزع السمبرى وهرب وأخذ يعدو حتى وصل إلى المكان المجتمع فيهِ شعب تلك المدينة ، فطرح سيفهُ وصرخ : لا يمكننى إرداء هذا البطل ، ويظهر أن المتورنيين أشفقوا عليهِ وخافوا منهُ ، فجهزوا لهُ مركباً وأعطوهُ زاداً وسمحوا لهُ بالرحيل عن ديارهم .

وظلّ هذا القائد الشهير تائهاً خائفاً حتى وصل إلى أفريقيا فلقيهُ هناك بين أطلال قرطجنة رسول والى تلك الولاية ، وأمرهُ أن يرجع من حيث أتى فأجابهُ : اذهب وقل لمن أرسلك : إنك نظرت ماريوس بين أطلال قرطجنة ، ومعنى هذا الكلام أن ما حدث لهُ ولتلك المدينة العظيمة مثالٌ صريح لغدر الدهر يعلم الوالى الحذر من صروف الزمان .

ولما كان سيلا قد غادر رومية ورحل لقتال متريدات قدر ماريوس أن يرجع إليها سنة (٨٦ ق . م) آمناً سالماً ، لأن صديقهُ سنا الذى أقيم قنصلاً أعانهُ على ذلك فدخلها مع أربعة آلاف عبد قوى شجاع وأوصد أبوابها ، وأخذ يقتل الأهلين بقساوة تقشعر منها الأبدان ، فمثلهُ مثل رجل بربرى قد استولى على مدينة عنوة وولجها ظافراً ومشهراً سيف الانتقام لا يعرف سوى سفك الدماءِ ونهب المهج .

وكان أعداؤهُ وأصدقاؤهُ يرتعدون خوفاً ، لأن حياتهم كانت متوقفة على إشارة أو التفاتة منهُ ، وكثيراً ما كان أعوانهُ الأشرار يفتكون بالأولى لا يرد عليهم التحية والسلام ، وبينما كان الدم جارياً فى شوارع رومية كالأنهار نهض ذلك الوحش

البربرى وقص على الشعب المجتمع ما عاناهُ من المشقات والأخطار ، ثم قال : إنهُ بعوده إلى المدينة قد عاد إليهِ ما خسرهُ حين نفيهِ منها .

وبعد أن داس هذا الظالم الفاجر قوانين بلاده وشرائع الإنسانية أراد أن يستر أعمالهُ القبيحة ببرقع العدل ، فسمح بمرافعة الذين يروم قتلهم ، فمات عدد عديد من الكبراء والعوام بسيف جوره وجور عدله ، وفرَّ كثيرون من العظماء إلى بلاد اليونان يستجيرون بسيلا وأخبروهُ أن عدوهُ قد حرق بيته وخرب أراضيهُ وأهلك أصدقاءهُ واستبد بالسلطة يفعل ما يشاءُ ويشاءُ ما لا يحل فعلهُ ، ومع كل هذا لم يكن ماريوس يعرف لذة الراحة أو راحة الضمير ، بل كان قلقاً تتقاذفهُ أمواج الهموم لأنهُ كان خائفاً سيلا ، وما زال كذلك إلى أن قبض فى (١٣ كانون الثانى سنة ٨٥ ق . م) ولهُ من العمر واحد وسبعون عاماً .

ولما استتب الأمر لمتريدات بقهره الجنود الرومانية أصدر منشوراً إلى سكان البلاد يأمرهم به أن يقتلوا فى يوم عينهُ لهم جميع الإيطاليين الموجودين فى مدائنهم رجالاً ونساءً أولاداً وشيوخاً عبيداً ومعتقين ، وأن يقتسموا بينهم وبينهُ أموال أولئك التعساء ، وجعل جزاء من يرحم إيطاليا الموت الزؤام ، فمات فى هذه المجزرة مائة ألف رومانى ، ويظهر أن الأسيويين كانوا أشد عداوة وبغضاً لهؤلاء الغرباءِ من ملكهم حتى إنهم لم يعفوا عن أحد لا خوفاً من متريدات بل شفاءً لغليلهم بماءِ الانتقام .

ولكى يمنع الرومانيين من الدخول إلى آسيا عزم على جعل أوروبا ساحة القتال، فأرسل أصغر أولاده المدعو « أرياراتس » مع جيش جرار إلى ثراكة ومكدونية ، وبعث أرخلاوس أعظم وأمهر قواده بعمارة إلى بلاد اليونان ليغرى الشعب بمحاربتهِ بالقوة أو الكلام ، فحالفهُ الآثينيون وعولوا على مساعدتهِ .

وفى سنة (٨٧ ق . م) وصل سيلا إلى بلاد اليونان وأسرع لمحاربة الآثينيين، فحاصر مدينتهم وأخذ يستعد للهجوم ، لأن أسوارها كانت منيعة جداً ، وأرسل يسأل الأمفقطيون أو مجلس الولايات اليونانية المجتمع فى ذلفى أن يبعث إليهِ بالأموال المذخورة فى هيكل الإله أبولو ليحفظها عنده ، فأذعن المجلس لأوامره وأعطاه الأموال المطلوبة ، وسلم إليهِ أيضاً أهالى أولبيا وأبيدورس أموال هيكل جوبيتر وأسكيلابيوس .

وكان أرخلاوس قائد متريدات قد دخل بيرياس ميناء أثينا ، فحارب سيلا مراراً وردَّ هجماته على الأسوار ، وجرت لذلك وقائع كثيرة أظهر فيها الفريقان شجاعة عظيمة ، إلا أن القائد الرومانى تغلب على أعدائه وفتح المدينة عنوة سنة (٨٦ ق. م) ، وأكره أرخلاوس على الفرار إلى سفنه ، ثم قتل كثيرين من كبراء الأثينيين والعوام وحرمهم حق انتخاب حكام ، وسنَّ شرائع ، أى سلبهم الحرية التى طالما جهدوا فى الدفاع عنها مخاطرين بالأرواح ، ولقى بعد ذلك أرخلاوس فى خرونيا وكسرهُ وأفنى جيشه الذى كان أكثر عدداً من الجيش الرومانى بأربع مرار ، ثم قاتل قائداً آسيوياً آخر فى سهل أورخومينس وقهرهُ وأردى من عساكره خمسة عشر ألف نفس ، قيل : إن الرومانيين خافوا جداً حينما دنوا من جيش متريدات ورأوا كثرة عدده ، فأرادوا الهرب ، فأخذ سيلا راية وتقدم وحدهُ للقاء الأعداء وهو يخاطب رجالهُ : دعونى أموت مجيداً فى هذا المكان ، واذهبوا وقولوا لمن يسألكم : أين تركتم قائدكم ؟ : إننا تركناهُ فى أرخومنس . فثارت بهم الحمية واحتدمت بقلوبهم نار الشجاعة ، وبادروا إلى الضرب والطعن، فدحروا هؤلاء البرابرة وشتتوا شملهم وبقى أرخلاوس يومين متوارياً فى المروج الموجودة هناك إلى أن تمكن من الفرار والنجاة .

ولما كانت أحوال متريدات فى آسيا على غير ما يرام لظلمه وفجوره ورأى انتصار الرومانيين المبين على جنوده فى البلاد اليونانية أرسل يأمر أرخلاوس أن يهادن سيلا بالشروط التى يراها موافقة فأسرع أرخلاوس بمخابرة القائد الرومانى الذى كان يرغب السلام كرغبة الملك فيه ، لأنهُ كان يود الرجوع إلى إيطاليا لينتقم من أعدائه الجائرين اللئام .

وكان القائد الأسيوى عالماً بما هو جارٍ فى رومية ، فقال لسيلا : إذا كنت ترضى أن تملك متريدات على أسيا وبونتس وترجع إلى إيطاليا لتهمد نار الفتن الأهلية فالملك يعينك بالمال والرجال .

أجابهُ سيلا : إذا كنت تخون متريدات وتسلم سفنهُ الحربية للرومانيين يمكنك أن تخلعهُ وتملك عوضاً عنهُ ، ويكون المجلس راضياً عنك ويمنحك لقب صديق وحليف شعب رومية .

فاشمأز أرخلاوس وظهرت على وجههِ سمات الكدر ، فقال لهُ سيلاً : أنت

عبد أو صديق ملك بربرى ، ترفض اشتراء الملك بالخيانة ، فكيف تجسر أن تسأل قائداً رومانياً هو سيلا خيانة وطنه لعلك نسيت أنك أنت أرخلاوس الذى تركَ من بضعة أيام جيشه فى سهلى خرونيا وأرخومنس رزقاً لطيور السماءِ ووحوش الفلا .

ولا ريب أن كلام القائد الرومانى البطل قد أخاف أرخلاوس وأذهله حتى أنهُ رضى حالاً بالشروط التى اقترحها سيلا وهى :

أولاً : يترك الملك أسيا وبافلاغونيا ويسلم بيثينيا لنيكوميدس ، وكبادوكيا لأريوبارزانس ، وينقد الرومانيين ألفى زنة تعويضاً لهم من نفقات الحرب ويعطيهم سبعين سفينة حربية .

ثانياً : يثبت سيلا متريدات ملكاً على الأراضى الباقية ويمنحهُ لقب صديق وحليف الأمة الرومانية .

وكان الملك متردداً فى التصديق على العهدة ، فأرسل رسلاً يخبرون سيلا أنهُ يرضى بالشروط المقترحة ، إلا أنهُ لا يمكنهُ تسليم بافلاغونيا والسبعين سفينة ، فطار الشرار من عينى القائد الرومانى وأجاب الرسل قائلاً : أيرفض متريدات أن يعطى ما أمرتهُ بإعطائه ، ألم يكن واجباً عليهِ أن يخرَّ ساجداً عند قدميَّ ويشكرنى لأننى تركت لهُ يده اليمنى التى ذبح بها الرومانيين ، لذلك سأؤدبهُ حينما أحضر إلى آسيا ، أما الآن فدعوهُ يحدث نفسهُ بحرب لم يرها بعد ، فخاف متريدات وصدع بأمر الظافر الشجاع .

وبعد أن أصلح سيلا شؤون البلاد عاد سنة (٨٣ ق . م) إلى إيطاليا بجنوده الجرارة ، واحتل برندزيوم وأسرع بالمسير إلى رومية .

* * *

الفصل الخامس

فى استيلاءِ سيلا على رومية

وإقامته ديكتاتوراً طول حياتهِ إلى حين موتهِ سنة (٧٨ ق . م)

ولما علم أصدقاء ماريوس والقابضون على زمام الأحكام بوصول سيلا إلى إيطاليا نهضوا يداً واحدة وجهزوا الأبطال والفرسان وزحفوا لقتاله وقتله إن أمكن، فانتشبت الحرب بين الفريقين مراراً ، وكان الظفر فى جميع الوقائع خاضعاً لسيلا ومعقوداً بلوائه ، لأن عساكره كانوا شجعاناً قد اعتادوا الضرب والطعان ورجالاً أمناء يخاطرون بأرواحهم فى ساحات القتال حباً بهِ وحازبه بومبايس وكراسس الشهيران وأعاناه على محاربة الأعداء وقهرهم .

وبينما كان سيلا راتعاً فى بحبوبة الظفر المبين وسائراً فى سبل النجاح حدث حادث كاد يوقعهُ فى مهاوى الذل والفشل ، وذلك أن بونتيوس تليزينوس القائد السمنيتى كان زاحفاً لإعانة مدينة برينستى فبلغهُ أن سيلا وبومبايس آتيان لمحاربته ، فنهض على الفور ومشى إلى رومية وأراد محاصرتها فخاف الأهلون منه خوفاً لم يروا مثلهُ منذ أيام أنيبال القرطجنى ، غير أنهم استعدوا لقتاله وخرجوا عليهِ ليدافعوا عن مدينتهم ، فلم يثبتوا أمامهُ ولم يطيقوا كرَّهُ وكفاحهُ ورجعوا حالاً إلى رومية مدحورين .

وعلم سيلا بما فعل الأعداء ، فأتى بعساكره مسرعاً وهجم عليهم هجمة الأسد الرئبال وحملت الرجال على الرجال وسالت الدماءُ أنهاراً ، وكان تليزينوس قائد السمنيتيين يجول بين الصفوف يشجع الأبطال ويحث الشجعان وهو يقول : هذا آخر يوم من حياة رومية ، نهدم بهِ المدينة وندك أسوارها لأننا لا ننجو من تلك الذئاب الخاطفة السالبة حرية الإيطاليين إلا بخراب وجارها ، ولما كان الرومانيون قد أتعبهم مسيرهم السريع وكانوا قد بادروا إلى الحرب قبل أن يستريحوا خارت قواهم وابتدأت جنود الميسرة فى الرجوع إلى الوراءِ والهزيمة ، ولما رأى ذلك سيلا ارتبك فى أمره وأخذ صورة الإله أبولو التى كان معلقها فى عنقهِ وقبلها وقال:

ترى بعد ما انتصرت مراراً عديدة فى جميع الأقطار قد أتيت إلى وطنى لأقهر عند أبوابهِ وأهلك لابساً لباس الذل والعار .

ودام الفوز للسمنيتيين إلى أن خيم الظلام وخرَّ تليزينوس قائدهم جريحاً فانكسروا واستولى الرومانيون على معسكرهم وأردوهم جميعاً .

وكان ماريوس بن ماريوس الشهير قد لجأ إلى مدينة برينستى وتحصن فيها ، فحينما بلغهُ خبر انكسار القائد السمنيتى يئس من الفوز وانتحر ، ففتحت المدينة أبوابها لسيلا وخضعت لهُ صاغرة ، حينئذ لقب ذلك البطل نفسهُ بالسعيد ودخل رومية ظافراً وأخذ فى سفك الدماء وقتل أبرياء ومجرمين بلا فحص ولا شفقة ، فجرى من المهجات بحرٌ زاخر ، وأصبحت عاصمة العالم والبلاد الإيطالية مجزراً تذبح بهِ الناس كالأغنام .

وفتح هذا الظالم أعمالهُ الوحشية بأن جمع ثمانية آلاف أسير فى محل عمومى وأمر المجلس بالالتئام فى هيكل بلونا القريب من ذلك المكان ، وبينما كان يخطب كانت عساكرهُ كما أوعز إليها تقتل أولئك الأسراء التعساء الذين ملأ صراخهم ونواحهم الفضاء ، فرعب أعضاء المجلس وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم سيلا : انتبهوا أيها الآباء لما أنا قائلهُ ولا تبالون بصراخ بعض أشقياءَ أمرت بقصاصهم .

بعد ذلك شرع فى القتل والنهب ، فلم يصفح عن أحد من أعدائهِ ولا أعداءَ أصدقائهِ ، وكثيراً ما كان أعوانهُ يقتلون أناساً أبرياء لسبب رفعة شأنهم أو طمعاً بمالهم ، وفى ذات يوم قال لهُ كاتيلوس أحد أصدقائهِ : مع من يلزم أن نعيش إذا كنا نقتل فى الحرب الرجال المتسلحين وفى السلم الذين نراهم عزلاً ؟ ، وسأله صديق آخر : متى تكون نهاية هذه البلايا ، ومن هم الذين عزمت على إردائهم والذين ترغب خلاصهم ؟

أجابهُ سيلا : لست أعلم بعد من سأترك حياً ، وطلب إليهِ آخران يعلمهم أسماء الأولى يريد إهلاكهم ، فوعدهم بذلك .

وفى الغد أصدر منشوراً كتب فيه أسماء ثمانين شخصاً حكم عليهم بالموت ، وأمر أن كل من يخلص أحداً منهم يُقتل ، ومن يقتل أحدهم يأخذ جزاءً ألفى زنة

وأن أملاكهم وأموالهم تحجز ولا يجوز لأولادهم ولحفدتهم أن يتولوا منصباً فى الحكومة ، وطريقة القتل هذه هى إهدار الدم ، وأول من أجراها هو سيلا .

قال سلُّست المؤرخ : إنهُ أول من فرض قصاصاً لأناس لم يولدوا بعد وأعد ضرراً للأولى حياتهم غير مؤكدة .

وفى اليوم التالى أهدر دم مائتين وعشرين نفساً ، وفى اليوم الذى بعده مثلهُ ، وقال للشعب وهو مجتمع : إننى قتلت من فطنت بهِ والذين نسيتهم الآن سأهلكهم فيما بعد ، وبالجملة إننى لا أعفو عن أحد من أعدائى ، ثم أصدر منشوراً أهدر بهِ دم أربعين أباً من أعضاء المجلس وألف وستمائة فارس . قبل : إن متريدات لم يذبح من الإيطاليين بمقدار ما ذبح منهم سيلا ، لأن جلاديهِ كانوا يطوفون فى البلاد يبحثون عن الذين حاربوا ماريوس ويقتلونهم ، ولم يكن الذنب فقط بمحاربة سيلا بل بمساعدة أعدائهِ ومصادقتهم أو إقراضهم دراهم أو السفر معهم ولو اتفاقاً ، وكانت أبصاره طامحة إلى الأغنياء ليستولى على أموالهم ويعطيها لأعوانهِ ، وقد والى أناساً أشقياء لئاماً كان أولى بهم الصارم البتار من جملتهم أو بيانيكس وكاتيلينا ، **فالأول** فارس رومانى من لارنيوم قتل امرأة أخيهِ ليرث ابنهُ أموال جدتهِ ، فأغضب فعلهُ أقرباءهُ وأرادوا إهلاكهُ ، ففر هارباً إلى معسكر ميتلوس وحدث أن سيلا أرسلهُ بعد ذلك بفرقة من العساكر إلى مدينة لارنيوم لقضاءِ بعض حاجات ، فذبح جميع الذين قصدوا إضراره .

والثانى قتل أخاه وطلب إلى البرو قنصل أن يدرج اسم أخيهِ بين الذين حكم عليهم بالموت ، وقبض على رجل اسمهُ ماريوس غراتيديانوس وجلده فى المدينة أمام الناس ثم سحبهُ إلى ضريح كسر عليهِ رجليهِ وذراعيهِ وقلع عينيهِ وقطع يديهِ وأذنيهِ ، وبعد ما أذاقهُ من العذاب ألواناً ضرب عنقهُ وأحضر رأسهُ إلى سيلا فى الفورم ، وذهب وغسل يديهِ فى بركة هيكل الإله أبولو المقدسة .

وكان يوليوس قيصر فى خطر عظيم لأن ماريوس الكبير تزوج عمتهُ واقترن هو بابنة سنَّا ففصلهُ سيلا عن الكهنة أرفاقهِ ، وحجز أملاكه وكاد يقتلهُ لو لم يأتهِ كبراءُ رومية والمتبتلات خادمات الآلهة فيستا ويلحون عليهِ بالعفو عنهُ ، أجابهم : قد تغلبتم عليَّ فى هذا الأمر ، ولكن اعلموا أن الذى تودون خلاصهُ سيقهر

جميع الأحزاب ، وإذا كنتم لا ترون فى هذا الغلام رجلاً يفوق ماريوس يكون الجهل قد أعمى أبصاركم وبصائركم وجعلكم لا تدركون من العالم شيئاً .

ويلوح أن قتل الناس وتنكيلهم لم يكفيا ذلك الظالم الطاغى ، بل أمر بهدم وتخريب مدائن كثيرة كبيرة وذبح قسماً عظيماً من سكانها وقتل جميع السمنيتيين أو نفاهم من إيطاليا محتجاً أن هذه الأمة عدوة الرومانيين ، فلا تدعهم أبداً يذوقون لذة الراحة والسلام .

ولما آن أوان انتخاب قنصلين يتوليان الأحكام جرياً على العادة غادر سيلا المدينة وعاد إلى معسكره وكتب منهُ إلى المجلس أو إلى رئيس لجنة الاقتراع كتاباً يأمرهُ فيه أن يسأل الشعب إقامة ديكتاتور يقبض على زمام الأحكام إلى أجل غير مسمى يصلح الأحوال فى سائر الأقطار وختم رسالتهُ بقوله : إنهُ يود تقديم هذه الخدمة للجمهورية إذا كانت الأمة ترضى بذلك ، حينئذ جمع فالريوس رئيس لجنة الاقتراع الشعب ووضع قانوناً مفاده إقامة سيلا ديكتاتوراً إلى أجل غير مسمى ، وصدق على جميع أعماله الماضية ، وأعطاهُ سلطة مطلقة على حياة وأموال الوطنيين .

وفى أول كانون الثانى سنة (٨١ ق . م) احتفل الديكتاتور بنصراته فى الشرق وقيمت الأفراح يومين ، وكان الآباءُ أعضاءُ المجلس والوطنيون الذين صانهم من غضب ماريوس وسنَّا ماشين خلفهُ فرحين وهم يدعونه أبا الوطن وحامى الذمار غير أن بعضاً من عساكره دعاهُ ملكاً متنكراً ، أما التاريخ فلا يتردد بتسميته ظالماً طاغياً مستبداً .

وحينما انتهى الاحتفال ارتقى سيلا المنبر وخطب خطاباً طويلاً ذكر فيه أعمالهُ العظيمة ونسب نجاحهُ لآلهة الحظ ، ودعا نفسهُ لذلك بالسعيد ، وأقام المجلس لهُ تمثالاً كتب عليه اسمهُ مع هذا اللقب .

وكان كثيرون ممن حارب ماريوس وسنَّا قد لجأوا إلى سيسيليا وأفريقيا وجاهروا بالعصيان ، فأرسل الدكتاتور بومبايس ليقاتلهم ، فسار هذا القائد الفتى بالجنود اللازمة وقهرهم ، ثم ارتد راجعاً إلى رومية ، فالتقاه الديكتاتور بالترحاب والتكريم ولقبه بالكبير ، إلا أنهُ لم يسمح له بالاحتفال بنصرته قائلاً : إن الشريعة الرومانية تحظر هذا الإكرام والشرف على الذين لم يقبضوا قط على زمام الأحكام

أجابهُ بومبايس : إن الساجدين للشمس عند إشراقها أكثر جداً من الأولى يسجدون لها وقت المغيب . ولم يسمع سيلا هذه العبارة ولكنهُ رأى سمات الدهشة والانذهال على جميع الوجوه ، فسأل الحاضرين عما يسرون فأخبروه بما قال بومبايس ، فعجب جداً من جسارتهِ ورضى بإنالتهِ ما طلب .

ومعلوم أن سيلا كان مطلق السلطة وقوياً ، فلو أراد أبطال الحكومة الجمهورية وارتقاء عرش الملك لم يعترضهُ أحدٌ في العالم ولكنهُ كان يرغب فى الاعتزال عن الأعمال السياسية بعد أن يهلك أعداءَهُ كلهم ليمكنهُ أن يعيش بالراحة والهناء ، وبناءً عليهِ لم يبقَ فى المجلس إلا من كان مديوناً لهُ بحياتهِ وشرفهِ ومالهِ وحط سلطة وكلاءِ الشعب وقوى شوكة الشرفاء، وقسم بين عساكرهِ البالغ عددهم مائة وعشرين ألفَ نفس الأراضى التى أخذها من الرجال الذين سقاهم بسيف ظلمه كأس المنون ليظلوا يدافعون عنهُ وعن شرائعهِ متى مست الحاجة ، ولما تم لهُ ما أراده وأدرك من العظمة درجة لم يدركها أحدَ قبلهُ استعفى من منصبه وسلم زمام الأحكام لقنصلين جديدين ، ومضى يذوق فى العزلة لذة الراحة والسلام ، ولكن أين تلك الراحة لرجل أضنى جسمهُ التعب وأوهتهُ الرذائل ، فاعتراهُ مرض ردىءٌ جداً أفسد أحشاءَهُ وكسى جسمهُ دوداً ، ولم يكن الاغتسال والنظافة يجديانه نفعاً، فمات سنة (٧٨ ق . م) بحالة تعيسة جداً ، وقد أمر أن يكتبَ على ضريحهِ ما معناه : لم يفق أحد سيلا فى الإحسان إلى أصدقائهِ والانتقام من أعدائهِ .

وقبل الابتداءِ بحرب متريدات الثانية نلمح إلى أعمال وأخبار سرتوريوس وهو من أعظم رجالَ الرومانيين العصاميين ، ولد فى قرية صابينية واشتهر فى الحرب التيتونية مع ماريوس ، وتقلد عدة مناصب عالية ، وحينما ثارت الحرب الأهلية سنة (٨٨ ق . م) حارب العوام ، ولكنهُ لم يعادِ ماريوس رئيسهُ القديم .

وفى سنة (٨٢ ق . م) أقيم والياً على الديار الأسبانية ، فجمع العساكر وذهب إلى موريتانيا وكسر فيها باكشيانوس أحد قواد سيلا وأحبهُ الأسبانيون ، لاسيما قبيلة اللوزيتانيين وألقوا إليهِ مقاليد الأمور ، فنظم منهم جنوداً قدر أن يلقى بها الجيوش الرومانية ويقهرها مراراً ، ولما كان أولئك البرابرة جهلاء يعتقدون بالخرافات أراد التسلط على عقولهم بالأوهام ، فربى ظبياً وأكثر الاعتناء بهِ حتى

دجن وأصبح لا يفارقه ، فادعى حينئذ إن الظبى رسول الآلهة يعلمهُ أسرار المستقبل ، فصدق ذلك الأسبانيون وأذعنوا لكل أوامره بطاعة عمياء ، وبعد أن استولى سيلا على إيطاليا لجأ إليه كثيرون من كبراء تلك البلاد الذين حكم عليهم الديكتاتور بالموت ، وأتاهُ القائد بربرنا بثلاث وخمسين فرقة رومانية ، فقويت شوكتهُ وأنشأ مجلساً عالياً مثل مجلس رومية ، وفتح مدرسة فى مدينة هيُسكا (الآن أُسكا) ليعلم أولاد الأهلين العلوم والآداب ، وكانت الحرب إذ ذاك ثائرة بينهُ وبين الرومانيين الذين أرسلوا إليه القائدين متيلوس وبومبايس ، ودامت الحال هكذا إلى سنة (٧٢ ق . م) حينما قتلهُ بربرنا وقواد آخرون فى وليمة دعاهم إليها .

أما سبرتاكس فولد فى ثراكة ، وكان أولاً راعياً فصار جندياً ، ثم رئيس لصوص ، ووقع فى أيدى الرومانيين الذين أسروه وباعوهُ لمدرّب السيافة (فى اللاتينية غلادياتور ، وهى لفظة مشتقة من غلاديوس - أى السيف - وهم جماعة من الأسراء أو المذنبين يمرنون على ضرب السيف ويبرزون فى أوقات معينة أو فى الأعياد العظيمة بميادين الملاعب ويتقاتلون أمام الحضور ويسفكون دماءهم ليسر المتفرجون برؤية تلك المناظر القبيحة التى تنفر منها القلوب وتقشعر الأبدان ، فلا أعلم كيف كان الرومانيون يتهافتون عليها ويعدونها من أحسن وأجمل الملاهى ، وعندى أن لعب السيف والترس المألوف فى بلادنا بالأعياد والأفراح مأخوذ عنها ، وأظن أن لفظة السيافة التى استعملتها تدل تماماً على المعنى المقصود لأنه فضلاً عن كونها ترجمة حرفية لغلادياتور باللسان اللاتينى قد ورد بالقاموس أن السيافة هم الذين سيوفهم حصونهم ، فتأمل) .

ففرَّ من المدرسة مع سبعين رجلاً من أرفاقه ولجأوا جميعهم إلى بركان فزيفيوس فأتاهم عبيدٌ كثيرون واتحدوا معهم وتعاهدوا أن يموتوا وهم مجردون الحسام فداء الحرية ، وأقاموا سبارتاكس رئيساً عليهم وقائداً ، وحاربوا الجيوش الرومانية زماناً طويلاً وقهروها مراراً فاستفحل أمرهم وأخذوا يخربون إيطاليا طولاً وعرضاً ولم يقمعهم سوى كراسس الذى قتل الراعى وبدّد الخراف .

* * *

الفصل السادس

فى حرب متريدات الثانية والثالثة

قد طبع ملك البونتس على الطمع وحب الفخار واعتاد وهو صغير خوض عجاج الحروب والصبر على الأهوال ، فيذوق فى ساحات القتال ونزال الأبطال لذة لا يشعر بها المخنث الجبان بقصور الأمراءِ بين ربات الخدور ، وفى خدور ربات الجمال ، ولذلك حالما أبرم الصلح مع الرومانيين ، ورأى سيلا قد غادر البلاد أخذ فى الاستعداد للكر والكفاح وشن الغارة على الكولخيين فقهرهم وملّك عليهم ابنهُ المدعو متريدات الذى قتلهُ بعد ذلك ظلماً وعدواناً ، ولما كان لا يفتر عن تجهيز الأبطال وحشد الجنود ظنَّ الرومانيون أنهُ ينوى الانتقام منهم والفتك بهم، فتقدم مورينا وهو القائد الرومانى الذى تركهُ سيلا فى آسيا ودخل بلاد كبادوكية واستولى على مدينة كومانا ، ونهب هيكل بلُّونا إلهة الحرب وأخت أو زوجة المريخ ، فزحف متريدات بجنوده حالاً وانتشبت الحرب ودامت ثلاث سنوات إلى أن أرسل سيلا سنة (٨١ ق . م) رسلا يأمرون الفريقين بكف القتال فأذعنا لأوامر الديكتاتور وانصرف كل إلى مركزه ، غير أن متريدات لم يصرف جنودهُ بل زحف بهم لمحاربة القوقافيين والساكنين بالقرب من نهر فارس ليمرنهم ويجعلهم أبطالاً قادرين على لقاءِ الرومانيين فى كل آن ومكان .

وفى هذه الأثناء كانت الفتن الأهلية وحرب سبارتاكس وسرتوريس قائمة على قدم وساق فى إيطاليا وأسبانيا ، فظن متريدات أنهُ يمكنه الانتصار على الرومانيين فأغرى تيغرانس أن يجاهر بالعداوة ، فدخل هذا الملك بلاد كبادوكية واستولى عليها وخرب اثنتى عشرة مدينة منها ، ونقل سكانها البالغ عددهم ثلثمائة ألف نفس إلى تيغرانوسرتا مدينتهِ المحبوبة .

وفى سنة (٧٥ ق . م) مات نيكوميدس ملك بيثينيا الذى أوصى بمملكتهِ للرومانيين ، فأغضب هذا الأمر متريدات لأنهُ كان يود من زمان طويل الاستيلاء على تلك البلاد ، فراح إذ ذاك برقع الصداقة وأشهر حربهُ الثالثةُ مع الشعب الرومانى آملاً أن ينتصر عليهِ وينال الوطر لأنهُ جمع فى هذه المرة مائة وعشرين

ألف جندى خاضوا عجاج الحروب مراراً وأصبحوا خبيرين بالضرب والطعن ثابتين لدى الأهوال فى ساحات القتال لا يبالون بشرب كأس الحمام ، وعمل مائة مركبة مسلحة بالمناجل تدفع بين صفوف الأعداء فتحصد الأعمار حصداً وجهز أربعمائة سفينة كبيرة ، وتقدم لمحاربة البلاد البيثينية براً وبحراً ، فافتتح قسماً منها وزحف لمحاصرة مدينة كيزيكوس ، وبينما كانت جنوده محيطةً بها والقتال منتشب بينهُ وبين الأهلين جاء ليكولوس القنصل الرومانى وهجم عليه هجمة الرئبال فدحرهُ وقتل عدداً عديداً من عساكره وأكرههُ على الفرار بحراً إلى مدينة باريوم ، ثم تأثر من بقى من رجاله ودهمهم عند نهر غرانيكس ، فقتل منهم عشرين ألفاً وأسر كثيرين وشتت شمل الباقين ، وحينما رجع إلى كيزيكيوس استقبلهُ شعبها بالترحاب والإكرام وعمل لهُ عيداً أدعاهُ « ليكوليا » .

وجرت بعد ذلك وقائع كثيرة بين الفريقين كان النصر فيها للرومانيين الذين استولوا على بلاد البونتس ، فلجأ متريدات إلى صهره ملك أرمينيا ، وبينما كان منهزماً وعساكر ليكولوس تتأثرهُ لتأسرهُ ترك فى الطريق برذوناً محملاً ذهباً فأشغل النضار الجنود الرومانية وسهل لهُ الفرار والوصول سالماً إلى تيغرانس سنة (٧٠ ق . م) .

وكان تيغرانس وقتئذ أعظم وأقدر ملك فى آسيا ، قد ألف الحروب من صغره، فنشب بطلاً مغواراً ، وقهر أمراء كثيرين واستولى على بلادهم ، ودعا ذاتهُ «ملك الملوك » ، وافتتح مزوبوتاميا (الآن الجزيرة) ، ونقل إليها أقواماً يونانيين من كليكية وكبادوكية ، وأكره بعض قبائل عربية أن تأتى بلادهُ وتستوطنها وتتعاطى التجارة فيها .

ولما ملّ السوريون من الحروب والفتن الأهلية التى أثارها السلوقيون ملوكهم خضعوا لهُ اختياراً وطلبوا حمايتهُ ليعيشوا بالراحة والهناء تحت ظل رايته الظليل ، غير أنهُ كان متكبراً فخوراً يحتقر البشر ويظنهم خلقوا لخدمته وعبادته ، وعليه فالملوك الذين غلبهم كانوا يمشون أمامهُ أو وراءه متى ركب ويقفون عند قدميه صاغرين حينما يجلس على سرير الملك ، وذلك إشارة إلى أنهم عبيد سيدهم القادر أن يفعل بهم ما يشأ ويريد .

وكان تيغرانس يستعد لقتال الرومانيين ، لأنهُ أبى أن يسلم إليهم حماهُ متريدات

فجمع الأبطال والفرسان ، وماجت الأرض بأقدام المحاربين ، وملأ الفضاء أصوات الجنود وصهيل الجياد ، ويلوح أن ليكولوس قد احتقر أعداءه ولم يبال بهم ، فتقدم بجسارة إلى البلاد الأرمنية ودخلها باثنى عشر ألف راجل وثلثمائة فارس غير خاشٍ بأس عدوه أمير الشرق وملك الملوك الذى أعمى بصيرتهُ وبصره انتصاره القديم على أمراءِ الولايات الصغيرة التى تجاور مملكتهُ فلم يكترث للرومانيين ، ولم يباشر الحرب بهمة ونشاط بل كل غارقاً فى بحار الملذات بين ربات الحسن والجمال وجماعة من الكبراءِ المملقين الذين يتزلفون إليهِ بالثناءِ على أعمالهِ التى تستوجب أحياناً الذم والإهانة ، وبناء عليهِ لم يعلم أو لم يرد أن يعلم تقدم أعدائهِ فى بلاده ، لأن الرجل التعيس الذى ساقهُ سوء الحظ إلى إخباره بوصول الرومانيين كان جزاؤُهُ شرب كأس الحمام فى الحال ، وما زال ليكولوس سائراً بأمان يفتتح المدائن ويستولى على الأقاليم حتى وصل إلى المدينة تيغرانوسرتا وحاصرها ، فتنبه إذ ذاك الملك الأرمنى من رقدة الإهمال وزحف بجنوده لمحاربة قوم أتوا على ما زعم لتجرع الموت الزؤام بعيداً عن الأوطان ، وحينما أبصرهم ورأى قلة عددهم استغرب وقال : إذ كان هؤلاءِ سفراء فكثيرون، وإذا كانوا أعداءَ فقليلون ، وهكذا قضى نهارهُ وليلهُ فى المزاح والسخر منهم .

ولما أصبح الصباح زحف الجيشان للقتال وكان جدول فاصلاً بينهما ، فأخذ الرومانيون يتقدمون إلى ناحية من النهر رأوها أحسن مركز فى ذلك المكان ، فظن تيغرانس أنهم عازمون على الهزيمة ، فقال لأحد قواده : انظر إلى أعدائنا كيف يستعدون للهرب ؟ أجابهُ القائد : أود أن يتم هذا الأمر الذى أخالهُ مستحيلاً لأننى أرى بريق سلاحهم ومغافرهم ، واعلم علم اليقين أنهم إن جردوا الصوارم لا يغمدوها إلا بعد الظفر .

وبينما كان ليكلوس آخذاً فى اجتياز الجدول قال لهُ أحد أعوانهِ : إن هذا النهار وهو (٦ تشرين أول) يتشاءم بهِ الرومانيون ، أجابهُ : ونحن سنجعلهُ فألاً ، ثم داوم المسير حتى وصل إلى قمة رابية ، ومن هناك هجم على الأعداء فى مقدمة جنوده وهو يناديهم : دونكم الانتصار ، فبادروا إليهم كالضراغم وما زالوا يضربونهم ويطعنونهم إلى أن قتلوا منهم مائة وخمسين ألف رجل وشتتوا شمل

الباقين ، ولم يمت من الرومانيين حسبما روى المؤَرخون ، وأظن فى الرواية مبالغة سوى خمسة أنفس وجرح البعض ، وذلك سنة (٦٩ ق . م) .

ثم رجع الرومانيون بالطريق التى أتوا منها وجمعوا أسلاباً وأموالاً لا تحصى ، وكان تيغرانس قد هرب فى ابتداء المعركة فأعطى تاجهُ وهو يبكى لابنه وحرضهُ أن يذهب بطريق أخرى ويطلب النجاة لنفسه ، فلم يجسر الأمير الفتى أن يضع التاج على رأسه ، بل سلمهُ إلى أحد أعوانه الذى أسره الرومانيون وأخذوا منهُ التاج المذكور .

وذكر القدماء هذه المعركة وعجبوا جداً من انتصار ليكولوس السريع وانكسار تيغرانس العظيم ، قال أحدهم : إن الشمس لم تشاهد قط يوماً كهذا ، وقال آخر : إن الظافرين قد خجلوا من أنهم قد استلوا سيوفهم لمحاربة عبيد جبناء محتقرين .

ومن الأمور التى يجدر بنا الالتفات إليها والتنبيه عليها هو : امتهان الأوروبيين للشرقيين فى الزمان القديم والحديث ، فإنك قلما ترى كتاباً من كتبهم يذكرون فيه حرباً أو فتنة جرت بين الفريقين إلا وينسبون لأعدائهم الأسيويين الجبن وخساسة الأخلاق ، ولعمرى أنهم يرتكبون فى ذلك متن الشطط لأنهُ من ينكر شجاعة العرب العرباء الذين دانت لهم أمم الأرض صاغرة ، ومن لا يقرُّ بالبسالة والفراسة للأقوام الأسيويين الذين رحلوا من بلادهم فى أوقات مختلفة واستولوا على المدائن والأقاليم وأحيوا مدى قرون عديدة الرعب فى قلوب الغربيين ، ولكن لكل زمان دولة ورجال ومعلوم أن الثروة والنجاح يورثان التنعم والإهمال سببى الخراب ، لا سيما فى الأيام القديمة حيث الظفر كان متوقفاً على الجسارة أكثر من الرأى ، ومع هذا كله لا أرى الرومانيين فى أيام سلاطينهم أقلَّ جبناً وخساسة من الأرمنيين الذين يسخرون منهم فى هذا المقام ويشركون معهم جميع القاطنين بقارة آسيا الواسعة الأرجاء .

وكان حاكم تيغرانوسرنا يأبى تسليمها إلى الرومانيين ويرغب فى مداومة الدفاع عسى حادث غير منتظر يأتيه بالفتح ، إلا أن اليونانيين الموجودين فى المدينة نهضوا يداً واحدة وقاتلوا الأهلين المحاربين الحاكم ، واستولوا على إحدى القلاع وفتحوا أبوابها للأعداء ، فدخلها ليكولوس وجنودهُ وقبض على خزائن الملك ، وجد فيها

ما خلا الأمتعة الثمينة والجواهر ثمانية آلاف وزنة ذهب وفضة (نحو مليون واحد وخمسمائة وخمسين ألف ليرة إنكليزية) ، فمنح كل واحد من عساكره ثمانمائة دراخمة (نحو ست وعشرين ليرة إنكليزية) ، وسمح لليونانيين أن يرجعوا إلى بلادهم وأعطاهم ما يلزمهم من الدراهم لأجل نفقات السفر وعامل الباقين الذين نقلهم تيغرانس إلى هذه المدينة بالرفق والإحسان ، وأذن لهم بالانصراف إلى الأوطان ، فأصبحت تيغرانوسرتا بعد تلك العظمة قرية صغيرة لا ذكر لها بين مدائن الشرق .

ولا يخفى أن الزمان خير مؤدب للإنسان يكسبهُ خبرة بالتجارب وتكسبه التجارب ثوب حكمة وفطنة ، وعليهِ فتيغرانس بعد ما قهره الرومانيون ذل وعرف ضعفهُ وجهلهُ ، فدعا حماه متريدات وفوض إليهِ إصلاح أحواله وقيادة جنوده ، فجهز ملك البونتس فى الحال الفرسان والأبطال وتقدم لقتال الأعداء ناهجاً غير منهجه الأول ، وذلك أنهُ كان يجتنب المعامع العظيمة ويرقب حركات الرومانيين ليفتكَ بهم اغتيالاً ويمنع وصول القوت إليهم ، فضاق ليكولوس ذرعاً وأراد محاربة متريدات بأية وسيلة كانت ، فساق عساكرهُ إلى جهة أرتاكزاتا عاصمة أرمينيا ، حيث ادخر تيغرانس أمواله وأبقى نساءَهُ ، فاغتر الملكان بخداع الرومانى وأسرعا لقتالهِ دفاعاً عن تلك المدينة ، ولما علم ليكولوس مراد عدويهِ فرح واستبشر وانقض عليهما انقضاض الصواعق ، وأعمل بجيوشهما السيوف البواتر فقتل منهم عدداً عديداً ، وشتت شمل الأولى بقوا على قيد الحياة ، ولا ريب أن خوف الرومانيين قد حل فى قلب متريدات وأنساهُ شجاعتهُ القديمة ، لأنه أول من بادر إلى الهزيمة فى ذلك النهار وأصبحت مدائن أرمينيا بعد هذه الوقعة مفتحة الأبواب يمكن الرومانيين دخولها متى أرادوا ، إلا أن العساكر عصت أوامر قائدها ليكولوس الحكيم وأبت الانقياد لهُ ، لأن الأموال التى جمعتها من تلك الأقاليم الأسيوية قد أبطرتها وشوقتها إلى إيطاليا ، فطلبت الرجوع إلى الأوطان لتتمتع بالراحة والسلام بعد المشقات والأتعاب ، وهكذا أُكره ذلك البطل أن يعود إلى رومية حينما ذلل المصاعب وانتصر على أعدائهِ انتصاراً مبيناً ، فرحل سنة (٦٧ ق. م) من أرمينيا وخلف قواداً جهلاء أضاعوا بجهلهم ثمر أعماله العظيمة وتركا متريدات وتيغرانس يرجعان إلى البلاد ويتولى كل منهما مملكتهُ كأنهُ لم يحدث شيئاً قبلاً .

وبلغ مجلس وشعب رومية ما جرى فقلقا جداً وأرسلا إلى آسيا بومبايس القائد الفتى وأصحباه بالجنود والفرسان آملين أنهُ يقمع الأعداء ببسالته وتدبيره ، ويصلح الأحوال المختلَّة فى تلك الأرجاء بفطنتهِ وأصالة رأيهِ ، لأنهُ كان بطلاً مغواراً وقائداً حكيماً قد خاض عجاج الحروب مراراً ، وعاد من ساحاتها مكللاً بالنجاح ومرتدياً بالظفر .

وحدث أن ابن ملك أرمينيا عصى أباهُ وفرَّ هارباً إلى بارثيا وأقام فى بلاط حميهِ ملك تلك البلاد فوقعت الوحشة لذلك بين الفريقين وطال النفار ، ولما كان تيغرانس موقناً أن متريدات قد حرض ابنهُ على العصيان أبغضهُ ورفض مساعدتهُ فى حربهِ مع الرومانيين ، فأصبح حينئذٍ ملك البونتس منفرداً فى القتال لا حليف لهُ ولا صديق يعتمد عليهِ بين الأمراء المجاورين .

وكان دأب متريدات فى هذه المرة أن يتجنب القتال النظامى ما أمكن ، ويفتك بأعدائه اغتيالاً متى سنحت له الفرصة ، فأدرك ذلك بومبايس وقدر لمهارتهِ بالفنون الحربيةِ أن يدهمه ويحيط بمعسكره إحاطة الأسورة بالمعاصم ، غير أن ملك البونتس تخلص من الشرك والأخطار بخداعهِ ، وذلك أنهُ لما خيم الظلام وادلهم الليل ترك النيران والأنوار فى خيامهِ ومشى بجنوده سراً ، ولم يستطع القائد الرومانى أن يحاربهُ لأنهُ كان يتحصن فى النهار بمعسكره ويسير فى الليل تحت جنح الظلام يطلب النجاة .

وحينما دنا الملك من الفرات أبصر ، وإذا بومبايس قد ظهر بغتة بجنوده واحتل ذلك المكان وحال بينهُ وبين النهر ليمنعهُ من عبورهِ ودخول مملكة تيغرانس صهرهِ، ولما كان وصولهُ جرياً على العادة تحت جنح الظلام لم يشعر بالأعداءِ حتى اختلطت عساكره بهم ، فأمر بومبايس إذ ذاك المبوقين أن يبوقوا والرجال أن يهتفوا ويهجموا على البونتسيين الأولى كانوا غير مستعدين للقتال فرعبوا وولوا هاربين يرون الشجاعة بالفرار والفرار للجبناء فى كل حال حصين منيع .

وتقدم متريدات بثمانمائة فارس وهجم على صفوف الرومانيين فاخترقها وخرج منها سالماً ، إلا أن هؤلاءِ الفرسان تركوهُ بعد ذلك وشأنه ، وذهبوا إلى حيث يرجون الكسب والغنيمة ، فلم يبقَ معهُ سوى ثلاثة أنفس من جملتهم جارية

اسمها « أبسيكراتيا » كانت قوية باسلة ترافقهُ فى جميع غزواتهِ ورحلاتهِ وتركب بجانبهِ وهى لابسة عدة الجلاد كالفرسان والأبطال .

وقدر ملك البونتس وهو هارب هائم على وجهه أن يجمع ثلاثة الاف راجل وبعض فرسان غرباءَ فتقدم بهم إلى قلعة اسمها « سنوريا » على حدود أرمينيا الصغرى ، حيث كان مدخراً أمواله فأخذ منها ستة آلاف وزنة ووزع بين أصدقائه الثياب الثمينة والجواهر ، وأعطى لكلٍ منهم سماً كى يسفهُ ولا يقع حياً فى أيدى الرومانيين ، وكان راجياً أن تيغرانس يستقبلهُ بالترحاب ويسمح له بالإقامة فى بلاده، فخاب أملهُ لأن الأمير الأرمنى لم يأب فقط إجابتهُ إلى ما سأل بل أعلن جزاء من يأتيهِ برأسه مائة وزنة ، وتأكد حينئذ ذلك الملك التعيس أن كثرة أصدقاء وعداء المرء متوقفة على سعادته وتعاسته ، وأن رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل ، فارتد راجعاً واجتاز بلادهُ محفوفاً بالأخطار ووصل بعد المشقات والأتعاب إلى بلاد البوسفور السميرية ، حيث كان مالكاً ابنهُ ماخرس ، وبنى القائد الرومانى فى المكان الذى انتصر بهِ على متريدات مدينة دعاها نيكوبولس - أى مدينة الظفر - ثم زحف لمحاربة تيغرانس فدخل أرمينيا وأخذ يفتح المدائن ويقهر الجنود فرعب الملك ، وأتى مسرعاً إلى معسكر الرومانيين وجثا عند قدمى بومبايس وأعلن خضوعه لهُ صاغراً ، فأشفق عليهِ ورضى بكف القتال وإبرام الصلح معهُ بشروط ، منها : أنهُ يسلم إلى الرومانيين كل البلاد الواقعة وراء نهر الفرات وينقدهم ستة آلاف وزنة ، ويملك على أرمينيا الكبرى ، ويكون صديق وحليف الأمة الرومانية .

وزحف بومبايس بعد ذلك وأخضع الألبانيين وغيرهم الساكنين فى الجهات الشمالية ، ثم تقدم إلى الجنوب واستولى على بلاد ماديا وكوماجن وأرسل قائدهُ سكورس ليفتتح الديار السورية التى خضعت لهُ سنة (٦٤ ق . م) فجعلها ولاية رومانية ، وهكذا سقطت الدولة السلوقية بعد ما ملكت مائتين وثمانياً وخمسين سنة .

وبينما كان بومبايس فى سوريا منهمكاً فى إصلاح أحوالها وترتيب حكامها أتاهُ سنة (٦٣ ق . م) رسلٌ من بونتس يخبرونهُ بموت متريدات وتولى ابنهِ فارناسس سرير الملك مقراً جهراً بسيادة الرومانيين ومعلناً بسرور خضوعهُ لهم ، وسبب ذلك

أن متريدات جهز جيشاً جراراً ونوى الذهاب إلى إيطاليا لمحاربة الرومانيين فى بلادهم كما فعل أنيبال القرطجنىُّ قبلاً ، فجزعت جنودهُ من هذه الحملة وأدركت الأخطار والمشقات التى تحول دون النجاح فجاهرت بالعصيان وأسعفت فارناسس أن يرتقى العرش ويقبض على زمام الأحكام ، ففر متريدات إذ ذاك هارباً ولجأ إلى قلعة وأقام بها ينتظر فرجاً ، ثم أرسل يسأل العصاة عما يرغبون فيه وما يطلبون أجابوهُ : أننا نريد تمليك فارناسس لكونه فتى لا يملك قيادة مماليك لئام ولا يروم توطيد سلطتهِ علينا بقتلهِ قوادهُ وأصدقاءهُ وبنيهِ كما هو دأبك .

وعلم متريدات أن لا نجاة لهُ إلا بالموت ، فخرّ ساجداً ورفع عينيهِ إلى السماء وقال : أيتها الآلهة الآخذة بثأر الآباء إذ كنت موجودة حقيقة أرغب إليك أن تجعلى موت فارناسس على يد بنيهِ ، ثم نهض على قدميهِ وأعطى نساءَه وجواريهِ وبناته سماً تجرعنهُ وقضين نحبهنَّ فى الحال ، ولما كان السم لا يؤثر به لأنهُ اعتاد شربهُ وهو صغير اخترط حسامهُ لينتحر ، فجرح جسدهُ جرحاً خفيفاً ، حينئذ التفت إلى جندىّ غالىّ وقال لهُ : أيها البطل قد اختبرت شجاعتك فى ساحات القتال وإنى شاكر لك على ما فعلتهُ لى قبلاً فاطلب إليك الآن أن تنعم علىّ وتقتلنى لئلا أقع حيّاً فى أيدى الرومانيين ، فصدع الجندى بأمره واستل سيفهُ وضربهُ ضربةً سقاه بها كأس المنون .

ولا يخفى أن متريدات كان من أعظم الملوك الذين اشتهروا بالشجاعة وإصالة الرأى ، لا توقفهُ صعوبة فى طريق النجاح ، ولا تخيفهُ الأخطار إن حالت دون المرام ، ولقد حكى أنيبال القرطجنى فى بغضهِ للرومانيين واجتهاده فى إحباط أعمالهم وإذلالهم غير أن اجتهادهُ عاد عليهِ كما عاد على ذلك القائد الشهير بالويل والحرب ، ومات مثله مقهوراً ذليلاً .

وبعد ما أصلح بومبايس حالة الممالك التى استولى عليها فى الشرق وجازى جنودهُ كما يستحقون عاد راجعاً إلى رومية ، واحتفل بنصرتهِ احتفالاً لم يرَ الناس قط نظيره .

* * *

الفصل السابع

ملخص ترجمة حياة سيسرون وبورسيوس
كاتو وجوليوس قيصر وسرجيوس كاتلينا
قبل شبوب نار الفتنة التى أضرمها الأخير

سيسرون هو : ماركوس طليوس سيسرون ، ولد فى (٣ كانون الثانى سنة ١٠٦ ق . م) ، قرأ العلوم والآداب على العلماءِ والفلاسفة المشهورين فى ذلك الزمان ، فبرع فى جميع الفنون لا سيما فى الفقه والخطابة ، ولما بلغ السنة الثامنة والعشرين من عمره رحل إلى بلاد اليونان وأقام فيها عامين صرفهما فى الدرس والمطالعة ، وعند عودتهِ إلى رومية انتخب باتفاق الآراء خازناً لولاية ليليبيوم فى جزيرة سيسيليا ، فقام بعبء الأعمال التى فوضت إليهِ واكتسب ثقة الرومانيين ومحبة الأهلين ، ثم تقلب بعد ذلك فى عدة مناصب عالية كان بها عنوان الفضل والشهامة ، وفى سنة (٦٣ ق . م) انتخب قنصلاً وقدر أن يعرف مكيدة كاتلينا ويرد كيده فى نحره كما هو مذكور فى الفصل التالى .

بورسيوس كاتو – هو المعروف بكاتو الصغير أو كاتو الأُتيكىّ كان من صغره نشيطاً عنيداً لا يثنيهِ تعب أو خطر عن السعى لإدراك ما يبتغيهِ ، فشب رجلاً ثابتاً فى أعمالهِ يتحرى الحقائق بهمة عالية ، ويبغض التمليق والمملقين ، وكان قليل المزاح بطئ الغضب ، ولكنه شديد العداوة لمن يضره أو يناويه .

ولما كان عمرهُ أربع عشرة سنة كان يتردد على سيلا لكونهِ صديق أبيهِ ، فرأى مراراً أعوان ذلك الظالم يأتونه برؤُوس الكبراء دامية ، وسمع تنهدات الحاضرين فسأل ذات يوم أستاذهُ قائلاً : لماذا لا يقتل أحدٌ هذا الرجل ؟ أجابهُ الأستاذ : لأن خوف الناس منهُ أعظم من بغضهم لهُ ، فقال لهُ كاتو على الفور : لماذا إذاً لم تعطنى حساماً حينما ذهبنا إليهِ لأهلكهُ بهِ واريح البلاد من مظالمهِ .

وكان مولعاً بالفلسفة الرواقية وهى من تعاليم زينو اليونانى ومفادها : احتمال

المصائب التى تفاجئُ المرء بصبر عظيم تحكيهِ رواسى الجبال ، ولكى يقوى جسدهُ ويمكنهُ أن يطيق الحر والبرد صيفاً وشتاءً كان يذهب فى كل الفصول من مكان إلى آخر حافياً حاسراً ، وكان إذا مرض يمتنع عن الأكل ويلزم منزلهُ إلى أن يشفى .

وبعد أن خدم مدة فى الجندية بحرب سبارتاكس وفى مكدونية ذهب إلى البلاد الأسيوية ليشاهد مدائنها ويدرس عوائد أهلها وطباعهم ، فوصل إلى أنطاكية وأراد الدخول إليها والإقامة فيها قليلاً ، لأنها كانت من أجمل المدن الشرقية ، ولما دنا منها رأى عن بعد أناساً لابسين ثياباً بيضاء ومصطفين على جانبى الطريق ، فظن أنهم خرجوا للقائه ، ومع أن هذا الأمر ساءهُ جداً لأنهُ لا يحب الاحتفال والإكرام أمر أصحابهُ أن يترجلوا إجلالاً لهم ، حينئذ تقدم إليه الرجل الذى صف الجميع وكان لابساً تاجاً وماسكاً عصا وقال لهُ : أينَ تركت دمتريوس (وهو عبد لبومبايس) ، وهل تعلم متى يأتى فضحك إرفاقهُ حينما سمعوا هذا الكلام حتى استغربوا ، أما هو فلم يجب الرجل ببنت شفة ، بل التفت وقال : يا لك من مدينة تعيسة .

وأقيم بعد ذلك خازناً فأصلح أموراً كثيرة ، وأكره الذين أخذوا فى عهد سيلا من خزينة الحكومة أجرة لأجل قتل الأولى أهدر ذلك الديكتاتور دمهم أن يردوا ما أخذوه ، وبالجملة نرى كاتو رجلاً ثابتاً فى أعمالهِ وصديقاً صدوقاً لمن يحفظ ذمامهُ ، وعدواً ألد لمن يغضبهُ أو يضرهُّ ، وكان مع هذا كلهِ رقيق الجانب شجاعاً حكيماً يحب العفة والعدل ويبذل الجهد فى محاماة الضعفاء ورد كيد الظالمين فى نحرهم .

كايس جوليوس قيصر : ولد هذا البطل سنة (٩٩ ق . م) من عائلة شريفة يتصل نسبها بأيليوس بن أنياس التروادى ، وهو من الرجال العظام أو من أعظم الرجال الذين يبخل الزمان بمثلهم فى كل آن ومكان قد برع فى جميع الفنون وفاق معاصريهِ بالذكاءِ وأصالة الرأى ، ولا ريب أن سمات الفطنة والشجاعة كانت ظاهرة على محياه ، وهو غلام حدث حتى أن سيلا خشى منهُ وأهدر دمهُ كما ذكرنا فى محلهِ ، ولما اشتد ساعدهُ هاجر إلى رودس ليقرأ علم البلاغة على أبولونيوس مولو أستاذ سيسرون ، فأسره القرصان بالقرب من جزيرة فاراماكوزا الواقعة تجاه مدينة ميليتوس فى آسيا ، وسألوهُ أن يفدى نفسهُ بعشرين وزنة ،

فسخر منهم ووعدهم أن يعطيهم خمسين ، ثم أرسل أعوانهُ إلى المدن المجاورة ليجمعوا الدراهم المطلوبة وبقى هو مع طبيبهِ وخادمين ثمانية وثلاثين يوماً فى سفن هؤلاء الأشقياء ، وكان ينفق ساعاتهِ فى نظم الأشعار وتأليف الخطب وقراءة ما يمكنه للقرصان الذين كان يهددهم بالصلب وهو يمازحهم ، ولما نقدهم الدراهم التى طلبوها أطلقوا سبيلهُ فذهب إلى ميليتوس وجهز بسرعة عظيمة جميع السفن الصغيرة التى وجدها فى تلك المدينة وتأثر القرصان وقاتلهم فأغرق بعضهم وأسر الباقين وصلبهم ، على رغم البرو قنصل الذى كان يرغب بيعهم طمعاً بالمال .

وحين رجوعهِ إلى رومية أخذ يتزلف من الكبراء ويجهد فى مصادقة الجميع ، وكان كريماً مسرفاً ، حتى إن أعداءهُ ظنوا سقوطهُ قريباً لكثرة الديون التى عليهِ ولكونهِ زير نساءٍ ميالاً للهو والمسرات .

وكان يحب أن يأخذ دائماً بناصر الشعب ويرد عليهِ الحقوق والامتيازات التى حرمهُ إياها سيلا ، وحينما توفيت عمتهُ جوليا زوجة ماريوس ارتقى المنبر فى الفورم وأبنها وأمر بحمل صور بعلها فى الجنازة ، وكان سيلا قد أبطل هذه العادة فسرَّ الجمهور جداً بما فعل وانصرف وهو يثنى عليهِ ويعجب من شجاعتهِ وجسارتهِ وابَّن امرأتهُ كورنيليا بنت سنَّا ، وذلك أيضاً مخالف للعوائد لأن النساءَ الشابات لا يجوز تأبينهنَّ .

وبعد أن تقلد عدة مناصب عالية أقيم أديلاً فاحتفل بعيد لأبيهِ وأتى بستمائة وأربعين سيافاً تقاتلوا وتصارعوا أمام الشعب ، وعمل أعمالاً أخرى كثيرة لإشهار اسمهِ وإرضاءِ العوام وإغرائهم بمحاربته ، وفى سنة (٦٣ ق . م) انتخب حبراً أعظم بأكثرية الأصوات مع أن انتخابهُ لهذا المنصب كان مخالفاً للقوانين الرومانية لأنه كان فتياً لم يتول بعد القضاءَ .

وخلاصة الكلام عن هذا البطل : إنه كان من أحسن العائلات الشريفة ، ربى فى حجر التمدن والتهذيب ، فشب شهماً شجاعاً أديباً بليغاً كريماً ، يحب الشعب ولا يبالى بالأخطار فى عمل ما يرضيه .

لوسيوس سرجيوس كاتلينا : هو سليل عائلة شهيرة كان غريب الأطوار ،

فاسد الأخلاق ، ولقد أجاد بعضهم بوصفه ، إذ قال : كان هذا الرجل ذا عقل ثاقب ولسان طلق ويد قادرة على إجراء أعظم الأعمال وأصعبها ، وكان دأبهُ مذ شب القتل والنهب وإثارة الحروب والفتن الأهلية ، لا يبالى بالمشقات ، وعندهُ سفك الدماء ألذُّ من معاقرة الراح ومنادمة الخلان ، إلا أن أطماعهُ وأهواءَهُ كانت تدفعهُ إلى مهاوى الأخطار فيقدم على أفعال دون إجرائها خرط القتاد .

وأحب سيدة شريفة ففض بكارتها واغتصب ابنة متبتلة وقتل ابنهُ إرضاءَ لامرأة علق بها قال ، سلست : وأظن أن فعلهُ هذا قد مهد لهُ سبيل العصيان ، لأن نفسهُ الشريرة المكروهة من الآلهة ، والناس كانت فى عذاب دائم تطلب الراحة ولا تجدها ، لذلك كان أصفر الوجه وهيئتهُ هيئة رجل ذى جنة .

* * *

الفصل الثامن

فى مؤامرة كاتلينا

لا يخفى أن لنجاح الممالك فى العالم أسباباً جديرة بالاعتبار أهمها : الاتحاد وحب الوطن ، فلو لم توجد تلك الصفات الحسنة فى قلوب الرومانيين منذ تأسيس مدينتهم لم يصلوا إلى هذه الدرجة العليا من سلم المجد والفخار ، بل كانت أيدى الخراب قد اغتالتهم وجعلتهم بين أمم الأرض نسياً منسياً ، ولو كان القابضون على زمام أحكام الجمهورية قبل هدم قرطجنة مثل ماريوس وسيلا وكاتلينا وغيرهم من تعرق جبهة الإنسانية عند ذكرهم خجلاً لسقطت رومية وخضعت للشعوب المجاورة .

ويظن بعض الجهلاء أن حب الوطن هو من الأمور الوهمية التى لا تتعدى حيز التصور ، لأن الإنسان محب ذاتهُ بالطبع ، فلا يمكنهُ أن يتخذ مصالحهُ الشخصية ظهرياً ويجهد فى نفع غيره .

أقول : إن ما يزعمهُ هؤلاء جهل مركب ، إذ حب الوطن هو بالحقيقة حب العاقل لذاتهِ ، لأن الأمة إذا تعاونت وجهدت فى إحياء السلام الداخلى وتوسيع نطاق الأعمال وتوفير أسباب النجاح عاد ذلك بالراحة والفلاح على كل من أفرادها ، وأى فخر يحرز الإنسان إذا كان نظير كاتلينا الشرير الذى جمع فتياناً طغاماً عودهم القساوة وسفك الدماءِ وأعدهم لحرق وهدم مدينة رومية وذبح أعضاء المجلس ونهب مهج الأبرياء ، وكان يشجعهم وينشطهم على تلك الفعال بخطبهِ الحماسية وكلامهِ البليغ ، من ذلك قولهُ : قد ساءت يا قوم أحوالنا وأصبح زمام الأحكام بيد بعضِ أنفس ظالمين يتسلطون على أمم الأرض ويتمتعون بالأموال التى يسلبونها الملوك والأمراءَ غير مبالين بالشعب كأن الشعب عبدٌ خاضع طوعاً أو كرهاً لما ينهون وما يأمرون ، فهبوا بنا نخلع ثوب الذل ونموت شرفاء فى ساحة القتال ، أو نبلغ المنى ، واعلموا أن نجاحنا قريب وأكيد ، وأن الحرية والأموال والفخار هى ثمر الانتصار ، فبادروا إلى اجتناءِ ما طالما تمنيتموهُ .

ولما كان هؤلاء الفتيان قد قنطوا من الحياة لأنهم فقراءَ أثقلت الديون كاهلهم رأوا فى النهب والقتل خيراً ، وتوسموا فى الانقلاب السياسى حياة جديدة ونعيماً دائماً إلى الممات ، فبادروا إلى رئيسهم متطوعين واستعدوا لركوب متن الأخطار غير مبالين ، وكان من جملتهم شخص شريف اسمهُ كوريوس قد طرد من المجلس لسبب خفته وأعماله القبيحة ، وكان هذا الرجل مهذاراً لا يحفظ سراً ويخبر أعداءَهُ وأصدقَاءَهُ بكل ما يعلمهُ حتى أنهُ لم يكن يستطيع أن يكتم من الناس ذنوبهُ التى اقترفها والتى يود ارتكابها ، فأسرَّ إلى حبيبتهِ ما ينوى فعلهُ مع إرفاقه ، فأخبرت هذه أنسباءها وأخبر هؤلاء أصدقاءهم ، ولم تمض مدة إلا وذاع الخبر فأوجس الأهلون خوفاً وأخذوا يتحدثون بما كان وما يكون ، وأقاموا سيسرون قنصلاً ليتلافى الخطب ويصلح الأحوال .

وكان كاتلينا يسعى أن يكون قنصلاً ليمكنهُ أن يجرى ما يروم إجراءه بسهولة ، فعلم ذلك سيسرون واتخذ الوسائل اللازمة لمنعه ، فعمد إذ ذاك كاتلينا إلى قتله مع بعض رؤساء المجلس يوم الانتخاب ، إلا أن القنصل بلغهُ ما دبر عدوهُ ، فأخر زمن الانتخاب ، وفى اليوم التالى بينما كان المجلس مجتمعاً شكاهُ إلى أعضائه وأمرهُ أن يبرئَ نفسهُ أمام الجميع ، فتقدم كاتلينا الشرر وعوضاً عن أن ينكر أو يجهد فى تبرئة نفسه قال لهم : إن الجمهورية مؤلفة من شخصين (يعنى المجلس والشعب) أحدهما مريض ورأسهُ ضعيف ، والآخر ثابت لا رأس لهُ ، ولا يحتاج إلى رأس ما دام حياً ، وأجاب كاتوا قبل ذلك ببضعة أيام : إن النار إذا احتدمت وحرقت أموالهُ لا يطفئها بالماء بل بخراب عمومى .

ومن ذلك الوقت زاد همة ونشاطاً فى إنفاذ ما نواه ، فأرسل كثيرين من أعوانه إلى المدائن الإيطالية لإثارة الفتن واستمالة الأهلين ، وأقام هو فى رومية يستعد لقتل القنصل وحرق المدينة وأمر رجالهُ أن يتسلحوا ويكمنوا فى جميع الأحياء ، وكان يقضى نهارهُ وليلهُ بلا نوم منهمكاً فى تحقيق أمانيه وتتميم أغراضه الشريرة ، وكانت الرسائل ترد تترى إلى سيسرون والكبراء تحذرهم من كاتلينا وتحرضهم على الخروج من المدينة والفرار ، فاجتمع المجلس حينئذ وفوّض إلى القنصلين أمر صيانة الجمهورية من الأخطار ومنحهما الحرية بإجراء كل ما يريان إجراءَهُ لازماً .

وجمع كاتلينا رجالهُ فى ذلك الليل وأخبرهم أنهُ ذاهب إلى بلاد أتروريا ليتولى قيادة الجنود التى جهزها هناك ، وأمرهم أن يحرقوا المدينة ويقتلوا الأهلين فى يوم عينهُ لهم ، وأرسل اثنين من أعوانهِ ليذبحا سيسرون باكراً فى الصباح وهو نائم فى فراشهِ ، فعلم سيسرون ما دبر عدوهُ الألد فأحاط منزلهُ بالحراس الذين منعوا الرجلين من الدخول عليهِ وأرجعوهما من حيث أتيا .

وفى الغد جمع القنصل المجلس فى الكابيتولينوس ، وهو مكان التئامهِ أيام الخوف والفتن وعرض للأعضاء ما حدث وما سيحدث ، وبينما كانوا يتذاكرون فى الأمر أقبل عليهم كاتلينا كإنسان لا علم لهُ بما جرى ، فابتعد الآباء عنهُ ولم يردوا عليهِ السلام ، فنهض سيسرون وقد احتدم غيظاً وقال لهُ :

حتى نصبر يا كاتلينا ونتحمل الإهانة وأنت لا تنثنى عن غيك أتظننا جاهلين ما فعلتهُ وما تفعلهُ ، ولكن يا لهُ من عصر تعيس وجيل خبيث يعيش فيهِ المنافق الخائن ، لا بل يدخل المجلس بوقاحة ليرقب أعمالهُ ويعلم مَنْ مِنْ أعضائهِ المجتمعين يلزم إهلاكهُ قد مضى زمن الشجاعة ومحبة الوطن ، كيف لا وبوبليوس سيبيو وهو خارج عن دائرة الحكومة قدر أن يقتل قبلاً تيبيريوس غراكس لأنهُ أراد أن يلقى الشعب بين الشعب ونحن القنصلين رئيسى الجمهورية ومدبرى ممالك الدنيا نترك الآن كاتلينا بقيد الحياة وهو رجل خائن يريد أن يهلك العالم بالقتل والحريق .

أيها الآباء ، إننى طبعت على الشفقة ، ولكن ضميرى يوبخنى على التوانى والإهمال بوقت أصبحت فيهِ بلادنا محاطة بالأخطار المهولة ، فاعلموا أن عدونا الألد الذى هو مقيم داخل أسوار المدينة قد جهز جيشاً جراراً يزداد كل يوم عدداً وعدداً ، وهو محتل الديار الأترورية ومستعد للقتال .

والآن يا كاتلينا إذا أمرت الشرط بالقبض عليك وذبحك حالاً لا أكون قاسياً ظالماً ، وإنما أخاف أن يقال : إنى كنت بطيئاً بإجراءِ العدل ، أما ما منعنى ويمنعنى عن قتالك فهو وجود أناس لئام طغام نظيرك يودون خلاصك ويبذلون الجهد بتبرئتك ، فعش كما كنت محاطاً بالحراس والرقباء الذين أقمتهم ليعلموا أعمالك ويذيعوا أفكارك ، وما تنوى فهيهات أن يستر ظلام الليل الحالك اجتماعاتك

السرية مع رجالك وأعوانك ، وأن تمنع جدران منزلك صوت خيانتك من الوصولو إلى أذنىّ .

ثم نصح لهُ أن يترك المدينة ويعرض عن نواياهُ الشريرة ، وحذَّرهُ من عاقبة الظلم والاعتداءِ بعبارات هى منتهى البلاغة وحد الإعجاز (آه ملخصاً) .

ولما كان كاتلينا أروغ من ثعلب وأحيل من ضب نهض على قدميهِ وهو مطرق، وقال للحاضرين بصوت عيف : ألا يصدقوا تلك التهم الكاذبة لأن شرف عائلتهِ وسيرتهُ الحسنة مذ شب يوهلانه ، لأن يرتقى ذرى العظمة والمجد ، وهل يمكن رجلاً شريفاً مثلهُ خدم هو وآباؤُه الحكومة وجهد فى توفير أسباب تقدم البلاد أن يخطر ببالهِ أضرار مواطنيهِ ، فاعترضهُ الأعضاءُ وشتموه ولم يدعوهُ أن يتم كلامه فحنق وأزبد وقال لهم وهو خارج ما قالهُ قبلاً لكاتوا : إننى أطفئُ النار التى يتوعدنى بها أعدائى بخراب عمومى .

وعلم كاتلينا ضرورة السرعة فى العمل لبلوغ مأربهِ فرحل بالليل سرّاً إلى أترووريا بعد ما حرَّض رؤساءَ أعوانه ألا يهملوا الوسائل اللازمة لزيادة عدد جنوده وقتل سيسرون والاستعداد لحرق المدينة وتدمير أهلها ، فحكم المجلس عليه أنهُ عدو البلاد وصرح بالعفو عن رجاله الذين يثوبون إلى الطاعة ، وأمر القنصلين بتجهيز العساكر والمبادرة إلى قتالهِ حالاً قبل أن تقوى شوكتهُ ويستفحل أمره .

ولكى يغش هذا الشرير الكبراء أرسل إلى كل منهم كتاباً يقول فيهِ : لقد تفاقم الخطب وأصبحت هدفاً لسهام التهم الوقيعة ، فها أنا راحل إلى مرسيليا فراراً من كيد أعدائى وخوفاً من حدوث فتن يثيرها أصدقائى انتصاراً لى .

وأرسل إلى أحد خلانه كتاباً آخر يسألهُ فيهِ : أن يعتنى بحبيبتهِ أوريستلا ويخبرهُ بالأسباب التى حملتهُ على ركوب هذه الخطة .

قال : من كاتلينا إلى كاتلس ، سلام . .

أيها الحبيب ، إن صداقتك الصادقة التى اختبرتها من زمان طويل تشجعنى على الفكر أنك غير مرتاب ببراءتى ومحبتى للوطن ، إلا أن تهم الحاسدين ووقيعة المبغضين قد ألجأتنى أن أنهض لآخذ بيد الفقراء والمظلومين ، ولا تظننى عاجزاً عن تأدية ما استقرضتهُ ، لأن أموالى كما تعلم وافرة وكافية لوفاء تلك الديون ،

ولما كنت لا أستطيع أن أبرَ على الخسف والذل وأرى أناساً طغاماً يرتقون ذوى المجد والعظمة قد بادرت إلى صيانة شرفى بالتى هى أحسن ، فأطلب إليك الآن أيها العزيز أن تعتنى بأوريستلا وتصونها من كل ضرر .

وجاءَ إلى رومية فى هذا الأوان سفراءُ الوبروجيون (هم قبائل غالية قاطنة فى إقليمى صفوا ودوفينى من أعمال فرنسا) يستجيرون بالمجلس من ظلم وطمع حكامهم الرومانيين ويرغبون إليه بالإشفاق عليهم وإصلاح حالتهم التعيسة ، فلم يصغ الأعضاءُ إلى شكواهم وردوهم خائبين ، ولما علم ذلك لنتلوس أحد زعماء العصاة فى المدينة أرسل إليهم رجلاً اسمهُ أومبرينوس ليستميلهم إلى حزب كاتلينا ويكونوا لهُ نصراء متى ثارت الحرب ، واحتدمت نارها فأقبل إليهم كإنسان يهمهُ نفعهم واستخبرهم عن أحوالهم وعما نالوهُ أجابوه أن الموت نصب أعيننا ، إذ لا نجاة لنا بغيره ، فحكامنا ظالمون قساة والمجلس قد أعارنا أذناً صماء .

– قال لهم : إن حالتكم تعيسة جداً ولا يمكنكم إصلاحها إلا إذا كنتم شجعاناً تعملون ما أشير عليكم بهِ .

– أجابوهُ : خذ بيدنا أيها الرجل وأشفق علينا ، واعلم أننا مستعدون أن نركب متن الأخطار لننقذ أمتنا من الديون والمظالم التى أثقلت كاهلها .

فأحضرهم أومبرنيوس إذ ذاك إلى أصحابهِ وكاشفهم بسرَّ مؤامرتهم ووعدهم خيراً ، فرضوا بالاشتراك معهم ومساعدتهم بفرقة عظيمة من الفرسان ، إلا أنهم حينما خلوا فى منزلهم وفكروا فى الأخطار والأهوال التى تكون بلا ريب عاقبة العصيان ندموا على ما فعلوه وذهبوا توّاً إلى فابيوس سنغا ولىّ أمتهم وأخبروهُ بالأمر ، فأعلم هذا سيسرن الذى دعا حالاً السفراءَ وأمرهم أن يتظاهروا للعصاة برغبتهم فى محازبتهم ويأخذوا منهم عهدة يوقعها زعماؤهم لتكون دليلاً بيناً على خيانتهم وسعيهم فى إضرار الوطن وبنيه ، ففعل السفراءُ ما أمر بهِ القنصل وأبرموا عهدة مع الثائرين وأخذوا كتاباً إلى كاتلينا وخرجوا مع بعض أعوانه من المدينة ، إلا أن فرقة من جنود الحكومة كانت كامنة فى المكان الذى يجب أن يمروا بهِ كما جرى الاتفاق قبلاً فانقضت عليهم وأسرتهم وقبضت على الأوراق التى معهم .

حينئذٍ التأم المجلس حالاً للمذاكرة فى الأمر والنظر فى دعوى رؤساء الثائرين

الذين ألقى القبض عليهم والذين أقروا جهراً بذنبهم وخيانتهم ، فحكم عليهم بالسجن وانصرف الأعضاء وهم يشكرون لسيسرون ويثنون على أعماله وهمته .

وفى اليوم الثانى بعد جدال طويل وخصام عظيم فى المجلس حكم على المسجونين بالموت فقتلوا فى الفورم أمام الشعب وزينت المنازل والشوارع إيذاناً بفرح الجمهور لنجاته من تلك البلايا التى أوشكت أن تفاجئه ، وكانت النساء والأولاد والرجال تزدحم فى الأسواق لترى سيسرون حينما كان راجعاً إلى بيته والآباء والفرسان تحيط به كأنه عائد من ساحات القتال يحتفل بنصرته داخل المدينة وكان الشعب يناديه : يا حامى البلاد ، ومؤسس رومية الثانى .

وظن المجلس أنه بالقبض على رؤساء الثائرين وقتلهم قد سقط كاتلينا ولعبت بحربه أيدى سبا ، لذلك استعفى سيسرون ورفيقه من منصبهما وانتخبت الأمة قنصلين جديدين ، وراح كل فرحاً آمناً حدثان الدهر كأن الدهر قد سالمه ، غير أن ذلك البطل المغوار عدو وطنه كان لا يفتر عن حشد الجنود والاستعداد لشن الغارة على مواطنيه ، فأرسلت الحكومة لمحاربته فرقاً من العساكر ، فالتقى الجيشان بالقرب من جبال الأبنين وانتشب القتال ، وكان مهولاً لأن الفريقين ثبتا فى ذلك النهار ثبات من لا يرعه الحمام ، أو كيف يرعهم الحمام وأرواحهم مرهونة للنصر أو الممات ، فقضى كاتلينا وعدد عديد من جنوده ، وانتهت بموته تلك المؤامرة الشهيرة التى كادت تمحو اسم الجمهورية الرومانية من العالم .

وفى سنة (٦٠ ق . م) عاد جوليوس قيصر من الديار الأسبانية مكللاً بالظفر ، لأنه أخضع تلك القبائل المتوحشة بسيفه البتار ، وهذبهم بقوانينه الحكيمة وتعاهد مع كراسس وبومبايس على الصداقة الصادقة والتعاون ، ودعى اتفاقهم هذا بالحكومة الثلاثية .

* * *

الباب السابع

من حين إقامة الحكومة الثلاثية الأولى سنة (٦٠)

إلى حين تسلط أوكتافيانوس سنة (٢٩ ق . م)

الفصل الأول

أعمال قيصر فى رومية
وحروبهُ فى البلاد الغالية
مع ذكر حرب كراسس ببارثيا

● أعمال قيصر فى رومية :

لما كان الاتحاد آية الفلاح وعنوان النجاح قدر قيصر أن يتقلد سنة (٥٩ ق. م) بمساعدة صديقيهِ منصب القنصلية ويستبد بالأحكام لأنهُ على رغم كاتو والقنصل الآخر وجميع أعضاءِ المجلس أجرى القانون العقارى وقسم بين الوطنيين الفقراء أراضى كامبينيا ، وجعل الشعب يصدق على أعمال بومبايس فى آسيا ، وحينما انتهت السنة عين والياً لمدة خمس سنوات على أيلريا وغاليا السيزالبية وقائداً لأربع كتائب (لجيون) وزوج بومبايس بابنتهِ جوليا لتدوم صداقتهُ ، ويكون لهُ نصيراً متى مست الحاجة .

● حروب قيصر فى البلاد الغالية :

إن غاليا ما خلا الولاية الرومانية كانت مقسومة فى ذلك الحين إلى ثلاثة أقسام هم : أكيتانيا ، وغاليا السلتية ، وغاليا البلجيكية .

فالقسم الأول يحدهُ شمالاً نهر غارون ، وجنوباً جبال البيرنة ، وغرباً الأوقيانس ، وشرقاً الولاية الرومانية ، وهو الآن إقليماً البروفنس ، ولا نغدوك من أعمال فرنسا .

والثانى يحدهُ نهرا السين والمارن ، وجنوباً نهر الغارون ، وغرباً الأوقيانس ، وشرقاً نهر الرين ، وهو يشتمل تقريباً على الأقاليم الفرنسوية الباقية .

ولا حاجة إلى تحديد القسم الثالث ، لأن اسمهُ خير دليل عليهِ .

وكان أولئك الشعوب الثلاثة مختلفى العوائد واللغات ، إلا أن البلجيكيين

والألفتيين ، وهم ساكنو القسم الغربى من سويسرا كانوا أشجع من الجميع لقتالهم الدائم مع الجرمانيين القاطنين وراءَ نهر الرين .

وحدث أن الألفتيين ملوا الإقامة فى بلادهم لأنها ضاقت بهم ، فعزموا على الرحيل منها واستيطان مكان آخر ، فحرقوا مدائنهم وقراهم وتقدموا إلى جهة الولاية الرومانية ليجتازوا بها ويحتلوا البلاد التى يرونها حسنة وصالحة لسكناهم ، وكان ذلك فى (٢٨ أذار سنة ٥٨ ق . م) .

وعلم قيصر بما جرى وكان وقتئذ معسكراً بالقرب من رومية ، فأسرع إلى غاليا وأخذ يجهز الجنود ويحشد الأبطال ، وخرب جسر مدينة جنيفا ليمنع الألفتيين من عبور نهر الرون ، ويظهر أن هؤلاءِ البرابرة لم يقصدوا مناواة الرومانيين ، بل أرسلوا رسلاً إلى قيصر يعرضون له سبب رحيلهم من الأوطان ويطلبون إليه أن يسمح لهم باجتياز الولاية الرومانية ليمكنهم الذهاب إلى بلاد أخرى ، فأبى قيصر إجابتهم إلى ما سألوهُ وردَّ رسلهم خائبين .

ولما رأى الألفتيون استحالة أو صعوبة المروز بذلك المكان رجعوا على أعقابهم وتقدموا إلى جهة أخرى ليجتازوا فى بلاد أمير غالى تجاور أرضهُ الولاية الرومانية فزحف قيصر إذ ذاك بجنوده ولقيهم عند نهر أرار (الآن السون) ودهم فرقة من معسكرهم فكسرها وشتت شملها فى تلك البطاح ، واستعد لقتال الآخرين فأرسلوا إليه سفراءَ يسترضونهُ ، فلم يكترث لهم وأخذ يتأثرهم ليوقع بهم ، وبعد مسير بضعة أيام فاجأهم بالقرب من مدينة بيبراكتة (الآن أوتون ، وهى على بعد ثلثمائة وواحد وأربعين كيلومتراً من باريس) ، وهجم عليهم بعساكره ، فدام القتال إلى الليل ولم ينج منهم سوى مائة وعشرين ألفاً أكرههم على العود إلى أوطانهم ليستعمروها وبردوا هجمات الجرمانيين على الشعوب الخاضعة للرومانيين.

وكان ملك جرمانى اسمهُ أريوفيستس قد اعتدى على بعض قبائل غالية فسأله قيصر أن يكف العداوة والاعتداء على أناس خضعوا للرومانيين أو استجاروا بهم ، فأبى ذلك الملك الإذعان لأوامره حينئذ زحف قيصر بجنوده واستعد لقتاله ، ومن عوائد الجرمانيين الغريبة هو أنهم لا يباشرون حرباً إلا بأمر الساحرات اللواتى أعلنَّ فى هذه المرة لأقوامهنَّ أنهم يغلبون أعداءَهم إذا قاتلوهم فى هلة القمر غير أن قيصر هجم عليهم حالاً وبادرت إليهم جنودهُ كالضراغم فانتشبت الحروب

وكانت عواناً ، وبعد أن جرت وقائع يشيب هولها الأطفال وسالت على أديم ذلك الصحصحان دماءُ الفرسان والأبطال انكسر الجرمانيون وولوا هاربين فتأثرهم الرومانيون ، وما زالوا يطعنونهم ويضربونهم دراكاً حتى عبروا نهر الرين ونجوا بأنفسهم .

وفى السنة الثانية اتحدت القبائل البلجيكية وعولت على محاربة الرومانيين لتضعف شوكتهم وتأمن شرهم ، فعلم ذلك قيصر وأتاها بعساكره كالبرق الخاطف وكسر جنودها فى مواقع كثيرة ، فخضعت لهُ جميعها صاغرة وأقرت بسيادة الشعب الرومانى نادمة على عصيانها وما فعلت .

ولم تكن الوقائع التى حدثت كافية لإخضاع الغاليين تماماً لأنهم كانوا أقواماً شجعاناً يحبون الحرية ويفدونها بالأرواح ، لذلك كانوا دائماً مجاهرين بالعصيان يشنون الغارة على الرومانيين ويشن الرومانيون الغارة عليهم ، بقى قيصر يحاربهم تسع سنوات حتى استطاع أن يملك قيادهم ويجعل بلادهم الواسعة ولايات رومانية . قيل : إنهُ استولى عنوة فى هذه المدة على ثمانمائة مدينة وأخضع ثلثمائة شعب ، وقهر فى ساحات القتال ثلاثة ملايين رجل ، قتل منهم وأسر أكثر من مليونين ، وفى أثناء ذلك ذهب مرتين إلى بريطانيا وحارب أهلها وقهرهم ، إلا أنهُ لم يستول على تلك البلاد التى كانت وقتئذ خاضعة لسلطان التوحش والغباوة، وقد كتب قيصر نفسهُ رسالة مسهبة فى الحروب التى أثارها فى غاليا ، وهى رسالة حسنة الوضع وجليلة النفع للذين يرومون التدقيق فى درس تاريخ فرنسا القديمة .

أما نحن ، فقد أخذنا منها ما ذكرناهُ ، وهو خلاصة الخلاصة وبهذا القدر كما لا يخفى كفاية للمطالعين ومتطلعى الأخبار التاريخية فى هذه الديار .

● كراسس وحربهُ فى الشرق :

كان كراسس يروم أن يجارى صديقيهِ فى ميدان الفخار ويحاكيهما فى البسالة والفتوح ، إلا أنهُ كان يفوقهما فى الطمع وحب المال ، ولما عين والياً للديار السورية حسب طلبهِ سرًّ جداً وذهب إلى ذلك القطر مصمماً على نهب ما يمكنهُ نهبهُ .

روى يوسيفوس المؤَرخ اليهودى أنهُ سلب حين وصولهِ أمتعة هيكل أورشليم الثمينة ، وأخذ أموالهُ البالغة عشر آلاف وزنة (نحو مليونين ليرة إنكليزية) ، وشرع يستعد لقتال البارثيين ليستولى على مدائنهم وينهب ما تحوى ، وبناءً عليهِ زحف بجنوده سنة (٥٣ ق . م) لمحاربة شعب صديق وحليف الرومانيين ، فأرسل إليهِ أورودس ملك بارثيا رسلاً يسألونهُ عن الأسباب التى حملتهُ على حربهِ ونقض العهود ؟ أجابهم : قولوا لهُ : إننى أعلمهُ الأسباب حينما أدخل سلوقية عاصمة مملكتهِ .

ولو كان طمع كراسس مقروناً بالفطنة وأصالة الرأى أو الخبرة بالفنون الحربية لها البلاءُ وأصبح نجاحهُ مأمولاً ، لكنهُ كان جاهلاً فخوراً ، ودليل ذلك الخطأ الذى ارتكبهُ فى هذه الحملة لأنهُ عوضاً عن أن يسير فى بلاد أرمينيا كما نصح لهُ ملكها أو يمشى بالقرب من ضفات الفرات اتبع مشورة شيخ قبيلة عربية أراد غشهُ وإيقاعهُ بالمهالك ، فتوغل فى مزوبوتاميا ظاناً أنهُ يستولى على بارثيا غنيمة باردة فلقى بعد ما نهكه التعب جنود الأعداء وفرسانهم يتقدمون لقتالهِ .

ولما كان البارثيون يفوقون الرومانيين عدداً وعُدداً ، وكانت فرسانهم صعبة المراس يصطلى بنارها هجمت على كراسس وعساكره هجمة الرئبال ، فنهبت المهجات وجندلت الأبطال ، فرأى الرومانيين أن لا نجاة لهم إلا بالفرار ، وحينما أدلهم الليل زحفوا سراً وتركوا فى المعسكر الجرحى ، ومن لا يستطيع أن يتبعهم فمات هؤلاء التعساء فى اليوم الثانى قتلاً بسيف أعدائهم الذين لم يشفقوا على أحد .

واعتمد الرومانيون فى هزيمتهم على بعض الوطنيين الخائنين الذين قادوهم فى مسالك صعبة حرجة وأوقعوهم مرة ثانية فى أيدى الأعداء ، فادعى سيرينا قائد البارثيين أن مولاه يود إبرام الصلح مع الرومانيين ومقابلة رئيسهم ، فلم يغتر كراسس بكلامهِ وعلم أن ذلك دخيلة ، لكن عساكره ألحوا عليه ألا يرفض تلك المقابلة ، وحينما وصل كراسس وأعوانهُ إلى معسكر الأعداءِ ، ورأى عين الغدر بادرت رجالهِ إلى حمايته ، فأحاط بهم البارثيون ونكلوا بهم تنكيلاً وأتوا برأس كراسس إلى ملكهم ، فصب فى فمهِ ذهباً مصهوراً وهو يقول : اشبع أيها الطمع من معدن قضيت حياتك فى طلبهِ وجمعهِ .

الفصل الثانى

فى حرب قيصر مع بومبايس وموت الأخير
مع ذكر أعمال قيصر فى الشرق

قد مات الآن كراسس وانحلت بموته عرى الاتحاد الثلاثى وأصبحت الحكومة هدفاً لسهام أطماع صديقيه الآخرين ، لأن كلاً منهما كان يروم التسلط وحدهُ على العالم الرومانى ويرغب فى إهلاك خصمه ليتسنى لهُ ارتقاء أوج الفخار ، ولم يكن ذلك فيهما نزاعاً جديداً ، ولكنهما خضعا أولاً لإحكام الضرورة والأحوال، وسترا أهواءهما ببرقع الصداقة والتعاون ، ولما خلا لهما الجو وقويت شوكتهما ولم يبق مانع يمنعهما من إعلان العداوة أضرما نار الفتنة الأهلية التى امتد سعيرها إلى كل الأقطار .

وفى ذلك الحين كانت أحوال الحكومة والحكام مختلة فاسدة ، وكان بومبايس قادراً أن يصلح هذا الخلل ويريح الشعب من المظالم والبلايا لولا أطماعهُ ومحبتهُ للرئاسة ، لأنهُ ترك الأمور تجرى مجراها ليتسع الخرق ، ويمكن الشعب أن يقدرهُ حق قدره فيقيمهُ رئيساً للجمهورية ويخوله سلطة مطلقة ، وعليه ففى سنة (٥٢ ق. م) تولى وحدهُ منصب القنصلية مع أن العوائد والقوانين تقضى بوجوب تعيين قنصلين فى كل عام كما علمت قبلاً .

ولما بلغ ذلك قيصر وهو فى البلاد الغالية هاجت بصدره حاسات الحسد وطلب إلى المجلس والشعب تعيينهُ قنصلاً فى السنة التالية ، فلبى الجميع طلبهُ ومنحوهُ هذا الامتياز ، إلا أن بومبايس قدر بدسائسه ومكره أن يبطل ذلك الأمر أو يجعلهُ مهملاً لا يعمل به ، فاحتدم قيصر غيظاً وقبض عند علمه ما جرى على فرند سيفه، وقال : إن هذا الحسام البتار سينيلنى بعدل ما يمنعنى ظلم أعدائى اللئام من الحصول عليه ، وفى الحال جمع عساكره واجتاز جبال الألب سنة (٤٩ ق . م) ووصل إلى نهر الروبيكون وهو المكان الذى لا يسوغ للجيوش الرومانية أن تعبرهُ وتتقدم فى إيطاليا ، فبعد أن تردد قليلاً وهو يقول : إذا كنت أعبر هذا النهر

سأجلب على وطنى مصائب عظيمة ، وإذا توقفت فى مسيرى سأهلك لا محالة ، زحف بجنوده ووصل إلى ريمينى واستولى عليها وجال فى البلاد طولاً وعرضاً بسرعة عجيبة ، وأتى وحاصر بومبايس فى برندزيوم ، ففرَّ بومبايس هارباً إلى درَّاخيوم فى أيلريا وترك إيطاليا غنيمة باردة لعدوه القادر النشيط .

وكان الشرفاء خائفين من قيصر يظنون أنهُ سيفتك بهم فتكاً ذريعاً لمحازبتهم بومبايس ، إلا أن ذلك البطل كان يسير وجيشا الرعب والحلم يتقدمانه ويفتحان له بلا حرب ولا عناء المدائن والقلوب حتى وصل إلى رومية فدخلها ظافراً وأقام فيها بضعة أيام صرفها فى تأمين الخائف وتشجيعهِ وإرضاءِ أعدائه واستمالتهم ، فأحبهُ الجميع وفرحوا بانتصاره بعد أن كانوا يضجون بالدعاء للآلهة أن تقهرهُ وتردهُ مخزياً ، ولما استتب لهُ الأمر مشى إلى أسبانيا وحارب أفرانيوس وبتريوس قائدى جيوش خصمهِ فى تلك الديار فقهرهما وارتد راجعاً إلى رومية .

وحدث أن إحدى الكتائب عصت أوامرهُ لأنهُ لم يسمح للجنود أن ينهبوا المدن التى استولى عليها وطلبت إليهِ أن يأذن لها بالانصراف للأوطان فأحضرها ووبخها على صنيعها بكلام لطيف يخلب العقول ويجرح القلوب إلى أن قال : إنهُ غير محتاج لخدمتها ولا يفتقر أبداً إلى جنود يقاسمونهُ النجاح وفخر الانتصار ، وبناءً عليهِ يرغب فى صرفها ولكنهُ يريد معاقبتها بقتل عُشْر رجالها ، فرعب الثائرون وألقوا بأنفسهم عند قدميهِ وسألوه الصفح عن ذنبهم فعفا عنهم ، إلا أنهُ أمرهم أن يسلموا إليهِ مائة وعشرين نفساً من المذنبين قتل منهم عشرين وصفح عن الباقين .

وجمع بومبايس من بلاد اليونان والمشرق جيوشاً جرارة ، واستعدَّ لقتال قيصر الذى بعد أن تقلد منصب الديكتاتورية مدة أحد عشر يوماً وأصلح الأحوال عين قنصلاً باتفاق الآراء ، فأسرع إذ ذاك بالرحيل إلى إيطاليا لمحاربة عدوه وقهره ، فجرت بينهما وبين قوادهما وقائع كثيرة كان النصر فيها تارة لهذا وتارة لذاك ، أخيراً التقى الفريقان فى سهل فارزاليا فى تساليا سنة (٤٨ ق . م) وانتشبت الحرب وكانت سجالاً .

وعلم قيصر أن فرسان الأعداء وهم عدد عديد ينوون الهجوم على فرسانه دفعة واحدة حتى إذا ما كسروهم وشتتوا شملهم فى مجاهل تلك الأرض كرّوا على رجالتهِ ونكلوا بهم تنكيلاً ، فأمر ست فرق من جيشهِ أن تكمن وراء الميمنة

وتهجم على فرسان بومبايس بغتة إذا تسنى لهم الانتصار ، كما أملوا وعادوا إلى ساحة الضرب والطعان ، ثم ردم الخنادق التى حول المعسكر وقال لجنوده : دونكم الكر والكفاح ، لأنهُ لا نجاة لنا إلا بالنصر أو الممات ، حينئذٍ حملت الرجال على الرجال وسالت دماء الأبطال فى ذلك النهار كالأنهار ، وكانت فرسان بومبايس قد كسرت فرسان قيصر واستعدت لقتال رجالتهِ فالتقتها الفرق الست الكامنة وراء الميمنة وأكرهتها على الفرار ، ثم ارتدت لمساعدة أرفاقها وهجمت معهم على رجالة الأعداءِ ، وهى تطعنهم وتضربهم دراكاً ، فذعروا وولوا منهزمين ، وفى اليوم التالى سلموا سلاحهم إلى قيصر وأمنوا إليهِ ، ففازوا بالأمان .

أما بومبايس فغير ثيابهُ وفرَّ هارباً مع بعض أعوانهِ يطلب النجاة ، فأتى أولاً أمفيبوليس وأصدر فيها منشوراً يأمر بهِ الفتيان الرومانيين واليونانيين أن يبتدروا السلاح ويحضروا إليهِ ، ولما كان عدوه قيصر متأثرهُ ، وقد قرب من ذلك المكان بادر إلى الرحيل حالاً ، فذهب إلى قبرص وعلم هناك أن السوريين لا يسمحون لهُ بالدخول إلى بلادهم ، فجهز ألفى جندى من تلك الجزيرة ورحل بهم إلى مصر يستجير ببطلماوس ملكها ، فدعاه هذا الأمير الخائن إلى بلاطه وأمر بعض رجاله أن يقتلوه حينما يصبح فى قبضة يدهم ، وأرسل إلى سفينتهِ قارباً يحضرهُ بهِ ولما خرج بومبايس من السفينة التفت إلى امرأتهِ وقال لها بيتى شعر لسفوكلس اليونانى معناهما : إن الذى يذهب إلى بلاط ملك يصبح عبد ذلك الملك ، وحين وصولهِ إلى البر اخترط أحد المصريين حسامهُ وضربهُ بهِ ثم قطع رأسهُ وترك جثتهُ مطروحة على الشاطىء فأخذها أحد عبيده وحرقها وأتى كورنيليا امرأتهُ برمادها ، غير أن المصريين بنوا لهُ بعد ذلك ضريحاً وزينوهُ بالتماثيل النحاسية .

وما زال قيصر متأثراً بومبايس ليأسره أو يفتك بهِ حتى وصل إلى مدينة الاسكندرية ، فعلم هناك بموت عدوه الألد ، قيل : إنهُ لما نظر رأس وخاتم ذلك الرجل التعيس اغرورقت عيناه وأمر أن يدفن حالاً بالتجلة والإكرام .

وكانت الحرب وقتئذ قائمة على قدم وساق بين بطلماوس وكليوبترا أختهِ ، وسببها : أن أباهما حينَ موتهِ أوصى لهما بالملك حسب عوائد وشرائع البلاد ، وأمر أن يقترن الأخ بأختهِ لتدوم محبتهما ويعيشا بالصفو والهناءِ ، وكان عمر

كليوبترا سبع عشرة سنة ، وعمر بطلماوس ثلاث عشرة فقط ، فبقيا متحدين حيناً من الزمان ، ثم تعاديا وأقدم كل منهما على قتال الآخر ليقتلهُ ويستبد بعدهُ بالملك ظالماً .

وأراد قيصر نفى النزاع وإبقاء القديم على قدمهِ لأن كليوبترا لجأت إليهِ وطلبت مساعدتهُ فأغضب ذلك بطلماوس وجمع عساكره وأتى يحارب البطل الرومانى الذى لم يكن معهُ أكثر من أربعة آلاف جندى فتحصن فى القصر وحرق كل السفن الموجودة فى الميناء لئلا يستولى عليها الأعداء ويمنعوا المدد من الوصول إليهِ إلا أن اللهيب امتد إلى المكتبة وحرقها ، وكانت هذه المكتبة شهيرة تحوى أربعمائة ألف مجلد حسب رواية لفيوس ، وقيل أكثر .

ولكى لا يبقى مانع من وصول المدد إليهِ أرسل شرذمة من عساكره إلى جزيرة فاروس (الآن رأس التين وكانت هذه البقعة جزيرة صغيرة فى الأيام القديمة إلا أن اسكندر الكبير أمر أن توصل بالبر ليجعل للمدينة ميناوين) ثم بنى متاريس حول قصر الملك والملعب الذى بقربهِ وعمل كل ما يلزم ليأمن شر الأعداد ويمكنهُ القتال أو الدفاع بسهولة ، ودامت الحال هكذا إلى أن جاءت جنود رومانية جديدة ، فبادر قيصر إلى محاربة المصريين وملكهم فكسرهم فى عدة وقائع ، ومات ذلك الأمير الخائن سنة (٤٧ ق . م) غرقاً فى نهر النيل فنال بلا ريب جزاء خيانتهِ ومكره لأنهُ قتل بومبايس صديقهُ وولى نعمتهِ وغدر بقيصر بعد أن أسره وخلى سبيلهُ .

ولم تأت حرب قيصر بالديار المصرية بفائدة للرومانيين لأنهُ لم يخضع ذلك القطر لسلطتهم بل تركهُ مستقلاً كما كان قبلاً ، ويظهر أنهُ فعل ما فعله حباً بكليوبترا التى أقام معها تسعة أشهر فحبلت منهُ وولدت غلاماً دعتهُ قيصريو ، ومن المؤكد أن هذا الباطل قد غادر الاسكندرية كرهاً لأن الضرورة قد أحوجتهُ إلى ذلك .

ولما رأى فرناسسس بن متريدات وقاتله أن نار الحرب بين بومبايس وقيصر قد تأججت ظن الأوان قد آن لخلع نير تسلط الرومانيين على وطنهِ ، فجاهر بالعصيان وأخذ يحارب الأمم المجاورة ليوسع نطاق مملكتهِ وقهر حاكم البلاد الأسيوية الرومانى ، وشتت شمل عساكره ، فرحل لذلك قيصر من القطر

المصرى وتقدم فى الديار السورية ، وما زال سائراً حتى لقى فارناسس وجنوده فهجم عليهم برجاله ونكل بهم تنكيلاً ، وكان انتصاره على البونتسيين سريعاً جداً حتى إنه قال : يا بومبايس السعيد ، إن أعداءك الذين قهرتهم واكتسبت بقهرهم لقب الكبير هم مثل هؤلاء ، ولكى يظهر لأحد أصدقائه سرعة انتصاره فى هذه الوقعة لم يجد وجهاً للتعبير أبلغ من قوله : « جئت ونظرت وغلبت » .

ثم عاد إلى إيطاليا ، وحينما وصل إلى برندزيوم لقيهُ سيسرون ماشياً لأنه كان محازياً لبومبايس ، فأراد بذلك استرضاءهُ فتلقاه قيصر بالبشاشة والإكرام وسمح لهُ بالرجوع معهُ إلى رومية وحدث أن عساكرهُ جاهروا بالعصيان لكونه لم يعطهم الجزاء الذى وعدهم به ، فأهمد نار تلك الفتنة بكلامه فقط وتهديده إياهم أنه يصرفهم ، ولا يأذن لهم بالذهاب معهُ إلى أفريقيا لمحاربة أعدائه هناك .

* * *

الفصل الثالث

فى حروب قيصر بأفريقيا وأسبانيا
وأعماله فى رومية
وموته سنة (٤٤ ق . م)

لقد أصبح قيصر بقهره بومبايس وأعوانه فى الشرق الرجل الوحيد الذى يتسلط حقيقة على العالم الرومانى والحاكم الفريد الذى يرجى منهُ إصلاح الأحوال وتوفير أسباب الراحة الداخلية والسلام ، ولو كان هذا البطل حقوداً نظير من تقدمهُ لخضب أرض إيطاليا وعاصمتها بدماء أعدائه الشرفاء ، ولكنه كان حليماً يحب العدل ويأنف من القتل ، لذلك لم يرد قط عدواً استسلم لهُ أو قدر على إخضاعه فأحبهُ الجميع وأقامهُ الشعب ديكتاتوراً لمدة عشر سنوات ، ولما استتب لهُ الأمر جمع جنودهُ وذهب إلى أفريقيا ليحارب هناك لابينوسى وكاتو وغيرهما من بقى من حزب بومبايس ، فجرت بين الفريقين وقائع كثيرة أشهرها وقعة «ثابسس»، حيث انتصر قيصر انتصاراً مبيناً وشتت شمل أعدائه الأولى هرب بعض منهم إلى أسبانيا ، وخضع لهُ البعض الآخر .

أما كاتو الشجاع فحينما رأى تضعضع أحوال قومه وانكسارهم يئس من الحياة وأنف من الذل والخضوع لعدوه الألد ، فدخل غرفتهُ وبعد أن قرأ مراراً الفدو (وهو كتاب لأفلاطون الفيلسوف وموضوعهُ خلود النفس) اخترط سيفهُ وضرب به صدرهُ ووقع على الأرض مغشياً عليه ، فانتبه أصدقاؤهُ وأتوهُ مسرعين وضمدوا جرحهُ ، ولما أفاق وأبصر ما فعلوه حنق وفتح الجرح وسحب أحشاءَهُ بيده ومات سنة (٤٦ ق . م) .

وقدر ابنا بومبايس وإرفاقهما الذين هربوا من أفريقيا أن يستميلوا السواد الأعظم من الأسبانيين وأن يجهزوا جنوداً كافية للقاء عدوهم وقتاله ، فأرسل قيصر لمحاربتهم بعضاً من قواده ، وعاد هو إلى رومية ووجها ظافراً غانماً ، واحتفل

بنصراتهِ العديدة ، ثم أخذ فى إصلاح الأحكام وإجراء العدل غير مبالٍ بالصعوبات ولا خاشٍ فى جانب الحق لومة لائمٍ .

ومن أعماله الحسنة التى تذكر فتشكر هو : إصلاح حساب السنة لأن نوما ملك رومية الثانى قَد جعل العام ثلثمائة وخمسة وخمسين يوماً ، أى زاد يوماً واحداً على السنة القمرية المستعملة إذ ذاك فى بلاد اليونان ، وأضاف إليها كل عامين شهراً واحداً عدد أيامه اثنين وعشرين ، ولما كانت سنتهُ هذه تزيد يوماً واحداً أو ثلاثة أرباع اليوم علىَ السنة الشمسية وكان المولجون بذلك يهملون أحياناً زيادة الشهر المذكور أصبح الخلل على مرّ الزمان عظيماً ، فانتبه قيصر لهذا الأمر وجعل السنة الرومانية شمسية ، أى ثلثمائة وخمسة وستين يوماً ، وأضاف كل أربعة أعوام يوماً واحداً إلى شهر شباط كما هو جار الآن فى سائر الممالك المسيحية .

واستفحل أمر ابنى بومبايس بأسبانيا لأن القواد المرسلين لمحاربتهما لم يستطيعوا أن يقمعوهما ، فزحف ذلك البطل إلى تلك الديار سنة (٤٥ ق . م) ولقيهما بالقرب من مدينة موندا ، فانتشب القتال وكان مهولاً ، ويظهر أن عساكر الديكتاتور قد نسيت نصراتها السابقة والفخر الذى حازتهُ فى حروبها الماضية ، فلم تثبت بادىء بدء بل رجعت إلى الوراءِ وعولت على الفرار فوقف قيصر وقفة الحائر الكئيب لا يعلّم بعمل ولا يدرى كيفَ يكون الخلاص من الفضيحة حتى أنهُ أراد أن ينتحر فى ذلك النهار ، أخيراً جرَّد حسامهُ وأخذ مجناً وهجم وحدهُ على صفوف الأعداءِ مؤثراً الموت الزؤام على الحياة بالذل والعار ، فشجع حينئذٍ القواد والجنود وتبعوه بقلب ثابت إلى حومة الوغى وساحة الأخطار ، وحدث أن لبيونس أحد قواد الأعداء أرسل خمس فرق لقتال بوغد ملك موريتانيا فاغتنم قيصر هذه الفرصة ، وأذاع أن عساكر البومبيين أخذت فى الفرار ، فانتشر هذا الخبر فى الجيشين وكان من نتيجتهِ انكسار الأعداء حقيقة ، فمات منهم فى هذه الوقعة ثلاثون ألف رجل وقواد كثيرون من جملتهم لبيونس وأحد ابنى بومبايس ، وهكذا انتهت هذه الحرب الأهلية التى امتد سعيرها إلى جميع أقطار العالم الرومانى ولما رجع قيصر إلى رومية احتفل بنصرتهِ وأعلن العفو عمن ناوأه وحارب خصمهُ ، وبنى هيكلاً لإله الرحمة ، ونصب تمثالهُ بالقرب من تمثال هذه المعبودة .

ومنحهُ المجلس العالى فى ذلك الحين كل الألقاب الشريفة وعينهُ امبراطوراً (أى قائداً عاماً لجميع الجيوش الرومانية ومفتشاً ومدبرا لأموال الحكومة طول حياته) ودعاهُ أباً ومخلص الوطن ، وبنى هيكلاً للحرية لأن الرومانيين قد نالوها على يَده وأعلن شخصهُ مقدساً نظير وكلاء الشعب ، وسمى باسمهِ الشهر السابع من السنة لأنهُ ولد فيهِ وسمح لهُ أن يضع دائماً على رأسهِ إكليلاً منَ الغار ، وأن يلبس فى أيام الأعياد ثوب الانتصار ، وأن يكون لهُ محل مخصوص فى الملاعب وأن يجلس فى المجلس والفورم على كرسى ذهبى ، وأن ينصب تمثالهُ فى جميع المدائن وسائر هياكل رومية ، وأن يكتب على بعض تلك التماثيل إلى الإله الذى لا يغلب .

ومعلوم أن قيصر قد طبع على محبة العظمة والرئاسة ، ودليل ذلك الحروب المهولة التى خاض عجاجها غير مبال وقولهُ دائماً لأصدقائه : إنى أود أن أكون الأول فى قرية ولا الثانى فى رومية ، غير أن أطماعه التى مهدت لهُ سبل المجد والفخار قد سببت هلاكه لأنهُ لم يرضَ بالألقاب الشريفة التى منحهُ إياها المجلس الرومانى ، ولم تكفه المناصب العالية التى تقلدها ، بل تطلب أن يكون ملكاً ويرتقى عرش الملك قبلَ ذهابهِ إلى بارثيا ليحارب أهلها ويأخذ بثأر صديقهِ كراسس ، فأهاج سعيهُ هذا بغضهُ فى قلوب كثيرين من جملتهم بروتس وكاسيوس وستون آخرون من عظماء وشرفاء رومية ، فتآمروا بقتله وتعاهدوا على هذا الأمر بأوثق الأيمان ، وفى اليوم المعين لتنصيبهِ ملكاً أتاهُ هؤلاءِ المؤامرون وبينما كان جالساً فى دار الندوة تقدم أحدهم المدعو سيمبر وجثا عند قدميهِ يسألهُ حاجة ، ثم أمسك بذيل ثوبهِ ، وهى العلامة التى جعلوها لإشهار السلاح وقتله فانقضوا عليهِ حينئذٍ انقضاض الصواعق وضربوه ثلاثاً وعشرين ضربة سقوهُ بها كأس المنون ، وذلكَ عام (٤٤ ق . م) فى السنة السادسة والخمسين من عمره.

* * *

الفصل الرابع

فى الحكومة الثلاثة الثانية

وما جرى بعدها إلى حين موت أنطونيوس

واستبداد أوكتافيانس بالأحكام

هيهات أن ينجو الوطن بقتل قيصر من الاستعباد وأن تصبح الجمهورية وطيدة الأركان والشعب حراً كما كان قبل امتداد سلطته على أقطار العالم المعروف ، وفساد أخلاقه بسبب ذلك لأن العظماء ورجال السياسة حينما رأوا تنعم ملوك الشرق وذاقوا لذة الاستبداد وعلموا أن لا عدو لهم فى الدنيا يستطيع قتالهم ، فقدوا تلك الشجاعة التى أسسوا بها عظمة بلادهم ونسوا محبة الوطن حصن رومية الوحيد لدى النوازل الجلى وأقبلوا على الدسائس والمكر يحبطون أعمال بعضهم ويسعون فى إهلاك مواطنيهم لإدراك ما تزينهُ لهم الأطماع ، فلا ينثنون عن غيهم ولو أدركوا المنية بدلاً من المنى ، وبناءً عليهِ نجد الرومانيين بعد وفاة حاكمهم قيصر النشيط هدفاً لسهام البلايا ورزايا الحروب ، لأن الأطماع قد عصفت برؤوس الرؤساءِ وغدت المدائن والأقاليم ساحات قتال تجرى فيها دماء البشر أنهاراً .

وكان فى بلاد اليونان فتى رومانى لم يتجاوز بعد السنة التاسعة عشرة من عمره قد عرك الدهر من صغره فشب شجاعاً طمعاً حكيماً ، فلما علم بموت قيصر جاء مسرعاً إلى رومية لأن الديكتاتور قد تبناهُ وهو ابن بنت أختهِ المسمى أوكتافيوس الذى دعاهُ المجلس أوكتافيانوس فأخذ يستميل القلوب ويسعى فى تمهيد سبيل ارتقائه أوج الفخار ، فاتحد لذلك مع أنطونيوس قائد الفرسان وقائم مقام قيصر والمتولِى وقتئذ منصب القنصلية ورجلاً آخر خاملاً اسمهُ لبيدوس ودعى اتحادهم هذا بالحكومةِ الثلاثية الثانية .

وحينما استتب لهم الأمر ونالوا ما كانوا يبتغونهُ أحيوا فى رومية والمدائن الخاضعة لها أعمال ماريوس وسيلا الوحشية ، لأنهم أهدروا دماء كثيرين أعداء

وأصدقاء من جملتهم سيسرون خطيب اللاتينيين الفريد الذى تحامل عليه أنطونيوس لأنهُ ثلبهُ فى الخطب التى ألقاها فى ذلك العام دفاعاً عن حرية الجمهورية ، وبينما كان ذلك العام العلامة سائراً فى البلاد هارباً لقيهُ رجال الحكومة المرسلين لقتله ، فأراد خدامهُ أن يقاتلوهم ويموتوا فداءَ سيدهم ، إلا أن سيسرون منعهم من هذا الأمر ومدّ عنقهُ للقتل ، فضربه هؤلاءِ الرجال وأتوا أنطونيوس برأسهِ فعلقهُ بالمنبر فى ساحة الفورم مضمار مجده .

وبعد أن خضب أعضاءُ الحكومة الثلاثية أرض رومية بدماءِ أبنائها جهزوا الجنود وذهبوا سنة (٤٢ ق . م) إلى مكدونية ليحاربوا بروتس وكاسيوس اللذين حشدا الفرسان والأبطال وكانا مستعدين للحروب انتقاماً من أعدائهم ودفاعاً عن حرية الرومانيين ، فالتقى الجيشان بالقرب من مدينة فيلبة ، وانتشب القتال وكان بروتس تجاه أوكتافيانس ، فهجم عليهِ برجالهِ وصدمهُ صدمة الرئبال فدحر جنودهُ، وما زال يضربهم ويطعنهم حتى شتت شملهم فى تلك البطاح ودخل معسكرهم واستولى عليهِ .

أما أنطونيوس فقاتل كاسيوس وقهرهُ ، وظن هذا القائد أن رفيقهُ قد قهر أيضاً فضاق ذرعاً واخترط حسامهُ وانتحر ، وكانت نتيجة هذا الأمر إلقاء الرعب وإثارة اليأس فى قلوب عساكر الجمهوريين ، وبعد أيام قليلة انكسر بروتس فاقتفى أثر صديقهِ وسلب مهجتهُ بيده ، ولقد أصاب مؤرخ يسوعى بقولهِ فى عرض الكلام على معركة فيلبه هذه : إن الانتحار دأب الكافرين الذين يرون فى قتل النفس دواءً شافياً لا دواءِ الحياة ، ولكن الدين والعقل وفطرة الإنسان تأنف منهُ . ووثنيون كثيرون قد نسبوه إلى جبن المرءِ الذى لا يستطيع الصبر على حدثان الدهر غير أن المؤَرخ المذكور لم يخبرنا ماذا كان واجباً على بروتس أن يعمل لو صبر لينجو من أعدائهِ الراغبين فى قتلهِ وتعذيبهِ لأنهم لم يثيروا الحرب إلا لإهلاكهِ .

واقتسم أوكتافيانوس وأنطونيوس بعد وقعتى فيلبه أملاك الجمهورية الرومانية ، فنال الأول بلاد الغرب ، وأخذ الثانى بلاد الشرق ، ولما كان أنطونيوس زير نساء تيمهُ هوى كليوبترا مصر ، وأصبح أسير جمالها يقاد لها طوعاً بأزمة حبها ومكرها ، وكان يقضى لذلك أوقاته بالولائمِ والمسرات ناسياً مجدهُ وفخرهُ ومهملاً واجباتهِ لتوطيد سلطتهِ وصيانة شرفهِ حتى أنهُ طلق امرأتهُ أوكتافيا أخت صديقهِ

وحليفهِ وتزوج حبيبتهُ كليوبترا التى وسع نطاق مملكتها بمنحهِ إياها ليبيا وقبرص وسهل كليسيريا (البقاع) ، وفى هذه الأثناء زحف بجنوده لمحاربة ملك بارثيا فقاتلهُ مراراً وعاد من تلك الديار بالذل والفشل ، إلا أنهُ قهر سكستس بن بومبايس الكبير الذى استفحل أمرهُ فى سيسيليا وجمع جيشاً عرمرماً ليستولى بهِ على إيطاليا .

أما أوكتافيانوس فكان باذلاً جهدهُ فى توطيد سلطتهِ واتخاذ الوسائل اللازمة لإرداء رفيقهِ والاستبداد بالأحكام وحدهُ ، وعليه ففى سَنة (٣١ ق . م) حينما رأى ضعف أنطونيوس وانهماكهُ فى الملذات أضرم نار العداوة وسود سيرته لدى المجلس والشعب وجهز عمارة مؤلفة من ثلثمائة سفينة وأتى لمحاربتهِ فى البلاد الشرقية ، ويظهر أن الخطر قد نبه أنطونيوس من رقدة الإهمال ، فجَمع جيشهُ وسفنهُ وتقدم لقتال صديقهِ القديم وشريكهِ فى السلطة والمجد ، فالتقت العمارتان بالقرب من رأس أكتيوم وانتشبت الحرب وكانت عواناً ، وثبت الفريقان فيها ثبات الأبطال إلى أن ولت كليوبترا هاربة إلى مصر ، فلحق بها أنطونيوس لأنهُ كان يؤثر التمتع بجمالها على فخر الانتصار وملك العالم بأسره ، فظفر حينئذ أوكتافيانوس على من بقى من جيوشهِ وسفنهِ ، وسار مسرعاً إلى الديار المصرية ليحاربهُ هناك ويقتلهُ .

ومعلوم أن أصدقاءَ المرء يكثرون أو يقلون حسب نجاحه وتأخره فى العالم ، لأن الصديق الصدوق نادر وجودهُ والإخلاص فى سائر الأحوال أمرٌ شبيه **بالمستحيل ، وعليهِ فحلفاءُ أنطونيوس حينما رأوهُ مقهوراً ذليلاً تركوه وشأنهُ وتباروا** فى مصادقة أوكتافيانوس والخضوع لهُ حتى أن عمارتهُ وجنوده بعد أن نازلت أعداءهُ مرتين أو ثلاث خانتهُ وأمنت إلى أوكتافيانوس ففازت منهُ بالأمان .

ودخلت كليوبترا إلى قصرها وأوصدت أبوابهُ وأذاعت أنها يئست من الحياة وقتلت نفسها ، وبلغ ذلك حبيبها فضاق ذرعاً وقال : الويل لك يا أنطونيوس ، ماذا تأمل فى هذا العالم وقد مضت التى كنت تحب الحياة لأجلها ، ثم ذهب إلى غرفتهِ وأخذ فى النحيب وهو يقول : يا كليوبترا ، ليس فراقنا أعظم سبب لحزنى لأننا سنجتمع مرة أخرى ، ولكننى أموت أسىً حينما أراك قد فقتنى بالشجاعة ، أنا الذى تسلط على الأبطال ودانت لهُ سادة الناس صاغرة ، وفى

الحال دعا أروس أصدق خدامه وأمره أن يستل سيفهُ ويقتلهُ ، فلم يصدع أروس بأمره ، بل اخترط حسامهُ وضَرب نفسهُ وخرَّ قتيلاً عند قدميهِ ، ولما رآهُ يختبط بدماه صرخ قائلاً : يا صديقى أروس ، إنى أشكرك على تعليمك إياى أن أعمل ما أبيت أنت إجراءَه إكراماً وإجلالاً لى ، ثم جردْ حسامهُ وضرب بهِ صدره وسقط على فراشهِ ، فأرسلت كليوبترا أحد خدامها وأحضرتهُ إلى قصرها فقضى نحبهُ بعد برهة مسروراً أن يراها قبل موتهِ .

وكانت كليوبترا آملة أنها ستفتن أوكتافيانوس بجمالها الباهر ، فخاب أملها لأن ذلك القائد الفتى كان لا يعرف سلطاناً غير الأطماع ، ولا يحب شيئاً سوى التسلط على البشر ، وكان مرادهُ أن يحضرها إلى رومية لتمشى أمام مركبتهِ حينما يحتفل بنصرته ، فبذل جهده فى إرضائها حتى تمكن من القبض عليها ، ولما علمت هى بما نوى ذهبت إلى ضريح أنطونيوس وندبتهُ بعبارات تفتت الأكباد ، ثم عادت إلى منزلها ولبست لباس الزينة ، وبعد أن أكلت دخلت مخدعها ووضعت على ذراعها حية أتوها بها فى قرطل تين فلدغتها الحية وماتت عام (٣٠ ق . م) فى السنة التاسعة والثلاثين من عمرها والعشرين من ملكها على الديار المصرية وانقرضت بموتها دولة البطالسة التى تسلطت مائتين وأربعاً وتسعين سنة وجُعلت مصر لذلك ولاية رومانية .

وفى سنة (٢٩ ق . م) رجع أوكتافيانوس إلى رومية واحتفل بنصرتهِ وأغلق أبواب هيكل جانس دلالة على السلام العام ، تولى جميع المناصب العالية ودعى أبا الوطن وأمير السلام ومصلح العالم ، وهكذا تلاشت الحكومة الجمهورية حقيقة واستبدلت بالحكومة الملكية ، وسمى المجلس أوكتافيانوس أوغسطوس (أى المعظم) ، وهو أول سلطان تسلط على العالم الرومانى ..

* * *

قال مؤلفهُ نجيب إبراهيم طراد : هذا ما أردت جمعهُ من أخبار أمة سادت بشجاعتها وملكت الخافقين ببطشها وحكمة بنيها ، وزالت ولم تزل كتبها وأعمالها تبصرة لأرباب السياسة والنهى بها ينتصح الجاهل ويهتدى العاقل فى ليل حياتهِ البهيم ، ولا بدع إذا رأينا علماء الغرب يقضون سنوات عديدة فى درس لغتها التى درست لأنها مصدر لغاتهم وأساس آدابهم ، وقد جهد أشهر كتبتهم

مثل رولان ومتناسكيه وغبون فى وضع تاريخها وشرح أسباب تقدمها وسقوطها ، فشرحوا الصدور بكلامهم البليغ وحلوا جيد أفعالها بعبارتهم الدرية ، فأكسبوها طلاوة جديدة ، ولكل جديد طلاوة ، ولا يخفى عن القارئ اللبيب أننى سلكت فى هذا المؤلف مسلك الاختصار ، كما نبهت مراراً فى عرض الكلام على بعض الحوادث ، لا سيما فى صفحة (١٦٥) فليراجع كل ذلك فى موضعه وسأباشر قريباً طبع « تاريخ سلاطين رومية والدولة الرومانية الشرقية » .

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقـدمة	١٣
فاتحة الكتاب	١٥
الباب الأول	
فى ملوك رومية وهم سبعة من سنة (٧٥٣) إلى سنة (٥١٠ ق . م) أو من سنة (١) إلى سنة (٢٤٣ ب . ر)	٢٣
الفصل الأول :	
فى ملك روملس من سنة (٧٥٣) إلى سنة (٧١٦ ق . م) أو من سنة (١) إلى سنة (٣٧ ب . ر)	٢٥
الفصل الثانى :	
فى ملك نوما من سنة (٧١٥) إلى سنة (٦٧٣ ق . م) أو من سنة (٣٨) إلى سنة (٨٠ ب . ر)	٣٤
الفصل الثالث :	
فى ملك طلس هوسنيليوس من سنة (٦٧٣) إلى سنة (٦٤١ ق . م) أو من سنة (٨٠) إلى سنة (١١٢ ب . ر)	٣٨
الفصل الرابع :	
فى ملك أنكس مارسيوس من سنة (٦٤١) إلى (٦١٦ ق . م) أو من سنة (١١٢) إلى سنة (١٢٧ ب . ر)	٤٢
الفصل الخامس :	
فى ملك طاركوينس برسكس أو طاركوينس الأول من سنة (٦١٦) إلى سنة (٥٧٨ ق . م) أو من سنة (١٢٧) إلى سنة (١٧٥ ب. ر)	٤٣
الفصل السادس :	
فى ملك سرفيوس طليوس من سنة (٥٧٨) إلى سنة (٥٣٤ ق . م) أو من سنة (١٧٥) إلى سنة (٢١٩ ب . ر)	٤٧
الفصل السابع :	
فى ملك طاركوينس العاتى أو طاركوينس الثانى وهو آخر ملوك رومية من سنة (٥٣٤) إلى سنة (٥١٠ ق . م) أو من سنة (٢١٩) إلى سنة (٢٤٣ ب.ر).	٥٢
الباب الثانى	
من ابتداء الحكومة الجمهورية سنة (٥٠٩) إلى حين تجديد بناء رومية سنة (٣٨٨ ق . م) بعد ما حرقها الغاليون أو من سنة (٢٤٤) إلى سنة (٣٦٥ ب . ر)	٥٩
الفصل الأول :	
فى القنصلية الأولى	٦١

الفصل الثانى :
فى حرب بورسينا وهيجان المديونين ، وإقامة ديكتاتور ووقعة رجلس ٦٥
الفصل الثالث :
فى هيجان المديونين وذهابهم إلى الجبل المقدس وأعمال كوريولانس ٦٩
الفصل الرابع :
خصام العوام والشرفاء وحرب الأكويين وشرائع الاثنى عشر لوحاً وما جرى لفرجينيا مع أحد الحكام العشرة ٧٤
الفصل الخامس :
خصام العوام والشرفاء وإقامة مفتشين واستبدال القنصلين بولاة عسكريين وتعين أجرة للجنود وحرب مدينة فىّ وفالريا وخروج كاملس من رومية وحرب الغاليين مع ذكر أسبابها ورجوع كاملس إلى رومية وطردهم منها ٨٨
الباب الثالث
من حين تجديد بناء رومية سنة (٣٨٨ ق . م) بعد ما حرقها الغاليون إلى الحرب القرطجنية الأولى سنة (٢٦٤) أو من سنة (٣٦٥) إلى سنة (٤٨٩ ب. ر) ٩٥
الفصل الأول :
قتال الرومانيين للأمم المجاورة والغاليين وإلغاء مناصب الولاة العسكريين وإقامة برتور وإديل وحرب السمنيتيين واللاتينيين ٩٧
الفصل الثانى :
فى حرب السمنيتيين وخضوعهم لرومية ١٠٣
الفصل الثالث :
حرب الترنتيين وبيرس ١٠٨
الباب الرابع
من ابتداء الحرب القرطجنية الأولى سنة (٢٦٤) إلى انتهاء الحروب الثانية سنة (٢٠١ ق . م) أو من سنة (٤٨٩) إلى سنة (٥٥٢ ب. ر) ... ١١٥
توطئة ١١٧
الفصل الأول :
حرب قرطجنة الأولى ١٢٠
الفصل الثانى :
حرب القرطجنيين الأهلية وقتال الرومانيين للأيلريين والغاليين ١٢٦
الفصل الثالث :
فى الحرب القرطجنية الثانية ١٣٠
الباب الخامس
من انتهاء الحرب القرطجنية الثانية سنة (٢٠١) إلى حين انتهاء الحرب الثالثة وخراب مدينة قرطجنة سنة (١٤٦ ق . م) أو من سنة (٥٥٢) إلى سنة (٦٠٧ ب . ر) ١٥٣

الفصل الأول :
الحرب المكدونية الأولى والثانية وحرب أنطيوخس الكبير ملك سوريا وموت أنيبال. ١٥٥
الفصل الثانى :
فى الحرب القرطجنية الثالثة ١٦٣

الباب السادس

من حين انتهاء الحرب القرطجنية الثالثة سنة (١٤٦) إلى إقامة الحكومة الثلاثية الأولى سنة (٦٠ ق . م) ومن سنة (٦٠٧) إلى سنة (٦٩٦ ب . ر) . . . ١٦٣
الفصل الأول :
فى إخضاع اليونانيين وحصار نيمانسيا ونزاع الغراكيين والشرفاء وحرب العبيد فى سيسيليا ١٦٥
الفصل الثانى :
فى حرب يوغرتا ١٧٠
الفصل الثالث :
فى حرب السمبريين والتيتونيين والحرب الأهلية والإيطالية ١٧٤
الفصل الرابع :
فى حرب متريدات الأولى وعداوة ماريوس وسيلا ١٧٨
الفصل الخامس :
فى استيلاء سيلا على رومية وإقامته ديكتاتوراً طول حياته إلى حين موته سنة (٧٨ ق . م) ١٨٦
الفصل السادس :
فى حرب متريدات الثانية والثالثة ١٩٢
الفصل السابع :
ملخص ترجمة حياة سيسرون وبورسيوس كاتو وجوليوس قيصر وسرجيوس كاتلينا قبل شبوب نار الفتنة التى أضرمها الأخير ٢٠٠
الفصل الثامن :
فى مؤامرة كاتلينا ٢٠٤

الباب السابع

من حين إقامة الحكومة الثلاثية الأولى سنة (٦٠) إلى حين تسلط أوكتافيانوس سنة (٢٩ ق . م) ٢١١
الفصل الأول :
أعمال قيصر فى رومية وحروبهُ فى البلاد الغالية مع ذكر حرب كراسس ببارثيا. ٢١٣
الفصل الثانى :
فى حرب قيصر مع بومبايس وموت الأخير مع ذكر أعمال قيصر فى الشرق . . . ٢١٧
الفصل الثالث :
فى حروب قيصر فى أفريقيا وأسبانيا وأعماله فى رومية وموتهِ سنة (٤٤ ق . م) ٢٢٢
الفصل الرابع :
فى الحكومة الثلاثية الثمانية وما [illegible] بعدها إلى حين موت أنطونيوس واستبداد أوكتافيانوس بالأحكام ٢٢٥

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

طباعة. نشر. توزيع

٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - جيزة

ت : ٣٢٥٠٢٠٢ - ٣٢٥٠٩٥٧